

# مَحَا تَمَا غَانِدِي

سيرة ته كما كتبها بقامه

ترجمة

اسماعيل مطهر

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر  
بجوار سيدنا الحسين بمصر



# منتدى سور الأزبكية

[WWW.BOOKS4ALL.NET](http://WWW.BOOKS4ALL.NET)

# مَهَاتَمَا غَانْدِي

نشأته وعمله في جنوب إفريقيا

من سيرته كما كتبها بقلمه ونشرها مستر اندروز الانجليزى أحد مريديه

ترجمة

اسماعيل مظفر

---

طبع بمطبعة عيسى الباني الحلبي وشركاه بمصر



## الاهراء

مع كثير من المحبة والعطف  
إلى الدكتور بهادر سنغ وزوجه  
وإلى المقيمين من بنى جلدتى بجزائر الهند الغربية

# قصيدة شوقي بك

في غاندى — بطل الهند

نهد لهذا الكتاب بالقصيد الفريدة  
التي حياها المرحوم شوقي بك غاندى  
عند ما مر بمصر في طريقه إلى إنجلترا  
ليحضر مؤتمر المائدة المستديرة، تحية  
من مصر إلى بطل الهند .

بِئْسَ مِصْرَ أَرْفَعُوا الْغَارَ      وَحَيُّوا بَطْلَ الْهِنْدِ  
وَأَدُّوا وَاجِبًا وَاقْضُوا      حُقُوقَ الْعِلْمِ الْفَرْدِ  
أَخُوكُمْ فِي الْمُقَاسَاةِ      وَعَرَّكَ الْمَوْقِفِ النَّكْدِ  
وَفِي التَّضْحِيَةِ الْكُبْرَى      وَفِي الْمَطْلَبِ وَالْجَهْدِ  
وَفِي الْجُرْحِ وَفِي الدَّمْعِ      وَفِي النَّفْيِ مِنَ الْمَهْدِ  
وَفِي الرَّحْلَةِ لِلْحَقِّ      وَفِي مَرَّحَلَةِ الْوَفْدِ  
قِفُوا حَيُّوهُ مِنْ قُرْبٍ      عَلَى الْفُلْكِ وَمِنْ بَعْدِ  
وَعَطُّوا الْبَرَّ بِالْأَسِ      وَعَطُّوا الْبَحْرَ بِالْوَرْدِ

\*\*\*

عَلَى اَفْرِيزِ رَاجِبُوتَا      نَ تَمَثَالُ مِنْ الْمَجْدِ

نَبِيٌّ مِثْلَ كُنْفُو شِيُو	سَ أَوْ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ
قَرِيبُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ	مِنْ الْمُنْتَظَرِ الْمَهْدِي
شَبِيهُ الرُّسُلِ فِي الذُّودِ	عَنِ الْحَقِّ وَفِي الزُّهْدِ
لَقَدْ عَلمَ بِالْحَقِّ	وَبِالصَّبْرِ وَبِالْقَصْدِ
وَنَادَى الْمَشْرِقَ الْأَقْصَى	فَلَبَّاهُ مِنْ الْأَحْدِ
وَجَاءَ الْأَنْفُسَ الْمَرْضَى	فَدَاوَاهَا مِنْ الْحَقْدِ
دَعَى الْهِنْدُوسَ وَالْإِسْلَامَ	مَ لِلْأَلْفَةِ وَالْوُدِّ
بِسِحْرِ مِنْ قُوَى الرُّوحِ	حَوَى السِّيفَيْنِ فِي غَمْدِ
وَسُلْطَانَ مِنْ النَّفْسِ	يَقْوَى رَائِدَ الْأَسَدِ
وَتَوَفَّقِي مِنْ اللَّهِ	وَتَيْسِيرِ مِنْ السَّعْدِ
وَحَظَّ لَيْسَ يُعْطَاهُ	سِوَى الْمَخْلُوقِ لِلْخَلْدِ
وَلَا يُؤْخَذُ بِالْحَوْلِ	وَلَا الصَّوْلِ وَلَا الْجُنْدِ
وَلَا بِالنَّسْلِ وَالْمَالِ	وَلَا الْكَدْحِ وَلَا الْكَدِّ
وَلَكِنْ هِبَةَ الْمَوْلَى،	تَعَالَى اللَّهُ ، لِعَبْدِ

\*\*\*

سَلَامُ النَّيْلِ يَا غَنْدِي	وَهَذَا الزَّهْرُ مِنْ عِنْدِي
وَإِجْلَالٌ مِنَ الْأَهْرَاءِ	مَ وَالْكَرْنَكِ وَالْبَرْدِي

وَمِنْ مَشِيخَةِ الْوَادِي وَمِنْ أَشْبَاهِ الْمُرْدِ  
 سَلَامٌ حَالِبِ الشَّاةِ سَلَامٌ غَازِلِ الْبُرْدِ  
 وَمَنْ صَدَّ عَنِ الْمَلْحِ وَلَمْ يُقْبَلْ عَلَى الشَّهِدِ  
 وَمَنْ يَرْكَبُ سَاقِيَهُ هِ مِنْ الْهِنْدِ إِلَى السِّنْدِ  
 سَلَامًا كُلَّمَا صَلَّى مَتَ عُرْيَانًا وَفِي اللَّبْدِ  
 وَفِي زَاوِيَةِ السَّجْنِ وَفِي سِلْسِلَةِ الْقَيْدِ

\*\*\*

مِنْ الْمَائِدَةِ الْخَضْرَاءِ ۚ خُذْ حِرْكَ يَا غَنْدِي  
 وَلَا حِظُّ وَرَقِ السَّيْرِ وَمَا فِي وَرَقِ الْوَرْدِ  
 وَكُنْ أَبْرَعَ مَنْ يَدَا عَبُّ بِالشُّطْرَنْجِ وَالنَّرْدِ  
 وَلَا فِي الْعَبْقَرِيِّينَ لِقَاءَ النَّدِّ لِلنَّدِ  
 وَقُلْ هَاتُوا أَفَاعِيكُمْ أَتَى الْخَاوِي مِنْ الْهِنْدِ  
 وَعُدُّ، لَمْ يَجْفِلِ الدَّامُ وَلَمْ يَغْتَرَّ بِالْحَمْدِ  
 فَهَذَا النَّجْمُ لَا تَرْقِي إِلَيْهِ هِمَّةُ النَّقْدِ  
 وَرُدَّ الْهِنْدِ لِلَّامِ ۚ مِنْ حَدِّ إِلَى حَدِّ



## ديباجة

### صورة بقلم الناقل

امبراطورية لا تغيب الشمس عن أملاكها . فكرة الأرض تحمل من ألوانها الجغرافية زناً يحوطها مع خطوط الطول وخطوط العرض ، ولسلطانها يخضع الأبيض والأسمر والأصفر والنحاسي والأسود من سلالات البشر . وفي داخل أملاكها تدين أقوام بصور من الأديان وألوان من العقائد لا يحصرها العد ، وينطق بلغات وألسنة تمثل ما بلبل الله من لهجات أهل الأرض في بابل القديمة . امبراطورية تسود البحار ، ومن ساد البحار فقد حاصر اليابسة وأذها في عصر كعصرنا قوام الحياة فيه الاتصال لا الانفصال . امبراطورية تقدر ثروتها بالملايين وآلاف الملايين من الأصفر الرنان ، وتحصى مواردها بأرقام يخيل اليك أنها موهومة . ونخير للحساب أن يبتدعوا طريقة حسابية لحصر تلك الموارد شبيهة بطريقة الفلكيين إذ يقيسون أبعاد الشمس والسيارات بالسنين النورية ، لا بالأميال الأرضية . هذه الامبراطورية يقيمها ويقعدها هيكل بشري من الدم واللحم والعظام ، لا يزيد وزنه على وزن كرة مدفع من أصغر مدافع بريطانيا العظمى . وأما هذا الهيكل البشري الضئيل ، فغاندى العظيم .



كم من مرة في بضع السنوات الأخيرة تحركت هذه الامبراطوية ،  
وأعدت عدتها برأ وبجرأ ، كما يتحرك « امفيان » لا تصوره إلا  
الميثولوجيا القديمة ، استعداداً للقبض على غاندى لتضعه بين أربعة  
جدران من اللبنة المرصوة . ولعمري إن هذا لأبلغ ما يصل اليه  
الوهم الدنيوى . فان جسم غاندى الضئيل ليس بشيء إذا هو حبس بين  
أربعة جدران من الحجارة أو الفولاذ ، مادامت روحه محلقة في سماء  
الحرية الفسيحة ، فتكهرب جوالشرق ، بل جو الكرة الأرضية ، لا جو  
الهند وحدها .

انما تكون الامبراطورية البريطانية جديرة بعظمتها، اذا هي استطاعت  
أن تسجن روح غاندى في « ققم » كما كان يسجن سليمان بن داود  
الجن والشياطين في روايات ألف ليلة ، وتمحو أثرها من الوجود .  
فأما وروح غاندى تسبح في فضاء الحرية ، وتغنى الأرواح الأخرى  
بمبادئها ، فأى أثر يمكن أن يحدثه سجن الهيكل الترابى ، في حجرة  
عرض جدرانها نصف قيراط ، أو نصف ميل من حجارة أوفولاذ .  
وفي اكمال رجولته يأتى «غاندى» ، الخالد الفانى، بالمعجزة الكبرى،  
فيسوى بين الانجاس المنبوذين في الهند ، الخارجين من قدمى بوذا ،  
والهندوكيين الأظهار ، الخارجين من رأسه ، ويقضى على العقائد والفوارق  
المقدسة التى غذاها الزمان الطويل بكل ما يستطيع أن يخلق التكوين  
البشرى من الأوهام . ثم يهدد بالصيام الى الموت اذا لم تتم المعجزة ، لانه



لم يستطع أن يوقظ ضمير الهند النائم ، ولم يستطع أن يوقظ ضمير الانجليز ؛ فيضطرب جو الكرة الأرضية ، وتفتح له أبواب السجن ليكون حراً ، فيأبى إلا أن يموت سجيناً . ثم يخاطب الملوك والحكومات وهو بعد في السجن ، مستلقياً تحت ظلال شجرة من « المانجو » منصرفاً إلى صلواته العميقة ، يستقبل الموت في أسماه باسم راضى النفس .

وهنا يستيقظ ضمير الهند فتفتح الهياكل المقدسة للانجاس المنبوذين ويتساوى كل أهل الهند في الحقوق المدنية والسياسية ، وتم المعجزة الكبرى لأول مرة في تاريخ الشرق ، لا من طريق الشعوذة ، ولا من طريق السيف ، بل من طريق الاقناع . ولعمري إن هذا لأول حجر يبنى في استقلال الشرق بقوة الايمان ، لا بقوة الحديد والنار . وهنا يستقر الروح الحائر ، ويرضى بأن يظل ملازماً للجسم الترابي الى حين .

فيا لعظمة غاندى ، ويا لنبل الرسالة التي أداها ، والتضحية التي ضحاها .

على أن لهذا الهيكل الضئيل تاريخاً تكونت خلاله عناصر القوة والعظمة التي يمتاز بها غاندى ، وأكبر ميزة لهذا التاريخ أنه يظهر على غاندى في أطواره المتلاحقة ، ويكشف لك عن كلالته ونقائصه ، في صباه ، ثم تحوله في شبابه ، ثم قنوته ونسكه في شيخوخته . ومن هذا التاريخ تعرف كيف تكونت مع عناصر قوته وعظمته ، عناصر مبادئه السياسية التي استخلصها من عمليات ووقائع مشهودة ، لا من نظريات خاوية فارغة ، كثر ماخطها غيره من الزعماء على الورق ، أو استخلصوها



من التاريخ ، وكثير ما خاب حدسهم وغشهم التاريخ .  
فاذا أنت استوعبت تاريخ غاندى العظيم ، أمكنك أن تعرف كيف  
يكون أثر المبدأ من القوة اذ يتكون على مدى الدهر بعد أن تصقله  
الحوادث والكوارث ، وكيف يكون أثر المبدأ من الضعف والفساد اذ  
يعمد إلى النظريات دون العمليات .

أما هذا التاريخ فجزء من سيرة غاندى نفسه كما كتبها هو ونشرها  
رجل انجليزى من مؤيديه المعجبين بشخصه يدعى مستر « اندروز » . وقد  
راجعها غاندى قبل نشرها . وسوف تتوخى فى التلخيص طريقة الترجمة  
الكلية لفصول الكتاب ، بحيث يظهر تاريخ « بشير القرن العشرين »  
مفصلاً مطرداً بقدر ما تسمح بذلك الظروف . على أنى لم أهمل إلا بضع  
جمل ، ولم أتصرف الا قليلا . واذا تتالت الصفحات وتعاقبت ، فعذرنا أننا  
ترجم عن حياة رجل هز أعظم امبراطوريات الأرض ، بعد أن أفلت  
روحه من أقفاص الفولاذ والحجارة التى حاكتها من حوله أو هام  
القرن العشرين .

اسماعيل مظهر



# الفصل الاول

## المولد والمسكن

الغانديون من طائفة «البانيا» Bania والظاهر انهم كانوا في الأصل تجاراً يتعاطون التجارة في بيع السلع نجومياً ، لاجلة . ولكنهم ظلوا منذ ثلاثة أجيال وزراء في كثير من مقاطعات « كاثياوار » Kathiawar وكان جدي «أوتاغاندي» من الرجال الذين يقدرون المبادئ ، وقد اضطرته الدسائس السياسية أن يغادر «پورباندر» Porbander حيث كان «ديواناً» أي رئيس وزراء ، وأن يلجأ هارباً إلى «جوناجاد» . فلما قابل «نواب» هذه المقاطعة ، حياه بيده اليسرى . ولما سئل عن سبب ذلك - قال - « ان يدي اليمنى قد قطعت لنواب «پورباندر» عهداً غير مخلوف » .

وتزوج «أوتاغاندي» مرتين ، فكان له أربعة أولاد من زوجه الاولى ، واثنان من الثانية . ولما كنت صغيراً لم أشعر مطلقاً بأن أولاد «أوتا» كانوا غير أشقاء . أما خامس أولاده فكان « كرمشاند غاندي » وسمى « كبا غاندي » كما كان سادسهم يدعى « تولسيدس غاندي » ، وكلاهما كان رئيس وزراء ، أحدهما تلو الآخر . أما أبي « كبا غاندي » فكان



رئيس وزارة « راجكوت » لعهد ما ، ثم رئيساً لوزارة « فانكانار » ولما مات كان يتناول معاشاً من حكومة « راجكوت » .  
وتزوج « كباغاندى » أربع مرات على التوالي ، اذ كان يفقده الموت من يتزوج منها كل مرة . وكان له من زوجه الأولين فتاتان من كل واحدة ، وأما زوجته الثالثة « بوتلباي » فقد أعقبت بنتاً وثلاثة صبية ، كنت أنا أصغرهم

كان والدى محباً لطائفته صادق القول شجاعاً كريماً ، ولكنه كان ضيق الخلق . ولم يكن زاهداً فى الميول الحيوانية ، لأنه تزوج الرابعة وقد تجاوز الأربعين من عمره . غير انه كان مستقيماً جداً طاهر اليد ، وكان معروفاً باستقلال رأيه وعدم تحيزه ، سواء أئين أسرته ، أم بين الناس . أما خضوعه للحكومة فأمر معروف ذائع . تكلم أحد رجال السياسة فسب أميره ، ولكن « كباغاندى » رد السباب بمثله . ولما طلب منه أن يعتذر رفض الاعتذار ، فسجن بضع ساعات ، ولم يفرج عنه الا بعد أن رؤى أنه من العيب أن ينثنى « غاندى » عن عزمه .

ولم يحاول أبى أن يثرى ، ولم يترك لنا من الحطام الا النزر اليسير . ولم يتلق العلم ولم يتعلم ، اللهم الا ما تجود به تجربة الحياة على الناس . كان جاهلاً بالتاريخ والجغرافية . غير أن تجاربه كانت كفيلاً بأن تجعله قادراً على أن يحل أعوص المشكلات ، وان يسوس مئات الرجال . ولم يفقه من الدين الا قليلاً ، غير أنه استوعب تلك الثقافة التى تستوعب من كثرة



التردد على الهياكل والمعابد وسماع المناقشات التي كانت تدور حول الدين الهندوكي . وفي أواخر أيامه بدأ يقرأ « الغيتا » The Gita على برهمي مثقف من أصدقاء الأسرة ، واعتاد أن يردد بعض مقطوعات دينية جهرًا خلال صلاته .

أما الأثر الذي تركته أي مطبوعاً في مخيلتي فأثر الزهد والقداسة . كانت متدينة شديدة التدين ، حتى أنها لم تكن تأكل وجباتها اليومية من غير أن تؤدي عنها صلاة حارة كلها تعبد وقنوت . أما زيارتها للمعبد فكانت من الواجبات اليومية الضرورية . ولا أذكر ، على قدر ما اتصل إليه ذا كرتي ، أنها أهملت يوماً صيامها الديني ، حتى أن المرض لم يكن سبباً في أن تفرط في هذا الواجب المقدس . مرضت مرة مع حلول الصوم ، غير أن المرض لم يكن يخل بالنظام أو يؤثر في القيام بالواجب الأبدي . ولم يكن ذا بال لديها أن توالي الصيام أياماً ، بل كانت تكتفي بوجبة واحدة في اليوم ، مادامت صائمة . وكانت تنذر في بعض الأحيان أن لا تأكل إلا إذا طلعت الشمس وبرزغت من خلال الغيوم ورأتها بعينها . وكنا ونحن أطفالاً نقف في مثل تلك الأيام متطلعين إلى السماء ، وكنا شغوف بأن يكون أول من يبشر أمه بيزوغ الشمس من خلال السحب الثقيلة . وبلاد الهند في خلال فصل الأمطار لا ترى الشمس الاغراراً . ولا أزال أذكر أياماً كنت أهرع فيها إلى أمي حالما تظهر الشمس بعد هطول الأمطار لأبشرها بالنبا العظيم . فكانت تخرج لتراها



بعينها ، ولكن الشمس الطريدة تكون قد توارت وراء الغيوم قبل أن تكتحل عينها بمرآها ، فتطوى صائمة ! وقد تقول . « غير مهم ! ان الله لا يريدني أن آكل » . ثم تمضى فى شؤونها وواجباتها كأن لم يكن شىء .

وكانت أى ذات قدرة فى الحكم على حقائق الأشياء . وكانت محيطة بأحوال الحكومة ، حتى ان نساء الحاشية كن يقدرن فيها الذكاء . وكننت أصحابها فى زيارتها متخذاً من طفولتى عذراً ، ولا أزال أذكر مناقشات كلها فطنة وادراك كانت تدور بينها وبين أرملة « ثاقور صاحب » .

...

من هذين الأبوين ولدت فى « پورباندر » فى اليوم الثانى من اكتوبر سنة ١٨٩٦ ، وهناك قطعت طفولتى وذهبت الى المدرسة . لم احفظ جدول الضرب الا بكل صعوبة . والحقيقة انى لم أتعلم فى هذا الطور أنا والصبية الذين كانوا يتعلمون معى من شىء اللهم الا ذم المعلم . والظاهر أن عقلى فى ذلك العهد كان ضعيفاً ، كما كانت ذاكرتى فجأة غير ناضجة .

وكان عمري سبع سنوات لما ترك أبى « پورباندار » الى « راجكوت » ليكون عضواً فى الحاشية . فالحقنى بمدرسة ابتدائية ، فكنت فيها كما كنت فى الأولى تلميذاً عادياً متوسط القوة . غير انى لم أصل الى الثانية



عشرة حتى كنت في مدرسة ثانوية ، ولا أتذكر خلال هذه الاثني عشر عاماً من عمري ، على طفولتي ، اني كذبت مرة واحدة ، سواء على معلمي ، أم على اخواني في التلمذة . وكنت خجولاً جداً ، متباعداً عن مرافقة الناس . وكانت عادتى أن أكون يباب المدرسة عند ماتدق ساعة البدء في الدرس ، وأعود الى البيت توأ بعد الانصراف . وكنت أقطع المسافة من المدرسة الى البيت عدواً ، لأنى لم أكن احتمل أن أتكلم مع أى انسان ، كما كنت أخاف أن يهزأ بي أى شخص كان .

...

وقعت خلال دراستى حادثة لا بأس بذكرها . وكان مستر « جيلز » Mr . Giles - مفتش التعليم قد وفد مرة يفتش ، فأملى علينا خمس كلمات ليعرف مقدار علمنا بالهجاء ( في اللغة الانجليزية ) فأخطأت في احداها ، وأراد المعلم أن ينهينى الى ذلك بطرف حذائه . ولكنى تعمدت أن لا أنتبه ، لأنى شعرت بانه ليس في مقدورى أن أغش التهجية من صحيفة جارى ، ولأن من واجب المعلم أن يحول دون الغش في الامتحان . وكانت النتيجة أن جميع التلاميذ استطاعوا أن يكتبوا كل الكلمات صحيحة ماعداى . فأنا وحدى كنت بليداً . وكثيراً ماحاول المعلم أن يصرفنى عن هذه البلادة ، ولكن عبثاً . لأن الغش شىء لم يكن في مقدورى أن آلفه .

على أن هذا الحادث لم يكن من شأنه أن ينزل من قدر أستاذى في



نظري أو يقلل من احترامه في قلبي . فقد كنت بطبعي أعمى عن أن  
أعد نقائص الذين هم أكبر مني سناً . ولقد علمت بعد ذلك كثيراً من  
نقائص هذا الاستاذ . غير أن احترامي له ظل كما كان . لأنى شبيت  
على أن أطيع أوامر من هم أكبر مني ، لأن أعد معاييهم .  
حادثتان أخريان في ذلك العهد لا تزالان عالقتين بذاكرتي . كانت  
عادتى أن أنصرف عن قراءة أى شىء خارج عن مجال درسى . وكنت  
أنجز درسى اليومى دائماً . لأنى كنت امتعض من أن يكلفنى أستاذى  
بواجب عملى ، كما كنت أكره أن أغشه . كنت أنجز دروسى ، ولكن  
عقلى كان دائماً بعيداً عنها . كنت أنجزها غائب العقل ذاهلاً عنها .  
ولكن ما دمت قد أنجزتها كيفما كان الحال ، فلا عقاب بتكليف  
بواجبات أخرى . غير أنى بصدفة ما وقعت عيني على كتاب اشتراه أبى .  
وكانت رواية تدور حولها حول ولاء « شرافانا » لأبويه فقراءته بمنتهى  
ما يصل اليه الاعجاب وتذهب اليه اللذة . وفى ذلك الحين هبط منزلنا  
بعض البائعين المتجولين ، فرأيت فيما رأيت معهم ، صورة تمثل  
« شرافانا » يحمل فى حمالة معاقة فى كتفيه أبويه الضريين فى هجرة  
ظويلة أزماها . ولقد ترك الكتاب والصورة فى ذهنى أثاراً لا يمحي .  
قلت فى نفسى : « هو ذامثال تحمديه » . ولا يزال حياً فى ذهنى رثاء  
أبويه على موته ولوعتهما على فقده . ولقد هزنى النغم من أعماقى فحفظته  
وأخذت أعزفه على « كونسرتينا - Concertina - اشتراها لى أبى .



والحادثة الثانية تتعلق كهذه برواية . فقد حصلت من أبي علي اذن بأن أشهد رواية تمثيلية يدعى بطلها « هاريشاندرا » . فملكنت منى هذه الرواية كل نواحي قلبي ، وسكنت معانيها في قرارة نفسي ، حتى لقد أخذت اتساءل « لماذا لا يكون كل الناس صادقين مثل هاريشاندرا » . ؟ اتباع الحق ، والبحث عن الحقيقة مع احتمال كل المحن والآلام التي تحملها « هاريشاندرا » ، كان الوحي الوحيد الذي بعثته هذه الرواية في نفسي . ولقد أخذت اعتقد في حقيقة « هاريشاندرا » كما لو كان شخصاً حياً ، لا شخصاً خيالياً ، كما أيقنت بحقيقة الحوادث التي حا كها المؤلف من حوله .

وكثيراً ما كنت أبكي كلما ذكرت هذا البطل وحوادث حياته السامية . هاريشاندرا وشرافانا ، لا يمكن الا أن يكونا بطلين تاريخيين لا خياليين . ولا أشك مطلقاً في أنني لو قرأت هاتين الروايتين اليوم ، لهزتا عواطفى بالقدر الذي هزتاها به في أيامى الأولى .

....

لا بد لي في سياق كلامي هذا . من أن أجرع بضع جرعات مريرة ، اذا ما كنت من عباد الحق على الوجه الأكمل . وأول ما أبدأ به هو أمر زواجي وأنا في الثالثة عشرة من عمري . ولا جرم انى أغبط الشبان الذين أراهم اليوم من حولي ، وقد استطاعوا بحكم الزمان أن يفروا مما وقعت فيه وأنا في سنهم .



كنا ثلاثة اخوة . تزوج الأول . ثم صمم كبراء الأسرة على أن يتم  
زواج أخي وزواجي وأحد أولاد أعمامي في يوم واحد . ولم يفكروا  
في مصالحنا ولا أعاروا رغباتنا اهتماماً ، كأن الأمر لا يتعلق إلا بمرضاتهم  
وبمقدرتهم المالية على اتمام الزواج . وزواج الهندوكيين ليس بالأمر  
السهل ، بل معناه أن أسرتين قد تعانيان في سبيله الخراب . ضياع في  
المال والوقت ، وأشهر تقضى في اعداد الملابس وأدوات الزينة وتهيئة  
« ميزانيات » من الأموال لاقامة الولايم . وكل من الأسرتين تحاول أن  
تبز الأخرى اسرافاً وتنويعاً في مظاهر الفرح والسرور . وكان أبي وعمي  
كلاهما كبير مسن ، وكنا آخر من يزوجان من أولادها ، فامعنا في  
الاسراف بفكرة ان هذا آخر أفراحهما .

لم نعرف نحن من الأمر شيئاً الا أن هنالك أفراحاً تقام وزينات  
وغناء ورقصاً وملابس جديدة وولايم فخمة وبنات غريبات عنا أتبن  
لنلهو بهن .

قلت من قبل اني كنت تلميذاً ، وظللت تلميذاً بعد زواجي . كنت  
أنا وأخوای ندرس في مدرسة واحدة . فلم يكن للزواج من أثر في  
حياتنا المدرسية الا ضياع سنة من أعمارنا ذهبت ببداء . وكم من شباب  
الهند يقاسون نفس هذه الخسائر الفادحة . على أني مضيت بعد ذلك  
في الدرس ، وكنت متوسط الذكاء والقوة ، غير أني كنت حائراً على  
الدوام لرضى أساتذتي وعطفهم . وكنت لا أحتمل اللوم ولا التوبيخ .



عوقبت مرة عقاباً بذنوب ، فبكيت بمرارة لا أذكر أنى بكيت بمثلها في كل أطوار حياتي .

...

كنت أمقت الألعاب الرياضية ، وكنت لا أذهب إليها الا مرغماً لأنها اجبارية . غير أنى أعتقد الآن أن من الواجب أن تكون من المواد الأساسية في برامج التعليم . أما سبب مقتي لها ، فيرجع إلى رغبتى الشديدة في أن أقوم بتمريض أبى ، وكان على فراش المرض ، وقد قربت نهايته . فكنت أترقب انقضاء الدروس لأهرع الى المنزل وأظل بجانبه أعنى به وأمرضه وأنفذ أوامره بكل دقة وعناية . فكانت الألعاب الرياضية تحول دون هذه الرغبة ، ولذلك توصلت الى مستر « جيمى » أن يعفنى منها ، لأقوم بواجبى نحو أبى ، غير أنه لم يعبأ بتوسلاتى . وكان من الواجب أن نذهب فى الساعة الرابعة من كل سبت الى المدرسة لنقوم بألعابنا الرياضية ، ولم يكن معى ساعة أضبط بها الوقت ، وخذعتنى السحب واضطراب الطقس .

وكان التلاميذ قد بارحوا المدرسة قبل أن أصل إليها . فى اليوم الثانى لاحظ مستر « جيمى » انى كنت غائباً ، ولما اعتذرت اليه بما حدث تماماً ، رفض أن يصدقنى ، وفرض على غرامة صغيرة كعقاب لى . لقد اتهمت بالكذب ! فالمنى هذا الاتهام كل الألم . وكيف أستطيع أن أثبت براءتى ؟ لم يكن من سبيل الى ذلك . فبكيت بحزن



عميق . ولكنى لم ألبث أن طرأ على ذهنى أن الرجل الصادق يجب أن يكون ذا عناية بأموره . وكان هذا الحادث آخر عهدي باهمال أى شيء يتعلق بمدرستى ودرسى . ولكنى لم يهدأ لى بال ، الا بعد أن رفعت عنى الغرامة التى فرضت على ، تلقاء اهالى لا تلقاء كذبي .



# الفصل الثاني

## أيام المدرسة

عقدت أواصر الصداقة بيني وبين أحد أقراني في التلمذة ، وكان معروفًا عنه أنه غير مستقيم الأخلاق ، فحذرتني والدي وحذرتني زوجي . ولكني كنت من الكبر بحيث لا أخضع لنصائح زوجي ، وحاولت لأول مرة أن أعمل على الضد من ميول أمي . كثيرا ما قالت لي اني مع قرين سوء . ولكن أجبتهما « إني أعرف أن صديقي فيه المعاييب التي تذكرانها ، ولكنكما لاتعرفان فضائله . وانه على ذلك لا يستطيع أن يفسد أخلاقي ويقودني في طريق الرذيلة ، لأنني انما أقصد بصداقته أن أقوم معوجه على اعتقاد انه اذا استقام أصبح من أحسن الرجال . واني لأرجوا أن لاتشفقا من مصاحبتي إياه » . وكان هذا الحادث أول ما حاولت أن أكون مصالحا في ناحية من نواحي الحياة .

لم تقنعا بما قلت ، ولكنهما تركتاني أقطع شوطي . فلم ألبث غير قليل حتى استبان لي أن حسابي قد طاش ، وعرفت أن من يريد أن يقوم اعوجاج شخص لا يجب أن يكون على علاقة حبية به ، ولأن الصداقة الحقيقية صفة نفسية قلما توجد في هذه الدنيا . ان الصداقة لن تكون ذات قيمة ولن تدوم الا بين الطبائع المؤتلفة . والأصدقاء



يؤثر بعضهم في بعض تأثيراً عكسياً مطرداً . ولذا لا يكون من مجال لأن يصلح صديق من معائب صديقه أو يؤثر في اصلاح نقائصه . ورأيي أن الانسان يجب أن يعتمد عن الارتباط بعلاقات عاطفية مع الناس ، لأنه بذلك إنما يكون أقرب الى التطوح مع الرذيلة منه الى اتباع الفضائل ، وان الذي يريد أن يعقد صداقة مع الله ، يجب اما أن يظل وحيداً ، واما ان يعقد صداقته مع الدنيا كلها . وقد أكون مخطئاً ، ولكن التجربة دلتني على ان محاولتي في عقد صداقة اخلاص ، كانت فشلاً مؤلماً .

كانت تجتاح « راجكوت » في ذلك العهد عاصفة من « الاصلاح » فقال لي صديقي يوماً ان كثيراً من مدرسي مدرستنا يأكلون اللحم ويعاقرون الخمر . ولم يكتف بهذا بل ذكر أسماء رجال معروفين من « راجكوت » قال أنهم يفعلون ذلك . فعجبت من الأمر ، وسألته السبب في هذا . فقال لي ما يأتي : « نحن أمة ضعيفة لاننا لانأكل اللحم ، والإنجليز قادرون على حكمنا واخضاعنا لأنهم من أكلة اللحوم . وخذني مثلاً . فانك تعرف مقدار اصطباري وجلدي واحتمالي المشقات ، فوق اني عداة معروف . والسبب في هذا اني آكل اللحوم . والذين يأكلون اللحوم لا يصابون بفساد الدم ، واذا جرحوا التأمّت جروحهم سريعاً . ولا يمكن أن تنتهم مدرسينا وغيرهم من الرجال النابهين ممن يأكلون اللحوم بأنهم مغفلون . أنهم يعرفون ماهذه العادة من فضائل .

وانه لو اُجب عليك أن تقتص أثرهم فليس في الدنيا مثل التجربة .  
جرب وأنت تعرف مقدار العافية التي تلبس بدنك » .

كان أنجى الأكبر قد وقع في الخطيئة ، فإيده وحاول اقناعي ، بأنى  
ضعيف الجسم وهو قوى . وكان صديق متفوقاً في العدو الى مسافات  
بعيدة ، وقادراً على الوثب العالى الى درجة مدهشة . فكان هذا سبباً  
في أن أميل إلى مايقول . ولماذا لأصبح قوياً مثله ؟

كنت جباناً . كان يغشاني الخوف من اللصوص والاشباح والأفاعى . ولم  
أكن أجروء على أن أخرج من البيت اذا أظلمت الدنيا وناء الليل بكلكله  
على الوجود . كانت الظلمة تفرزنى . وكان من المستحيل على أن أنام  
في الظلام ، لأنى كنت أتصور اذا أظلمت الدنيا من حولى أن اللصوص  
آتون من ناحية ، والأشباح من أخرى ، والأفاعى من ثالثة . فكان لا بد  
من ضوء فى حجرتى . وكانت زوجى أكثر شجاعة منى ، فكان  
هذا ينجبنى . لم تكن تعرف خوفاً من أشباح أو أفاعى ، وكانت  
تذهب حيثما شاءت فى الظلام . وكان صاحبي يعرف فى هذا الضعف ،  
فكان يقول لى انه يستطيع أن يمك فى يده أفاعى حية ، وأن يقارع  
اللصوص ، وانه لا يعتقد فى وجود الأشباح . وان كل هذا راجع الى  
انه من أكلة اللحوم .

أحدث كل هذا فى نفسى أثراً ، فهزمت . وبدأت نفسى تحدثنى  
بأن أكل اللحوم خير ، وانه سوف يجعلنى قوياً شجاعاً ، وأن أهل



الهند اذا اعتادوا أكل اللحم استطاعوا أن يتغلبوا على الانجليز  
ويطردوهم من بلادهم .

حددنا يوماً للبدء في هذه التجربة . وعزمنا على أن نبدأ بها في الخفاء .

فان « الغانديين » من « الفايشنافا » . Vaishnavas وأبوأي من  
أشد الناس استمساكاً بعري العقيدة . ومما يدل على هذا أن للاسرة  
معابدها الخاصة بها ، وكانت العقيدة « الجانية » <sup>(١)</sup> - Jainism -

عظيمة الأثر في « كوجرات » ، والامتناع عن أكل اللحوم كعقيدة

دينية يستمسك بها أهل الجانية والفايشنافية ، لم تظهر في طرف من

أطراف الهند بما ظهرت به من قوة الأثر في « كوجرات » . وهذه

هي العقيدة التي شبيت في أحضانها وتحت سلطانها . أضف إلى ذلك

اني كنت شديد الاحترام لأبوي كثير الخضوع والولاء لهما . وكنت

على يقين من انهما يموتان توأماً اذا علما اني آكل اللحوم ، واني انتهك

حرمة العقيدة المقدسة . وكان حبي للصدق والحق يجعلني شديد الالباء .

ولم يكن في وسعي أن أنكث على نفسي وأغالطها في حقيقة اني بأكل

اللحوم أغش والدي واني أموه عليهما . ولكن عقلي كان يتجه الى

« الاصلاح » . لم يكن الأمر عندي راجعاً إلى ارضاء شهوة البطن . بل

---

(١) ظهرت العقيدة الجانية في الهند في نفس الوقت الذي ظهرت فيه البوذية .

ومن مبادئها الاساسية عدم الاعتداء على الارواح وسلب أشخاص نعمة الحياة .

وكانت هذه العقيدة من أشد العقائد أثراً في نفوس الغانديين منذ أزمان طويلة .

كنت أريد أن أصبح قوياً شجاعاً متين العضلات مشدود الأضلاب ،  
وأن يصبح بقية أهل الهند على هذه الصورة ، فنستطيع أن نهزم  
الانجليز وأن نحرر الهند . ولم أكن حتى ذلك العهد قد سمعت كلمة  
« سواراج » ( الحكم الذاتي ) ولكنى كنت أعرف مامعنى الحرية .  
ولقد أعمانى حب « الاصلاح » كما كان احتياطي في أن آكل اللحم  
سراً ، سبياً في أن أتطوح مع الوهم ، فأقول في نفسي ان اخفاء الفعل  
عن أبوى كاف في ذاته لأن يجعل فعل الشر بعيداً عن أن يكون تناقضاً  
مع الصدق وحب الحق .

وآذنت الساعة . وانه ليصعب على أن أصف حالتى وصفاً صحيحاً .  
اكتنفتى حب « الاصلاح » من ناحية ، وساورتنى من جهة أخرى  
جدة الأمر ، أرى في فعله استديباراً لعهد واستقبالا لعهد آخر في الحياة ،  
ثم التخفى لاتيان ذلك الفعل ، شأن اللصوص . ولكننا ذهبنا معا نفتش  
عن مكان منفرد بجوار النهر ، وهناك رأيت اللحم لأول مرة في  
حياتى . وكان معنا خبز صنع على الطريقة الانجليزية . فلم اتذوق شيئاً  
منه . فاللحم كان في فمى كأنه جلد صفيق شديد التماسك ، فلم أسغه ،  
وشعرت بأنى مريض ، فتركت المكان في الحال .

أمضيت بعد ذلك ليلة شديدة الوطأة . اعترانى كابوس مخيف ،  
فكنت كلما هممت بأن أنام ، خيل الى أن عنزاً مذبوحة ينزف دمها  
وتتخبط بجوارى ، فأهب مذعوراً فزعاً ، وفي قلبى أشد ما يمكن



أن يتصور من ألم الضمير

ولكن كنت أذكر نفسي بأن مافعلت كان واجباً ، فتروح هذه الفكرة عنى بعض الشيء ، واستعيد شيئاً من صفاء النفس . ولم يكن صديقى من الذين ينتنون عن عزمهم بسهولة ، فأخذ يطهرى ألواناً من الطعام يجعل ظهور اللحم فيها أقل تعرضاً للنظر . ثم تدرجنا من ذلك إلى الأكل فى مطعم فاخر الرياش ، كان صديقى على معرفة بطاهيه ، بدل أن نتبذ بقعة مهجورة من شاطئء النهر .

وقل بعد ذلك أن أتناول طعامى فى البيت ، فكنت أعتذر لأمى كلما جهزت لى طعاماً بأنى مضطرب المعدة أو أنى مريض . وكنت أشعر بأنى أكذب ، وانى أكذب على أمى ! وكنت أعلم أنه ما من شىء فى الحياة يؤثر فى والدى بقدر ما يؤثر فىهما معرفتهما بأنى أصبحت من أكلة اللحوم . فكانت هذه الفكرة تهش قلبى ولا تريح ضميرى ساعة واحدة . وما بلغت هذه الحالة حتى أخذت نفسى تحدثنى قائلة : « انه وان يكن من الواجب أن آكل اللحوم ، وأن أتناول هذا الطعام ابتغاء « الاصلاح » فان الكذب على الأبوين وغشهما ، أنكر من الامتناع عن أكل اللحوم . فيجب اذن أن لا أعود الى هذا العمل مادام أبواى على قيد الحياة . فاذا طواها التراب ، فهناك أكون حرراً ، فأكل اللحوم علناً بدون خشية ولكن قبل أن تحمل الساعة ، فلا تمتنع عن أكل اللحوم » . ومنذ تلك الساعة لم أذق اللحم أبداً . ولكن

العظة الصحيحة هي أنني حاولت أن أصلح فاسداً ، ففسد صلاحى ،  
من غير أن أشعر بأنى كنت ساراً نحو التردى فى هذه الجمأة الدينية .  
وتعدى تأثير هذه الصداقة الى علاقتى الزوجية وأمانتى لزوجى .  
أخذنى صديق يوماً الى ماخورة من مواخير المومسات ، ودفع عنى  
الأجر المطلوب . ولقد زودنى بالنصائح اللازمة وأحكم الترتيب كل  
احكام ! هانذا أخذت أتردى بين أنياب الرذيلة ، ولكن الله الرحيم  
رحمنى من نفسى ، وصاننى من غوايتها ، فردنى أعمى أصم فى تلك الماخورة ،  
وخرجت منها بدون أن أتلوث بخطيئة الفعل . شعرت بأن رجولتى قد  
جرحت ، وأن الأرض تميد بى لتبتلعنى ، غما وخجلاً . ومنذ تلك  
الساعة لا أذكر الحادثة الا وأرسلت فى قلبى بشكران حار الى الله ، جزاء  
ما صرفنى عن هذا الفعل الشنيع . وانى لأذكر أربع حوادث من هذا  
النوع فى حياتى ، خدمنى الحظ ، لاقوة الارادة ، فى الفرار من الوقوع  
فى خطيئتها . أما اذا نظرنا فى مثل هذه الحوادث من الوجهة الأخلاقية  
الصرفة ، فلا يمكن أن نعتبرها أكثر من غيبوبة أدبية ، تموت فيها  
المشاعر والعقائد . ذلك لأنى أعتقد أن تحرك الشهوة البدنية لا يقل  
نقصاً عن اتيان الفعل نفسه . اما اذا نظرنا فيها من وجهة الحياة العادية ،  
فان الرجل الذى يفر من ارتكاب خطيئة يعتبر ناجياً ، ولا أشك فى  
أنى لم أعد القاعدة فى تجاربي التى جرت هذا المجرى . وفى الحياة  
أفعال يعتبر الفرار من إتيانها عناية الهية تنجى الشخص والذين هم



حواله من الناس . وبمجرد أن يرتد الانسان الى مشاعره ، ويستيقظ ضميره ، فانه لا يتوجه في الحياة الى شيء ، اللهم الا للمراحم القدسية ، يشكرها على فراره من العصيان . واني لأعلم أن الانسان قد يخضع للعواية وقد يتغلب عليه الايحاء والاعواء فيخطيء . ولكن كثيراً ما تتدخل العناية العليا في شؤون الكثيرين ، فتنقذهم رغم أنوفهم . اما كيف يحدث ذلك ؟ وإلى اى حد تذهب حرية الانسان ؟ وإلى اى حد يخضع الانسان لحكم ماهو قائم حوله ؟ وأما كيف يتغلغل القدر في مسارح الحياة الانسانية ، فذلك سر غامض ، وسيبقى سراً إلى الأبد .

كل هذا لم يكن كافياً لأن يفتح عيني على شيء من رذائل صديقي وخطر مصاحبته . وكان هذا العمى النفسى ، سبباً في أن أجرع بضع جرعات مريرة ، قبل أن تتفتح عيني على شيء من نقائصه ، عبرت عنها أفعال جاءت عرضاً وعلى غير انتظار . كانت صديقي أحد الأسباب الأساسية التي قامت لاشعال نار الخلاف بيني وبين زوجي . فقد كنت زوجاً محبباً غيروراً ، وعرف في صديقي هذه الصفات ، فأخذ يذكي النار الكامنة ليشعلها ويرسل بلهبها في صفاء الأسرة قوياً محطماً . ولم أكن أشك في صدقه . غير انى حتى اليوم لأستطيع أن أغفر لنفسي ما ارتكبت من قسوة ازاء زوجي ، وجرأئى التي تحملتها صابرة . ولم يكن لها من سبب إلا أخبار صديقي هذا . وليس في العالم من يحتمل ما فعلته مع زوجي الا الزوجة الهندوكية . وهذا هو السبب في انى اعتبر

أن المرأة معنى مجسما من التسامح . فخادمك يترك خدمتك . وولدك  
يفر من تحت سقفك ، وصديقك يقطع معك علاقته . أما الزوجة ،  
حتى اذا شككت في زوجها وملأها الريبة ، فانها تظل هادئة . ولكن  
اذا شك الرجل ، فهدمها ثمن الشك ، وسقوطها وتشردها عربون الريبة .  
الى أين تذهب ؟ ان الزوجة الهندوكية لاتستطيع أن تطلب الطلاق في  
محكمة . ان القانون لا يحميها . ولن أسامح نفسي أو أغفر لها خطيئة  
انى كنت سيباً في أن تصل الحال بزوجي إلى هذا المآل ، مآل اليأس  
والقنوط .

ان سرطان الشك لم تقتلع جذوره من نفسى الا بعد أن فهمت  
«الاهمسا» Ahimsa مع كل ما يرتبط بها من العلاقات والاعتبارات .  
هنالك رأيت عظمة البرهماشاريا - Brahmacharya - وتحققت أن  
الزوجة ليست رفيقة للزوج ، بل رفيقة ومعينة في الحياة ، وأن لها  
حق أن تقتسم مسراته واحزانه ، وانها حرة كالرجل في أن تختار ما يلد  
لها في الحياة من سبل الحياة . وانى كلما ذكرت تلك الأيام السود ، أيام  
الشك والريبة ، ملأنى الحزن العميق والألم الممض ، تلقاء ما كنت  
فيه من الغفلة والتهاب الشهوة والقسوة ، واحتقر تلك الثقة العمياء التي  
وضعتها في صديقي .

...

حدث في أيامى المدرسية وقبلها بقليل ، انى عكفت وأحد أقاربي



على عادة التدخين . ولم نكن نعرف ما هو التدخين . ولكنى وإياه  
تصورنا فى أن نرسل بالدخان فيخرج حلقات كالسحاب ، لذة . وكان  
عمى من كبار المدخنين ، وكنا كلما رأينا يدخن حاولنا أن نحذو حذوه .  
ولكن لم يكن لدينا تقود . فأخذنا نلتقط أعقاب السجائر وندخنها .  
ولم يتيسر لنا أن نجد الأعقاب دائماً ، ولم يكن فيها من الدخان ما يكفي  
لتحقيق غرضنا . فبدأنا نسرق بضعة دريهمات من جيب الخادم لنشتري  
بها سجائر هندية . وأين نخبئها؟ كانت هذه المشكلة سبباً فى أن ندخن بعض  
أوراق الأشجار التى سمعنا أنها يمكن أن ترسل الدخان كما يرسله التبغ ،  
فجمعنا منها قدرأوأخذنا ندخنه . غير أن حب الاستقلال أخذياً كل فى  
قلبنا ، لأن خوفنا من أن ندخن أمام من هم أكبر منا سناً ، جعلنا نشعر  
بأن هذه الحياة لا قيمة لها من غير أن يكون الانسان حرّاً مستقلاً بنفسه .  
وفى النهاية ، وكرها لهذه الحياة ، صممت وقريبى هذا على أن نتنحرن .  
ولكن كيف نتنحر؟ ومن أين نحصل على السم؟ سمعنا أن بزور  
الداتورة سم نافع . فذهبنا الى الغابة نبحث عن حبها وجمعنا شيئاً منه ،  
وحددنا المساء لارتكاب جريمة الاتجار . فذهبنا الى معبد « كيدارجى  
مندر » ووضعنا زيتاً سائلاً فى مصباح العبد ، وزرنا المقام الأقدس ،  
ومن ثم أخذنا نبحث عن زاوية منعزلة . غير أن الشجاعة خانتنا . قلنا  
لفرض أننا لم نمت توا؟ وما هو الخير الذى نجنيه من أن نتنحر؟ لماذا  
لا نستقل بأنفسنا ونكفيها شر الموت؟ ومع كل هذا ازدرى كل منا

حبتين أو ثلاثاً ، ولم نجرؤ أن نزدرد أكثر من هذا العدد . ولم نكد نزدرد الحبات حتى تملكنا شعور الخوف من الموت . فهرعنا الى المقام الأقدس ، وعاهدناه على أن لا نرجع الى تنفيذ فكرة الانتحار ، وأن نقلع عنها . والحق أن تنفيذ فكرة الانتحار ليس سهلاً كتصورها . وما سمعت منذ تلك الساعة شخصاً يهدد بالانتحار ، الا واعتقدت أنه بعيد عن الجد ، وانه الى الهزل أقرب .

لقد صرفتنا فكرة الانتحار عن تدخين أعقاب السجائر وعن سرقة نقود الخادم . لم أدخن بعد ذلك قط . وأخذت هذه العادة تلوح لي كأنها ضرر وقذارة . وكما فكرت في الأمر ، لا أستطيع أن أعرف السبب في انتشار عادة التدخين هذا الانتشار المريع في كافة أنحاء العالم . واني لأختنق اذا سافرت في قطار عقب جوه بدخان التبغ ، وأشعر شعوراً عجبياً بحاجة الى الهواء الطلق النقي .

لم تكن جريمة السرقة من الخادم آخر جريمة ارتكبتها . أما السرقة الثانية فحدثت ولى من العمر خمس عشرة سنة ، فان أخى الذي أغوانى وصديقى على أكل اللحم ، كان قد استدان خمساً وعشرين روية ، وكان بيده حلية تتدلى منها قطع ذهبية ، فسرقت قطعة منها وبعتها وأديت عنه الدين . ولكن هذا لم يكن الشيء الذى تحتمله نفسى . فصممت على أن لا أسرق مرة أخرى . وحاولت أن أعترف لأبى ، ولكن لم أجرؤ على الكلام . بيد أنى لم أمتنع خوف أن يضربنى أبى ، فانى



لا أذكر أنه ضرب واحداً منا طول حياته . ولكنى خشيت الألم الذى أحدثه فى نفسه باعترافى . وأخيراً صممت على أن أكتب الاعتراف بيدي، وأرسل به الى أبى طالباً منه العفو والغفران . فكتبته على قصاصة صغيرة وسلمته اليه يداً بيد . ولم أعترف بجريمتى فقط ، بل طلبت منه أن يعاقبني عليها، ورجوته أن لا يعاقب نفسه بالاسترسال مع الحزن والألم، ووعدته أن لا أسرق مرة أخرى .

كنت أهتز رعدة من مفرق رأسى الى أخمصى، لما قدمت له الاعتراف، وكان يشكو ناسوراً حاداً فرقد مستلقياً على فراشة، الذى لم يكن سوى دكة من الخشب الصلب . فلما قرأ الورقة تساقطت الدموع من عينيه كاللآلىء البيضاء حتى بللت الورقة ، ثم أغمض عينيه برهة مستغرقاً فى لجة من الأفكار، ثم مزق الورقة . فبكيت لبكائه وألمه . ولو كنت فناًناً لرسمت صورة رائعة من هذا المنظر . فانه لا يزال حياً فى خاطرى كما وقع تماماً . ولقد طهرت تلك الدموع البريئة قلبى وغسلت خطيئتى . ولن يدرك حقيقة هذا الحب الا من يكابده .

كان هذا الدرس بمثابة وضع قواعد «الاهمسا»<sup>(١)</sup> موضع التنفيذ

(١) الاهمسا - وقد مرت بنا من قبل - بالمعنى الحرفى البراءة وعدم استعمال العنف . وهى فى هذا المعنى تعادل معنى الحب . والذى يظهر من هذه الفكرة أن عدم التعاون والعصيان المدنى مع الامتناع عن استعمال العنف، وهى الوسائل الأساسية التى يستخدمها غاندى لمقاومة الاستعمار الانجليزى فى الهند، منتحلة أصلاً من مبادئ دينية صرفة . أما البراهما شاريا التى مرت فى صفحة أخرى فالمعنى الحرفى الخلق الذى يؤدى إلى الاتصال بالله . ومن أركانه ضبط النفس والعفة والتقشف .

والتطبيق . لم أستدوق من هذا الدرس في ذلك العهد إلا أنه عطف أبوي .  
أما اليوم فاني أعتقد انه « الالهسا » في براءته وطهره ، فان  
« الالهسا » اذا أحاط وتغلب ، فانه يغير كل شيء يحسه . لا حد  
لقوته ، ولا نهاية لأثره . ان أبي لم يكن في التسامح بحيث يذهب به  
حب المغفرة الى الحد الذي وصل اليه . فلقد ظننت أنه سوف يغضب ،  
وان غضبه سوف يلهب ، فيرسل بكلمات جارحة ، وأنه سوف يضرب  
جبينه بيده . ولكنه كان هادئاً . واني لأعتقد أن هدوءه كان راجعاً الى  
صراحة اعترافي . وان اعترافاً بريئاً مصحوباً بوعده صريح بعدم  
العودة الى ارتكاب الجرم ، اذا تقدم به المجرم الى الشخص الذي يحق  
له أن يتقبل هذا الاعتراف ، لأتقى صورة من صور التوبة . ولقد شعرت  
بأن اعترافي قد طيب نفس أبي وأنه أصبح واثقاً بي وزاد حبه لي  
وعطفه علي .

كنت اذ ذاك في السادسة عشرة من عمري ، وكان أبي مريضاً طريح  
الفراش ، ويقوم بتمريضه خادم عجوز وأمي وأنا . وقمت له بعمل  
المرضة ، فكنت أغسل جرحه وأضمده وأعظيه الأدوية كلما حان وقت  
تناولها . وكنت أكب كل ليلة على تدليك قدميه ورجليه ، ولا أذهب الى  
فراشي الا بعد أن يأذن لي أو بعد أن يأخذه الناس . وكانت هذه الخدمة  
عزيزة عندي شيقة لدى . ولا أتذكر مطلقاً اني أهملتها ، بل كنت



أُصرف كل وقتي بعد المدرسة في العناية بتمريض أبي . وما كنت أخرج للنزهة قليلاً إلا إذا اذن لي ، أو شعر بأنه أحسن حالا . وأذنت الساعة الرهية . وكان عمي في « راجكوت » وأذكر أنه أتى علي عجل عند ما علم باشتداد العلة علي أخيه . وكان ينام بجواره ويمرضه بنفسه . كانت الساعة الحادية عشرة ، وكنت أدلك قدسي والدي ، ثم آويت الي حجرتي ، ولكن الخادم طرق الباب بعد بضع دقائق معلنا أن أبي قد اشتدت به العلة . ولكنني شعرت شعوراً عميقاً بما ينتهي وراء هذه الجملة من المعاني . وسرعان ما صدق حدسي . فان والدي كان قد فارق الحياة .



## الفصل الثالث

### با كورة الشباب

كنت في المدرسة من السادسة أو السابعة الى السادسة عشرة من عمري ، حيث تعلمت كثيراً من الأشياء ما عدا الدين . ولقد أخفقت في أن أتلقى من أساتذتي ما يمكن أن يمدوني به من معلومات ، من غير أن أكدهم وأجهدهم . ومع هذا استطعت أن ألتقط مبادئ دينية استمعتها من بيئتي تسقطا من هنا وهناك . وأعني « بالدين » اصطلاحاً في أوسع ما يحتمل اللفظ من المعاني ، أنه « تحقيق الذات » .

ولدت مطوقاً بمعتقد الفايشنافا - Vaishnava - ولذلك كثيراً ما كنت أغشى معبد الأسرة . ولكن العبادة في المعابد لم تكن تلائم مزاجي . فاني أكره فيها مظاهرها ونفحاتها المصطنعة ، وكذلك سمعت أن كثيراً ما يقع في المعابد من الأعمال ما لا يتفق والآداب ، فزهدت فيها زهداً تاماً .

ولكن مافاتني من العلم بزهدى في المعابد تلقيته من مربيتي ، وهي خادمة عجوز من الأسرة لا أزال أذكر عطفها علي وحنوها الى الآن .



ولقد اقترحت على يوماً أن أكرر اسم « راما » (١) كعلاج أتخلص به من خوفى من الأشباح . ولكن كان لى من الثقة بها ، أكثر مما كان لى بحقيقة العلاج الذى وصفت ، غير أن سنى سمحت لعقلي أن يتأثر بما وصفت من علاج خيل إليها أنه يذهب بما أحس من خوف . والتربية الصالحة اذا غرست فى سنى الشباب ، فلا بد من أن تترك أثرها الثابت فى النفس . ويلوح لى أن ما غرست هذه المرأة الصالحة فى نفسى من الالتجاء الى ذكر « راما » لأطرد الخوف ، قد ثبت فى نفسى ، حتى أنى كثيراً ما ألتجأ الى الاسم أكرره فى أيام محنى ، فيروح عنى ، ويزيح ما يثقل على صدرى من الهموم .

فى ذلك الوقت حاول أحد أعمامى ، وكان من أتباع « الرامايانا » - Ramayana - أن يلقنى وأخى الثانى مبادئ « راما راكشا » - Rama Raksha - فأخذنا نستظهر المبادئ صبا ، واتخذنا تلاوتها عن ظهر قلب عادة عكفنا عليها كل صباح بعد الاستحمام ، وظللنا نتلو ما حفظناه طيلة ما بقينا فى « پوربندار » ولكننا نسينا كل شىء بمجرد أن حللنا فى « راجكوت » ذلك لأننى لم أكن أعتقد أنى بهذه المبادئ

---

(١) « رامانا » - Ramanama - كلمة تكرر تعبدأ وتقربا من الله . و « راما » عبارة عن تجسد الله فى الذات البشرية وحلوله فيها كما وضعت فى قصيدة « رامانا » الايقاعية التى وضعها تولاسيداس - Tolasidas - وهذه القصيدة فى الهندية مقتبسة من الأصل السنسكريتى الذى وضعه فالميكى - Valmiki - .

وكنت أتلوها لازهو بأني أستطيع أن أتلو « رامارا كشا » من غير خطأ في تخريج الحروف والكلمات . أما الذي ترك أثراً في نفسي لا يزول فقراءة « الرامانا » تأليف « تولاسيداس » مع أبي . وكان أبي خلال مرض وفاته قد أمضى بعض الزمن في « پوربندار » ، وتعود أن يسمع تلاوة « الرامانا » كل ليلة وكان الذي يتلوها « لاوامهاراج » من أخص أتباع « راما » وأكثرهم تأثراً به . وكان يقول انه استطاع أن يشفى نفسه من مرض الجذام بغير عقاقير ، بأن لف على الأعضاء المصابة أوراق شجرة مقدسة في معبد « بولشفار » وهبت للاله الكبير ، وبأن أخذ يكرر اسم « راما » . وقد يكون هذا صحيحاً أو غير صحيح . غير أننا صدقنا صحة الرواية على كل حال ، لان جسم الرجل كان في ذلك الوقت سليماً من الجذام . وكان ذا صوت شجي ونبرات حزينة ، وكان يرتل ثنائيات أو رباعيات مستغرقة كل الاستغراق ، حتى انه يجرف معه كل سامعيه ، ويستولى على لبهم . وكنت في الثالثة عشرة من عمري اذ ذاك . ولكني أتذكر أن تراتيله اختلبتني وأوقعتني في شراكه . وكان هذا سبباً في افتتاحي « بالرامانا » . واني لأعتقد الآن أن هذا الكتاب أعظم كتاب تعبدى ظهر في العالم .

تعلمت في « راجكوت » كيف أكون متسامحاً ازاء كل فروع المذهب الهندوكي والديانات الأخرى ، وكنت مع أبي وأمي كثيراً ما تزور معابد شيفا وراما ، وكثيراً ما كان يزورنا رجال من مختلف

المذاهب ويتناولون بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكان يزورنا مسلمون يحدثوننا عن حقيقة معتقدتهم . وكنت أسمع هذه الأحاديث وما يدور حولها من المناقشات بجانب سرير أبي وأنا أمرضه . وكان هذا سبباً في أن لا أشعر بأثر للتعصب لمذهب أو ضد مذهب ما .

شدت النصرانية وحدها عن هذه القاعدة عندي . فقد تكون في وجداني نوع من الكراهية لها . ولذلك سبب . فقد اعتاد مبشرو هذه الديانة أن يقفوا على مقربة من المدرسة العليا ، وهناك يعطرون الهندوكيين سباً ولعناً ويوسعون آلهتهم تحقيراً . ولم أكن أستطيع أن أهضم هذا . وقفت مرة أستمع اليهم . وكانت الأولى والأخيرة . فلم أحاول أن أعيد التجربة مرة أخرى . وسمعت في ذلك الحين عن هندوكي معروف انتحل المسيحية . فأصبح حديث المدينة كلها يدور حول تعميده ، وكيف انه أكل لحم العجل وشرب النبيذ وكيف أبدل زيه ، فلبس الملابس الأوروبية وغطى رأسه بقبعة . ولقد أثر هذا في أعصابي كل تأثير . حتى لقد حدثتني نفسي بأن ديناً يرغب معتنقيه على أكل اللحم وتعاطي المشروبات الروحية وتغيير زيهم ، ليس جيداً بأن يكون ديناً ، وليس خليقاً بأن يسمى ديناً . وطرق سمعي أن ذلك « المؤمن » الجديد أخذ يهزأ بدين أسلافه وعاداتهم ووطنهم الذي هو وطنه . وكانت كل هذه الأشياء سبباً في أني شعرت بكراهية نحو النصرانية .

على الرغم من أني رضت نفسي على أن أكون متسامحاً نحو الأديان



الأخرى ، فان ذلك لم يكن معناه انى كنت أعتقدنى وجود الله وحدث  
أنى قرأت فى ذلك الحين كتاباً دينياً (١) كان من بين مقتنيات أبى ، ولم  
ترك قراءتى لما تضمن من أقاصيص الخلق وأصل الانسان اى أثر فى  
نفسى ، بل على الضد من ذلك أحدثت فى نفسى نزعة الى الالحاد  
وانكار وجود الله .

وكان لى ابن عم احترم فيه الكفاءة العقلية وقوة الحكم . فلجأت  
اليه أثير شكوى لديه وأستعين به عليها ، فلم يستطع أن يدلل مصاعبى  
أو يحل مشكلة واحدة من مشاكلى العقلية . واخيراً تركنى قائلاً :  
«عندما تكبر يمكنك أن تحل هذه المشكلات بنفسك وهذه مسائل لا يجب  
أن تكون مشاغل من هم فى مثل عمرك » فسكت . ولكن لم يهدأ بالى .  
على أية حال لم يستطع هذا الكتاب بشرائعه واقاصيصه أن يعلمنى  
الاهمسا - Ahimsa ولكن شيئاً واحداً أثبتت أصوله فى نفسى اذذاك ،  
ذلك هو الاعتقاد بأن الاحساس الأدبى اساس كل الأشياء ، وأن الحق  
هو النواة الأولى التى تتكون منها شريعة الآداب العليا . ولقد أصبح  
الحق غايتى الوحيدة فى الحياة ، فأخذ يعظم فى نفسى ويزيد قدره فى يقينى  
يوماً بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت اخذ ادراكى لمعنى الحق يعظم وتترامى  
أطرافه .

شغفت بعد ذلك بقطعة شعرية باللغة الكوجراتية ملكت منى عقلى

(١) المانو سمرتين - Manusmriti - شريعة هندوكية قديمة جداً تحدد نظام  
الطائفة المسماة بهذا الاسم . والكتاب يحتوى على أساطير فى أصل الخلق وأصل الانسان .

وكل قلبي . وكان عنوانها « قابل الاساءة بالاحسان » فأصبح مبدئي  
الأول الذي يقود خطواتي ، بل أمسى شهوة محتدة جامعة ، حتى انى  
أخذت أطبقه فى الحياة العملية .

...

بعد ان اجتزت امتحان القبول ، أشار على من هم أكبر منى سنًا  
أن أتابع درسى فى الكلية . وكان امامى جامعتان ، إحداهما فى  
« بافتجار » والأخرى فى « بومباى » وكانت أولاهما أقل نفقة ، فاخترتها ،  
على ان التحق بكلية « ساملداس » . فذهبت ، ولكن لم ألبث ان وجدت  
نفسى فى بحر لجى . كل شىء كان صعباً . وكل شىء كان عميقاً . ولم  
أستطع أن استوعب محاضرات الأساتذة . ولم يكن ذلك راجعا  
اليهم . فان أساتذة هذه الكلية كانوا من الطراز الأول . ولكنى  
كنت فجأ ، غير ناضج . وفى نهاية الدورة الدراسية الأولى ، عدت الى  
البيت .

وكان « مافجى وافى » وهو برهمى أريب واسع الاطلاع ، مرجع  
الأسرة ومحل استرشادها . فزارنا خلال الاجازة المدرسية ، وسأل أمى  
وأخى الأكبر عن دراستى وكيف أسير فيها ، فلما علم انى فى كلية  
« ساملداس » اقترح ان أسافر الى انجلترا لأتخرج فى القانون . وكانت  
هذه امنيتى . فأفعم الاقتراح قلبى شروقاً لأمرين : الأول انى كنت  
ألقى صعوبات جمّة فى الكلية . والثانى انى أردت أن أرى بلاداً جديدة .

غير أنى أردت أن ألتحق بكلية أدرس فيها الطب ، فاعترض أخى  
قائلا ان أبى كان يبغض هذه المهنة ، وكان يقصدك بقوله ان  
« الفايثنافا » لاشأن لهم بتشريح الجثث ، بل أراد أن تكون محامياً .  
وكان الاعتراض الثانى على درس الطب ان هذه المهنة لا تهينى لأن  
أكون « ديوانا » كما كان أبى ، وانى اذا أصبحت « ديوانا » أو أكثر  
من « ديوان » استطعت أن أقوم بأعباء أسرتى .

...

لم يتم هذا الحديث ، وينصرف البرهمى ، حتى أخذت ابنى العلالى  
والقصور، ولكن فى الهواء. بدأ أخى يفكر الى أين يرسل بى ؟ وهل من  
الحصافة أن يرسل شاب مثلى وحيداً الى بلاد أجنبية ؟ أما أمى فقد  
اضطرب فكرها واختلط عليها الأمر . لأنها كانت تمقت فكرة أنى  
مفارقها ومبعثد عنها . وحاولت أن تقيم العقبات فى سبيل سفرى  
فقال « ان عمك أسن من فى الأسرة الآن ، فيجب أولاً أن نشاوره،  
فاذا وافق أمكننا أن ننظر فى الأمر ».

فلما قابلت عمى وأطلعتة على جلية الأمر فكر قليلاً ثم قال : « لست  
أدرى ان كان هذا العمل يتفق ومبادئ ديننا . وكل ما يصل اليه علمى  
فى هذا الموضوع لا ينخلو من شك . فانى عندما أقابل كبار المحامين لأرى  
فارقاً بين حياتهم وحياة الأورويين . أنهم لا يتقيدون بقيدفيا يأكلون،  
ولفائف التبغ لاتفارق شفاهم . وهم يلبسون بلا خجل كما يلبس الانجليز .



وكل هذا مناقض لتقاليد أسرتنا . واني لزمت حججا . ولم يبق لي في الحياة الاسنوات معدودات . وكيف تتصور وأنا على حافة القبر ، أن آذن لك أن تذهب الى انجلترا وان تقطع بيننا وبينك البجار ؟ ولكني لن أقف في طريقك . فالأمر اذن يرجع الى موافقة أمك . فاذا وافقت فسارع بالسفر . قل لها اني لن أَدْخُل في الأمر . أما اذا سافرت ، فاني أباركك . »

فلما رجعت الى « راجكوت » ونقلت الى أمي ما قال عمي ، ترددت ونفرت . فقد قيل لها ان الذين يذهبون الى انجلترا يبيعون الفضائل بالذائل . وقيل لها انهم يأكلون اللحوم ، وانهم لا يستطيعون أن يعيشوا من غير أن يتعاطوا المشروبات الروحية . وسألني كيف أتصرف ازاء هذا ؟ فقلت لها ، « يا أمي العزيزة ، الا تثقين بي ؟ فاني لن اكذبك شيئا . واني لاقسم لك بأني لن أقرب شيئا من هذه الأشياء . » فقالت استطيع أن اثق بك واعتمد عليك ! ولكن كيف تكون هذه الثقة وانت في بلاد نازحة ، وديار بارحة . اني مرتبكة ولست أدري ماذا أفعل . سوف أسأل « سوامي » — Swami —

وكان « سوامي » بالولد والدم من طائفة « البانيا » كالغانديين . ولكنه انقلب كاهنا من طائفة « الجانيين » — Jani — وكان من مستشاري الأسرة كالبرهمي الذي مر ذكره . فأمدني بمساعدته ، وقال سأخذ عليه العهد الثلاثة وأقيده بالمواثيق . وبعدها استطع أن يذهب

حيث شاء. فأقسمت وتعهدت بأن أعيش في انجلترا عيش الفردية الصرفة ،  
وان لا أقرب الخمر أو اللحم . فلما انتهيت من قسمي ، باركتني أمي ،  
وسمحت لي بمغادرة بلادي .

وسارعت الى « بومباي » تاركا زوجي ومعها طفل لا يتجاوز بضعة  
أشهر . ولكني لم أصل الى هذا الثغر حتى التف بأخي الأصدقاء، وقالوا  
له ان المحيط الهندي يكون نائراً خلال شهرى يونية ويولية . ولما كانت  
هذه سفرتي الأولى ، وجب أن أرجىء سفرى الى نوفمبر . وقال آخر  
بأن باخرة غرقت خلال عاصفة . وكان هذا سببا في أن يتملأ أخى .  
ورفض أن يتحمل مسؤولية السباح لي بالسفر توأ . فتركتني في بومباي  
مع صديق وعاد الى « راجكوت » ليؤدى أعماله ، وترك نفقات السفر  
مع أحد اقاربه ، واوصى بي الأصدقاء أن يقدموا الى ما أحتاج اليه من  
المساعدات . ومرت بي الأيام والساعات طويلة متشاقة في « بومباي »  
الا انى كنت أحلم بانجلترا وما فيها .

....

وأخذ رجال طائفتى الدينية يبدون اعتراضاتهم على سفرى الى الخارج،  
بل بلغ بهم الأمر الى اظهار مقتهم وغضبهم ، فانه حتى ساعة عزى على  
السفر لم يغادر واحد من طائفتنا شواطئ الهند، فاذا أقدمت على السفر  
وصممت عليه ، وجب أن يحتكموا معى الى الكتاب . فعقدت جمهرة  
من رجال الطائفة ودعوني الى الظهور أمامها لأجيب عما يوجه الى من

أسئلة . ولست أدري كيف استجمعت قدراً كافياً من الشجاعة حملني  
على الذهاب الى جهمرتهم . على أبة حال لم أتوان عن الذهاب اليهم .  
فأخذ رئيس الطائفة ، وكان من اقاربي البعيدين ، ولكنه كان على  
صفاء مع أبي ، يلقي هذه الكلمات : « من رأى الطائفة ان عزمك على  
السفر الى انجلترا ، أمر لا يتفق وعقائدنا . ثم ان ديننا يمنعنا عن السفر  
الى خارج بلادنا بأى حال من الأحوال . وكذلك وصل الى مسامعنا انه  
من المستحيل أن يعيش الانسان هناك من غير أن يحل ما حرم ديننا . فان  
المرء يضطر اضطراراً أن يأكل ويشرب على طريقة الأوربيين » . فكان  
جوابي « لا أظن مطلقاً أن الذهاب الى انجلترا يكون فيه أى تناقض مع  
مبادئ ديننا . وغرضي من الذهاب الى هناك أن أكمل دراستي .  
هذا فضلاً عن أنى وعدت أمى أن ابتعد عن ثلاثة أشياء هي أخوف  
ما تخافون . وانى لعلى يقين من أن قسمي سوف يحفظني من السقوط » .  
قال الرئيس « ولكنى أوكد لك انك سوف لا يمكنك أن تقوم  
بفروض الدين هناك . وأنت تعلم علاقتى بأبيك وغيرتى عليك ، ولذا  
أرغب فى أن تسمع نصيحى وترضخ لارشادى » . فكان جوابى « انى  
لأعرف علاقتك بأبى ، ولكن لا حيلة لى فى الامر . لانى لا أستطيع أن  
أرجع عن عزمى على الذهاب لانجلترا . فان أحد أصدقاء أبى ذوى العلم  
والمعرفة ، وهو برهمى ذو وزن وقيمة ، لا يرى مانعاً يحول دون ذهابى ،  
وعلى رأيه وافق أخى ووافقت أمى » .



« ولكنك ستخالف نظام الطائفة » .

« لا حيلة لي ولا مخرج . وان الطائفة سوف لا تتدخل في هذا

الشان » .

ولقد أسكتت هذه الكلمات الرئيس ، فأخذ يحدجني بنظراته وأنا

جالس لا أتحرك ، ثم أعلن ما يأتي : -

« سوف يعامل هذا الغلام على أنه خارج على طائفتنا ، مطرود من

حظيرتها منذ اليوم . وكل من يذهب ليوذعه على المرقأ ، سوف يعاقب

بغرامة قدرها روية وأربع آتات » .

فلم يؤثر في هذا الأمر أقل تأثير ، وتركت حضرة الرئيس توأ . ولكن

أشفقت في أن يكون للامر أثر في نفس أخي . ومن حسن حظي أن

الأمر لم يهزه ولم يغير رأيه ، بل كتب يؤكد لي أنه يأذن لي في السفر

على الرغم من معارضة رئيس الطائفة وأعضائها في « بومباي » .

...

وبينا كنت في هذه اللجة المضطربة سمعت ان محامياً من العرفين

سيسافر الى انجلترا على سفينة تغادر الميناء في اليوم الرابع من شهر

سبتمبر . فبادرت الى الأصدقاء الذين اوصاهم بي اخي ، فوافقوا على

أن انتهرز فرصة السفر مع هذا المحامي . ولم يكن لدى من الوقت ما أسمح

بضياعه . فأبرقت الى اخي أستأذنه ، فأذن . وسألت قريبي أن يعطيني المال الذي

تركه أخي معه . ولكنه استمسك بالامر الذي اصدره رئيس الطائفة ، وقال انه

= ٤٦ =

لا يريد أن يطرد كما طردت . وبعد لأي استطعت أن أسوي الأمر بعد  
الالتجاء إلى صديق ، لولاه لما استطعت أن آخذ مالي ، وأحصل على  
نفقات سفرى . ووصلت إلى « سوئببتون » حوالى آخر شهر سبتمبر  
سنة ١٨٨٨ .



## الفصل الرابع

في لندن

زار دكتور « مهتا » حجرتي وتفقد محتوياتها ، ثم هز رأسه علامة على عدم الرضا عنها ثم قال : « هذا المكان لا يليق . اننا لانهبط لندن للدرس بقدر ما نهبطها الممارسة الحياة والعادات الانجليزية . ولهذا يجب عليك أن تعيش في أسرة . ولكن قبل أن تقدم على هذا أظن أنه يحسن بي أن أعهد بك لأحد أصدقائي لتدرس الحياة وتمرن عليها » .

ولقد قبلت هذا الاقتراح بكل شكران ، وانتقلت تواء الى سكن ذلك الصديق . وكان هذا الصديق مثال الرأفة واليقظة ، فعاملني معاملة الأخ واخذ يعلمني أصول السلوك الانجليزي . غير أن غذائي أصبح مسألة معضلة . وكنت لا أستسيغ الخضر المسلوقة من غير توابل ، وتنجرت ربة البيت فيما يمكن أن تجهز لي من غذاء . وكنا نتناول عصيدة القرطم للافطار فكانت كافية ، ولكنني كنت أشعر بالجوع في وجبتي الظهر والمساء . وحاول صديقي الذي عهد بي اليه دكتور « مهتا » أن يغريني على أكل اللحم ، ولكنني كنت أذكر له عهدي الذي عاهدت عليه أمي ، وأظل صامتاً ، أما وجبتي الظهر والمساء فقد اعتدنا أن نتناول فيهما الاسفناخ والخبز والربي . وكانت شهيتي غالباً ماتقوى ولكنني كنت



أخجل من أن أطلب أكثر من قطعتين أو ثلاث من الخبز ، معتقداً أنه ليس من حسن الذوق أو الأدب في شيء أن أفعل غير هذا . وكنا لا نتناول اللبن في غير الصباح . وامتعض صديقي يوماً من هذه الحال فقال لي بصراحة . « لو كنت أخي اذن لأمرتك بالاسراع في حزم أمتعتك . ماهي قيمة عهد تعاهد عليه أما غير مثقفة جاهلة بمجرى الأحوال هنا . ان عهدك هذا ليس عهداً على الاطلاق ، انه لا يعتبر عهداً صحيحاً أمام محكمة قضائية . وصبرك على الأخذ بمثل هذا الوعد ليس أكثر من خيال ووهم فارغ . وعكوفك عليه لا يعود عليك بأية فائدة هنا . انك اعترفت أنك أكلت اللحم وتذوقته . فعلت هذا في وقت لم يكن أكل اللحم فيه ضرورياً ، وتمتتع عنه في وقت تدعوك الحاجة اليه . ولكني ظلمت صلباً ولم تلن قناتي . وكثيراً ما كان يستمر هذا الصديق في سرد براهينه ، ولكن كان عندي قوة سالبة استقرت في نفسي أواجهه بها كلما لجج في الكلام والتدليل على صحة رأيه . وكان كلما أمعن في محاوراته ، أمعنت في عنادي . وكنت أصلي لله كل يوم ليحميني ، فحمانى . ولم يكن عندي أية فكرة بينة في الله ، بل كان مجرد ايمان أثر أثره . أما هذا الايمان فقد غرسته في نفسي مزييتي .

عثرت خلال تجوالي في المدينة على مطعم للنباتيين في شارع « فرنجدون » . وكان لمجرد وقوع نظري عليه هزة فرح في نفسي ، كتلك الهزات التي يشعربها الأطفال لدى عثورهم على شيء تعلقت به

قلوبهم الطاهرة . ورأيت قبل أن ادخل المطعم ومن وراء الزجاج ، كتباً عرضت للبيع ، ومن بينها كتاب « صوات » الذى عنوانه « الدعوة إلى الحياة النباتية » فاشتريته بشلن واحد ، ودلفت تواءً الى حجرة الطعام . وهناك تناولت أول وجبة أرضتى مندهبعت أرض انجلترا ، وشعرت بأن الله ساعدنى وأخذ يدي .

قرأت كتاب « صولت » من ألفه الى يائه ، فأثر فى كل تأثير . ولما قرأته ، أصبحت نباتياً بالاختيار ، وانى لا بارك ذلك اليوم الذى عاهدت فيه أمى ذلك العهد . ولقد كنت أمتنع من قبل عن أكل اللحم احتراماً للصدق وللعهد الذى قطعته لأمى ، ولكنى كنت أرغب من كل قلبى فى ان يصبح كل هندى من أكلة اللحوم . وكنت أتطلع الى حلول الوقت الذى أكون فيه واحداً منهم ، أعالج الأمر بحرية وجهرة ، وأدعو غيرى اليه . ولكن اختياري الآن مال بي الى ناحية الحياة النباتية ، والتبشير بها أضحي كل همى :

وظهر لى ان الملابس التى قدمت بها من « بومباى » لا توافق ذوق المجتمع الانجليزى . فبدلتها بملابس أوصيت عليها فى مخازن الجيش والبحرية ، واشتريت قبعة حريرية كلفتنى تسعة عشر شلناً . ولم أكتف بهذا فأنفقت عشرة جنيهات على بذلة للسهرة أوصيت عليها فى محل « بيوند ستريت » وكتبت لأخى ليرسل الى بسلسلة ذهبية . ورأيت انه ليس من حسن الذوق أن ألبس رباط رقبة مربوط ، فتعلمت كيف

أربط رباط الرقبة بعد مزانة عليه . ولم اعتد في الهند النظر في المرأة ، بل كانت المرأة من ادوات الترف ، فلا أنظر فيها الا في اليوم الذي يزورنا فيه حلاق الأسرة . أما في لندن فكنت أقضى كل يوم عشر دقائق امام مرآة كبيرة أنظر فيها كيف أعدل رباط رقبتى وأمشط شعري على طريقة مألوفة ، ولم يكن شعري ناعماً ، فكانت تقوم في صبيحة كل يوم معركة مع المشط والفرشاة حتى يستقيم وتسفر المعركة عن توليفه بطريقة منتظمة . وكنت في كل فترة أخلع فيها القبعة أو اضعها فوق رأسي ، تمر يدي على شعري بطريقة أوتوماتيكية لأصلح شعري واحفظ نظامه .

وكل هذا أيضاً لم يكن كافياً . فبدأت أوجه انتباهي الى تفاصيل أخرى ، فرضت اني اذا عكفت عليها استطعت أن اخرج من نفسي سيداً كريماً ( جنتمان ) على الطراز الانجليزي . وقيل لي انه من الضروري ان أتلقى دروسا في الرقص واللغة الفرنسية وفن الالقاء . فصممت على أن أدرس الرقص في معهد ، ودفعت ثلاثة جنيهات أجراً على دورة لتعلم الرقص مداها ثلاثة أسابيع . وكنت احتاج الى ستة أسابيع . ولكنني وجدت اني عاجز عن أن أقوم بحركات متزنة مؤتلفة ، لأنني لم أكن أستطيع ان اتبع توقيع البيانة ، فيستحيل علي ان اوفق بين حركة أقدامي وتقسيم التوقيع . ولكن ماذا افعل ؟ تروي أسطورة ان ناسكا احتفظ بهرة في منسكه ليقاوم الفئران بها ، ثم بيقرة لتغذي الهرة ، ثم برجل ليخدم البقرة ، وهكذا . ولا ريبة في ان مطامعي أخذت تتكاثر



ويتبع بعضها بعضاً ، مثل الناسك . ففكرت ، في أن اتعلم العزف على الكمان ، حتى أعود أذني على انغام الموسيقى الغربية وتوقيعاتها . فاشترت كمانا بثلاث جنيهات وأضفت الى الجنيهات الثلاث مبلغا من المال اجراً لمعلمة ، واخذت ابحت عن معلم ثالث ليعلمني فن الالقاء ، ودفعت له جنيها لابتداء درسي ، وأمرني بأن اشترى كتاب « بل » - Bell - في فن الالقاء ، فاشتريته غير وان .

غير ان كتاب « بل » كان أول شيء قرع « الناقوس » <sup>(١)</sup> في أذني ، فصحوت من هذه الغفوة النفسية . قلت في نفسي - « انك سوف لا تقضى عمرك في انجلترا ، فما الفائدة من تعلم فن الالقاء ؟ والآن - « هل من الممكن ان أصبح بتعلم الرقص جنتلمانا » ؟ والكمان عجزت عن تعلمها حتى في الهند . وما دمت في طور التلمذة ، فيجب على أن اعكف على دروسي ، فاذا أهلت بي أخلاقي لأن تخرج مني « جنتلمانا » فهذا خير من كل ماعداه . وعلى هذا اوجبيت على نفسي ان أترك كل هذه الأشياء .

اكتنفتني هذه الأفكار ومثيلاتها ، وكتبتها في خطاب ارسلت به الى معلم فن الالقاء ، راجيا ان يعينني من اتمام دروسي . ثم ارسلت بخطاب آخر الى معلم الرقص ، وذهبت بنفسى الى معلمة الكمان ،

---

(١) بين كلمة « بل » وهو اسم مؤلف الكتاب ، وكلمة « ناقوس » جناس ، لأن

الناقوس في الانجليزية اسمه « بل »

لأعذر لها بأنها تستطيع أن تتصرف في الآلة الموسيقية بأى ثمن يمكن الحصول عليه ، وكانت مخلصه ودودة . فأخذت اظهر لها كيف انى تبينت أخيراً انى انما اتبع املا خاطئا ، فشجعتنى على أن أتابع ما صممت عليه من تغيير خطى تغييراً كلياً . ولقد استمر ولعى بهذه الأشياء ثلاثة أشهر . أما المحافظة على هندامى فقد استمر سنين عديدة ، ولكنى رجعت على كل حال تلميذاً ، بعد أن تخليت عن افتتانى هذا .

وليس من حق أحد ان يظن ان تجاربي في الرقص وامثاله من الأشياء كان طوراً من أطوار الانغماس في الملذات قطعته في حياتى . فانى أثناء ولعى بهذه الأشياء ، كنت مالكا لكل قوى نفسى ، ولم يتحرر طور افتتانى بهذه الخيالات من تأمل عميق كنت أقع صريعة الفينة بعد الفينة . وكنت أقيد حسابى فلا أهمل ذكر المليم والدائق الذى أصرفه ، وبدأت أناقش نفسى في نفقاتى ، فاستبان لى انه من الضرورى ان أقتصد . وعلى هذا صممت أن اخترل نفقاتى الى النصف . فقد ظهر لى من مناقشة الحساب أن ابوابا كثيرة تذهب اجورا . ووجدت من جهة أخرى أن معيشتى في وسط أسرة يستدعى ان أدفع حسابى كل أسبوع . فأقلعت عن عادة التجيب الى افراد الأسرة بدعوتهم الى الطعام ، كما رفضت أن اقبل دعواتهم اذا انصرفوا الى الزهه او اللهو . وكل هذا كان يستدعى زيادة في النفقات . فاذا كانت رفيقتك في الزهه سيده ، وجب عليك أن تقوم بكل النفقات . وظهر لى أيضاً أن الأكل خارج المنزل

كان اسرافاً ، لأن كل الوجبات التي لا أتناولها في المنزل لا تنقص من الحساب الاسبوعي شيئاً . ولماذا لا أوفر على نفسي كل هذه الأبواب ؟ صممت على أن أستأجر حجراً مستقلة ، بدلا من أن أعيش في أسرة ، وبذلك أتمكن من الاختلاف من مكان لآخر على مقتضى طبيعة أعمالي . التي أقوم بها ، فأكسب تجربة وعلماً . فانتقيت الغرفة التي أجرتها بحيث كانت تبعد عن محل عملي أكثر من نصف ساعة مشياً على القدم ، وكذلك أخذت أقصد في الأجور التي أنفقها . وكنت لا أنتقل من مكان الى آخر الا راكباً ، قائلاً انى أستطيع أن أقصد من الوقت ما أقضيه في الزهرة ماشياً . أما النظام الجديد فكان زهرة واقتصاداً ، اذ استطعت أن اقتصد أجور الانتقال وأن أقطع كل يوم ثمانية أو عشرة أميال سعيّاً على قدمي . ولقد افادتني عادة المشي فوائد جلي ، فحفظتني من الأمراض طيلة مقامي في إنجلترا ، وأكسبتني قوة في البدن وشدة في الأعصاب .

حدث بعد هذا بقليل ان قرأت كتاباً في الحياة البسيطة ، سارعت بعدها الى ترك حجراتي واستأجرت بدلا منها حجرة واحدة مهيأة بمدفأة ، ومضيت أجهز فطوري بنفسى وفي حجرتى ، ولم يكن يشغلنى هذا أكثر من عشرين دقيقة ، اذ لم يكن لى من حظ في وجبة الصباح أكثر من عصيدة القرطم وماء ساخن للكاكو ، وبهذا استطعت أن أعيش بشلن وثلاثة بنسات في اليوم . وكان هذا الوقت وقت اكباب



على الدرس وافتتان به . ولقد وفرت على هذه الحياة البسيطة كثيراً من وقتي ، فاجتزت الامتحان . على أن هذا الاقتصاد لم يجعل حياتي جافة كما ينحى الى البعض . بل على الضد من هذا ، أ كسبني التغيير الذي أدخلته على نمط حياتي ألفة شملت نفسى وجسمى . بيد أن الطريقة التي اتبعتها كانت تلامم موارد أسرتى ، فضلاً عن أنها كانت أقرب للاستقامة ، فعم نفسى بذلك فرح لا يوصف .

...

منذ أربعين سنة خلون لم يكن فى لندن من الطلاب الهنود سوى عدد ضئيل . وكانت العادة أن يعيش هؤلاء عيش الفردية ، ولو كانوا متزوجين ، لأنهم يعتقدون هناك أن حياة الطلب والدرس لا تتفق مع الزواج . وكانت لنا هذه العادة فى الهند خلال الأزمان القديمة ، ولكننا استبدلناها فى العصور الحديثة بتزواج الأطفال ، وهى عادة غير معروفة فى إنجلترا . وكثيراً ما كانت تعلو حمرة الخجل وجوه شباب الهند عند ما يضطرون الى الاعتراف بأنهم متزوجون . ولقد اخذتني عدوى هذه العادة فقيدت اسمى أعزب ، على الرغم من انى كنت متزوجاً ولى ابن ، ولكنى لم أكن سعيداً بأن أشعر بأنى خادعت ورائيت . ولكنى خجلت وصمتى وتكتمى ، كل هذه الأشياء حملتني على أن أدلف الى أعماق أشد غوراً .

كنت مرة فى صحبة أسرة فى « فنتور » أمضى اجازتى . والعادة فى

مثل هذه الأسر أن تصحب الفتاة بنت صاحبة البيت ضيوف أهلها  
للنزهة والترييض . فاصطحبنتي الفتاة يوماً الى تلال جميلة هادئة تحيط  
ببلدة «فنتور» ولست ممن يتشدون في المشى ، ولكن رفيقتى كانت أسرع  
منى عدواً، فخرتني وراءها وأخذت تثرثر طيلة الوقت، وكنت أجيب على  
ثرثرتها المرة بعد المرة بكلمة « نعم » أو « لا » وفي بعض الأحيان « بنعم،  
ما أجمل هذا أو ذاك » . وكانت كأنها طير يطير ، وظلمت أفكر متى  
نعود الى المنزل، بعد أن ضربنا في السير وبلغنا قمة تل . ولكننا لم نكد  
نعلى القمة حتى أخذت أفكر في كيف نهبط مرة أخرى . وعلى الرغم  
من حذائها العالى الكعب ، فان هذه السيدة التى كادت تتجاوز من  
العمر الخامسة بعد العشرين ، هبطت من فوق التل كأنها سهم زل عن  
كبد القوس . أما انا فكنت في حيرة الخجل اجاهد لأهبط ذلك المرتقى  
الوعر . ووقفت هى تبسم وتشجعنى وتعرض على أن تأتى لنجدتى .  
وبكل ما يمكن أن يتصور ذهنى من الصعوبة اخذت أعالج الأمر ،  
فاتساند مرة، وأزحف على ركبتي أخرى ، حتى استطعت أن أهبط  
الى سفح التل ، فصاحت بملء فيها « برافو » . ولكن خفاكتها أوقعتنى  
في خجل مرير لا أستطيع وصفه .

غير انى لم استطع أن أفلت من غير اضرار . لأن الله أراد ان يخلصنى  
من سرطان الكذب والبهتان .

ذهبت مرة الى « برين » . وقابلت هناك ارملة عجوزاً معتدلة

الثروة . حدث هذا خلال السنة الأولى من اقامتى فى انجلترا . وكان جدول الطعام فى الفندق مكتوباً بالفرنسية التى لا أعرف منها الا القليل ، وجلست الى المائدة التى جلست اليها هذه الأرملة . وقد لحظت انى غريب وانى مرتبك ، فسارعت الى مساعدتى . بادرتنى قائلة : « يظهر انك غريب وانك مرتبك . لماذا لم تطلب شيئاً » . ! فشكرتها وأبنت لها عن الصعوبة التى تعترضنى لأنى لا أستطيع ان أميز بين ألوان الطعام وايها يتفق وخطة النباتين لأنى لا أعرف الفرنسية الا جهداً . فقالت : « اسمح لى ان أساعدك . سأوضح لك الألوان وارشدك الى ما تأكل » وكانت هذه بادرة علاقة استحالت الى صداقة استمرت طوال اقامتى فى انجلترا وزمناً طويلاً بعدها . واعطتنى عنوانها فى لندن ودعتنى الى الغداء فى بيتها كل يوم احد . فكانت تحتفى بى وتقدمنى الى فتيات وتحملنى على الا شتباك معهن فى الحديث ، وكان من بينهن على الأخص سيدة فتيه كانت تقيم معها ، وكثيراً ما كانت تتركننا معاً فى وحدة شاملة .

شعرت أولاً بأن الأمر شاق متعب . فكنت لا أستطيع أن ابدأ حديثاً . ولا أقدر ان اشترك فى فكاهة . ولكن هذه السيدة الفتيه قادتنى الى الطريق ورسمت لى الخطة . وبدأت أتعلم . ومع مرور الزمن بدأت أتشوق الى يوم الأحد من كل أسبوع ، واخذت أميل الى التحدث الى صديقتى الشابة .



وأخذت الأرملة العجوز تمد أطراف شبا كها يوماً بعد يوم .  
فكانت تظهر الاهتمام بمقابلاتنا . وليس من البعيد أنها كانت تخطط من  
حولنا خطة تحاول تنفيذها . فتولتني حيرة مزعجة . كيف أقوى على  
ان أخبر ربة البيت بأني متزوج ؟ غير أني تمنيت لو اني أخبرتها .  
اذن لرأت انه من الصعب عقد خطبة بيننا : ولكن الوقت لم يكن قد  
فات بعد . ورأيت أن اعلان الحق كفيل بأن يوفّر على تعساً أكبر من  
التعس الذي أشعر به . وبهذه الفكرة كتبت لربة البيت خطاباً جاء  
فيه :

« لقد شملني عطفك منذ أن تقابلنا في « برين » لأول مرة ، حتى  
انك عنيت بي كما تعنى الام بابنها ، وفكرت في أن اتزوج ، وأخذت  
تقدميني لفتيات لأعقد معهن يوماً أو اصر الألفة والصدقة . ولأنني لا  
أرغب في ان تهادى الأمور الى أبعد مما وصلت الآن ، أصرحك بأني  
لم أكن خليقاً بعطفك هذا . كان من الواجب على ان أعرفك منذ  
بدأت زيارتي لمنزلك اني متزوج . فقد عرفت ان طلبة العلم الهنود يخفون  
في انجلترا أمر زواجهم ، فتابعتهم في هذا ، وانى لآسف لأنى اضطرت  
لأن أخفى عنك الحقيقة طوال هذه المدة . ولكنى الآن معتبط لأن الله  
قد أمدنى بشجاعة حملتني على ان اقول الحق وان أصرحك به . فهل لك ان  
تغفرى لى زلتى ؟ وانى لأؤكد لك بأني لم أتجاوز حد الأدب مع السيدة  
التي تفضلت بأن قدمتني اليها . فاني أعرف الحدود التي يجب أن

أقف عندها . أما انت ، فلأنك جاهلة أمر زواجي ، فقد رغبت في أن  
تم خطبتنا . ومن أجل انى رغبت في ان لا تتجاوز الأمور حدها الذى  
بلغت اليه ، رأيت واجباً على ان أطلعك على الحقيقة »

« أما اذا وصلك هذا وكان شعورك انى كنت غير خليق بأن أوجد  
تحت سقفك وفى ضيافتك ، فانى أوكد لك بأن هذا يسوءنى كل  
الاساءة . ان لك فى عنق دينا لا يوفيه عرفان الجميل والشكران جزاء  
ما أظهرت نحوي من العطف والحنو . فان رأيت بعد هذا ان لا تطرحينى  
وانى جدير بكرمك الذى سوف لا آلو جهداً فى ان أجعله من نصيبي ،  
فلا شك فى انى أكون سعيداً ، واعتبر أن هذه خاطرة أخرى من  
خاطرات حنوك وعطفك » .

كتبت هذا الخطاب مرات لأنقحه مرة بعد أخرى . ولكنه على  
كل حال أزاح عن كاهلى عبثاً كنت أشعر بثقل وطأته . وفى عودة  
البريد تلقيت الرد فكان فيه مايلى : -

« وصلنى خطابك الذى عبر عن اخلاصك . ولقد اغتبط كلانا به ،  
كما أضحكنا كثيراً . فان الحقيقة التى أخفيتنا عنها ، وتعتقد انك اجرمت  
فى اخفائها ، يمكن العفو عنها . ولكنك أحسنت فى انك أوقفتنا على  
حقيقة حالك . وان دعوتى لك مازال جارية كما كانت . انا لنى انتظارك  
يوم الأحد المقبل ، وتنشوق لسماع رواية زواجك وانت طفل لعلنا نسر  
ونضحك بعض الشيء ، ونسرى عن أنفسنا على حسابك . ولست فى

حاجة لأن أوكد لك أن صداقتي لم تمس من جراء هذا الحادث .  
بهذا طهرت نفسي من سرطان الكذب والبهتان . وما ونييت  
منذ ذلك الحين أن أتكلم في زواجي ، كما سنحت فرصة للكلام فيه .

...

قبل أن تنتهي السنة الثانية من اقامتي في إنجلترا ، بدأت علاقتي  
بأخوين من الآخذين بمبدأ الشيوصوفية - Theosophism - وكان  
كلاهما غير متزوج ، وتكلمنا معي عن اسفار « الغيتا » - The Gita -  
وكانا في ذلك الوقت منكبين على قراءه ترجمة سير « إدوين ارنولد »  
لكتابنا المسمى « الأغنية السماوية » ودعياني لأن أقرأ الأصل معهما .  
فشعرت بالحلجل لأنى لم أكن قرأت « الأغنية السماوية » لافى اللغة  
السنسكريتية ولا فى اللغة الكيجراتية . فاضطرت لأن أصارحهما بأنى  
لم أقرأ « الغيتا » ولكن أقرؤه معهما بسرور ، وان معرفتى بالسنسكريتية  
ان كانت « فجأة » ناقصة ، فقد أملت أن أفهم الأصل بحيث أستطع أن  
أعرف أين عجزت الترجمة عن التعبير عن المعنى . وبهذا بدأت أقرأ  
« الغيتا » معهما . ولقد أثر فى جزء من الفصل الثانى تأثيراً لا ينسى ، وعلى  
الأخص المقطوعة الآتية :-

« اذا عكف الانسان على حاجات البدن ، فهناك يبدأ الميل اليها ،  
ومن الميل تتولد الرغبة ، ومن الرغبة تتولد نيران الشهوة المفترسة . والشهوة  
تولد الطيش والتهور . وبذلك تنحون الانسان الذاكرة فيقضى على



الأغراض النبيلة ، ويتقوض بناء العقل ، فيفنى الغرض والعقل  
والانسان .»

ولقد ظهر لى أن الكتاب لا يقدر بثمن . وهذه الفكرة التي كونتها  
في أسفار « الغيتا » ما تزال حتى اليوم تنمو وتتطور في نفسى ، حتى انى  
لأعتبرها اليوم أسمى الأسفار التي تعرفنا الحق . ولقد أمدنى هذا الكتاب  
بأكبر المساعدات في أشد ساعات محنتى حلكة . وقرأت بعد ذلك كل  
الترجمات الانجليزية التي ظهرت لهذه الأسفار ، فرأيت أن ترجمة سير  
« إدوين ارنولد » أحكمها وأصفاها . فقد حافظ على الأصل ، بيد أنه  
صقلها ، فكانت بعيدة عن روح الترجمة . وعلى الرغم من أنى قرأت  
« الغيتا » مع هذين الصديقين ، فاني لن أدعى أنى درستها اذ ذاك .  
ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ بدأت أصحب « الغيتا » اذ  
جعلته كتابى اليومى .

أرشدانى بعد ذلك الى كتاب آخر بقلم سير « أدوين ارنولد » عنوانه  
« نور آسيا » . وكنت لا أعرف أن لسير « ارنولد » كتابا آخر غير  
« الأغنية السماوية » . فقرأت ذلك الكتاب بلذة واكباب لم أجدها  
حتى في قراءة « الغيتا » . وما فتحت الكتاب حتى اختلبنى ، فلم أستطع  
أن ألقيه من يدي ، وصحبتهم بعد ذلك الى محفل « بلافاتسكى » وقدمانى  
الى مدام « بلافاتسكى » ومسز « بزانت » . وكانت مسز « بزانت »  
قد انتمت الى الجمعية الشيوصوفية حديثاً ، فتتبعت بكل عناية حديث

اعتناقها هذا المذهب . ونصح لي الصديقان أن أتمى للجمعية ، ولكنى رفضت بأدب قائلاً « ان معرفتى بمحقائق دينى غير تامة ، ولهذا لا أريد أن أتصل بأية جماعة دينية » وأذكر أنى قرأت بارشادها كتاب مدام « بلافاتسكى » - « مفتاح الثيوصوفية » . ولقد كان من أثر قراءتى لهذا الكتاب ما حملنى على أن أقرأ كتباً أخرى عن الهندوكية ، خرجت منها بفكرة كاملة فى تحامل المبشرين على الدين الهندوكى ، اذ يزعمون أنه مدخول بالخرافات والأساطير .

وفى ذلك الوقت قابلت نصرانياً مستقيم الفكر فى « مانشستر » فى فندق خاص بالنباتيين . فتكلمنا فى الدين النصرانى . وأطلعتة على ما ثبت فى ذهنى من أعمال المبشرين فى راجكوت - فتألم مما سمع وقال - « انى من النباتيين ، ولا أشرب الخمر . وكثير من النصرارى يأكلون اللحم ويعاقرون بنت الحان ولكن كلا الأمرين غير مسموح به فى الأناجيل . أرجوك أن تقرأ الكتاب المقدس » . فقبلت نصيحته وأعطانى نسخة . وخيل الى بقدر ما تسمح بذلك ذاكرتى أنه كان يبيع الكتب المقدسة ، وانى اشتريت منه نسخة تحتوى على خرائط وفهارس للكلمات وغير ذلك من وسائل المساعدة على مطالعة الكتاب . وأخذت أطلعه ، ولكنى عجزت عن أن أتم قراءة العهد القديم . وشعرت بهذا العجز عند ما أتممت قراءة سفر التكوين . أما الفصول التى تتلوه فقد بعثت بالنعاس الى جفونى ، فتناقلت ، وأخذنى الانغفاء . غير أنى حملت نفسى على متابعة

القراءة لأستطيع أن أقول انى قرأت الكتاب ، فتصفححت الاسفار  
الاخرى بصعوبة ، وبأقل ما يمكن أن يتصور من اللذة أو القدرة على  
الفهم . وكرهت أن أقرأ سفر العدد .

أما العهد الجديد فقد أثر في نفسى تأثيراً مخالفاً كل المخالفة لهذا ،  
وعلى الأخص « موعظة الجبل » فانها وجدت طريقاً مباشراً الى قلبى .  
ولقد أخذت أوازن بينها وبين الغيتا - وتخلقت بقول عيسى  
« لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً .  
ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء » . وكان تأثيره في  
نفسى بالغاً لا يقاوم . وزين لى عقلى الصغير أن أوفق بين الغيتا ونور  
آسيا وموعظة الجبل .

وكان من أثر مطالعتى هذه ان ولعت بقراءة سير أصحاب الأديان  
الأخرى . وأرشدنى صديقى الى كتاب كارليل « الأبطال وعبادة  
البطولة » وقرأت الفصل الذى عقده فى « البطل فى صورة نبي »  
وعرفت فى نبي الاسلام الفطنة البالغة والشجاعة النادرة . وفى عيسى  
التقشف والصلابة .

وما عدا هذه المطالعات التى دارت حول الدين ، لم أقرأ شيئاً ، لأن  
ميعاد الامتحان كان قد أزف وبذلت كل جهدي فى الاكباب على  
الدرس . ولكن اتجه فكرى الى ضرورة أن أقرأ عن الدين أكثر  
مما قرأت فى كتب الدين ، وان ألم بكل الأديان العظمى .



وكيف أستطع أن أعرف شيئاً عن الإلحاد وانكار وجود الله بجانب هذا؟ ان كل هندي يعرف اسم « برادلو » - Bradlaugh - والحاده . فقرأت في الإلحاد كتاباً نسيت اسمه لأنه لم يترك أى أثر في نفسي ، وكنت اذ ذاك قد اقتحمت مفازة الإلحاد، وكانت مسز « بزانت » في ذلك الحين قد انتقلت من الإلحاد الى الألوهية ، فقوى هذا الحادث عندي الزهد في الإلحاد ، بعد أن قرأت كتابها « كيف أصبحت ثيوصوفية » .

...

في ذلك الحين مات برادلو <sup>(١)</sup> - Bradlaugh - ودفن في مدفن « بروكوود » ولقد شهدت الجنازة ، كما شهدها كل هندي مقيم في لندن . وكان فيها قليل من رجال الدين ليقوموا بآخر واجباتهم نحو الراحل . وعند عودتنا اضطررنا أن نتنظر في محطة السكة الحديدية مقدم القطار . فتقدم أحد زعماء الإلحاد من أحد رجال الدين وسأله : اتعتقد يا سيدى في وجود الله ؟ فأجابه الرجل « أفعل » مفضياً من صوته . فأجابه الملحد وعلى فمه ابتسامة الواثق من نفسه « أتسلم أيضاً أن محيط كرة الأرض ٢٤،٠٠٠ ميل ؟ أتوسل اليك أن تعرفتى ما هو حجم إلهك ، وأين هو » .

« نعم ، اننا لو عرفناه حقاً ، اذا لعرفنا ان مشواه في قلبينا معاً »

(١) مؤلف من أحرار الفكر ألف كتاباً معروفاً بعنوانه « ما كسبت الانسانية من الإلحاد » (الترجم)

فأجابه الملحد « لا تهزأ بي كما تهزأ بطفل » — ولقد لفظ هذه الكلمات وفي عينيه نظرة المنتصر الظافر . ولكن رجل الدين احتفظ ازاء هذه النظرة بصمت مهيب . وكان لهذا الحديث أثر في نفسى زادنى بغضاً في الالحاد وزهداً فيه .

هبط انجلترا في ذلك الوقت هندی معروف هو « نارايان همشاندرا » وكنت سمعت عنه ككاتب . وكنا أول ماتلاقينا في منزل مس «ماننج» وهى من أعضاء الجمعية الهندية الوطنية . واعتدت أن أزم الصمت التام كلما زرت بيتها ، فلا أتكلم إلا إذا كلمت . فقدمتنى إلى « همشاندرا » ولم يكن يعرف الانجليزية . وكان هندامه عجيباً . بنطلون غليظ صفيق . ومعطف كثير الثنايا متسخ رمادى اللون ، مقصوص على الطريقة الباريسية . ثم انه كان بلا ياقة وبلا رباط رقبة . وعلى رأسه قلنسوة من صوف يتدلى منها زر كبير ، وعلى صدره تترسل لحية كثة طويلة . وكان نحيلاً قصير القامة . وقد شابت وجهه المستدير ندوب الجدري ، واستوى في وسط ذلك الوجه أنف ليس بالدقيق ولا بالغليظ . ومثل هذا الشخص الغريب وبعلبسه هذا ، كان مرشحاً لأن يزحم في الشوارع جماعات لندن المعروفة بأناقها .

كنا نتقابل كل يوم . واتضح لى أن هناك توافقاً كبيراً بين ما يجول برأسينا من الأفكار وما نعتم من العمل . وكلانا كان نباتيا . وغالب ما كنا تتعاطى طعام الظهر معاً . وكنت في ذلك الوقت أعيش بسبعة عشر

شلتنا في الأسبوع وأطهو طعامى بنفسى . وكنت أختلف إلى حجرته  
آونة بعد أخرى ، كما كان يختلف هو إلى حجرتى . وكنت أطهو على  
الطريقة الانكليزية ، ولم يكن يلتذ الا بالطهو على الطريقة الهندية .  
كنت أصنع حساء الجزر فكان يرثى لذوقى . وعثر مرة على قليل من  
العدس فطبخه وحضر به الى سكنى . فأكلت منه بشوق وشغف ،  
ومنذ ذلك اليوم كنا نتبادل ما نطهو . كنت أذهب اليه بألوان طعامى  
النادرة ، وكان يحضر الى بألوان طعامه .

كان اسم الكردينال « ماننج » على كل لسان . وكان اعتصاب عمال  
أحواض السفن قد قضي عليه بأسرع ما يتصور انسان ، بفضل مساعى  
« جون برنز » والكردينال « ماننج » . وحدثت « نارايان همشاندرا »  
عن شكر « دزرائيلى » ومدحه بساطة الكردينال : فقال « اذن فلا بد  
من أن أرى ذلك الحكيم » .

« انه رجل عظيم القدر ، فكيف تتوقع أن تقابله ؟ »

« ولماذا ؟ انى أعرف كيف يكون ذلك . سأجعلك تكتب له نيابة عنى  
فتقول له انى مؤلف وانى أريد أن أهنته شخصياً بعمله الانسانى ، وانى  
سأصحبك معى كترجم لأنى لا أعرف الانجليزية » .

فكتبت خطاباً بهذا المعنى . وبعد يومين أو ثلاثة وصلتنا بطاقة من  
الكردينال « ماننج » محدداً لنا موعداً . فذهبنا اليه معاً . أما أنا



فارتديت بزة الزيارات. وبقى « نارايان همشاندرا » كما هو بمعطفه المعروف  
وينطلونه الذي وصفت. وحاولت أن أهزأ به، ولكنه ضحك مني قائلاً :-  
« أنتم معشر التمدينين جبناء . ان العظاء لا يعنون بمظاهر الأشخاص  
انما ينظرون في القلوب » .

ودخلنا قصر الكردينال . وما ان أخذنا مجلسنا حتى دخل علينا  
« جنتلمان » نحيف طويل القامة وسلم علينا يداً بيد . وهنا بدأ  
« همشاندرا » مقالته :

« لا أريد أن أضيع عليك وقتك . فقد سمعت عنك كثيراً وشعرت  
واجباً على أن أزورك لأشكرك على ما فعلت من خير للمضريين . ومن  
عادتي أن أزور حكماء الدين . ولهذا اضطررت أن أزعجك بزيارتي » . وكان  
يتكلم باللغة الكجراتية ، وأنا أترجم الى الانجليزية

فرد عليه الكردينال قائلاً :- انى لسرور بزيارتك . وآمل أن  
تكون اقامتك في لندن مواتية ، وأن تتمكن من الاتصال بالقوم هنا .  
وليباركك الله . ولما أتم هذه الكلمات وقف وودعنا .

زارنى « همشاندرا » مرة في قميص و « دوقية » (١) كما نلبس في  
الهند . ولم تكدرية البيت تفتح له الباب اذ قرعه حتى ارتدت مفزوعة  
قائلة « رجل به مس يريد ان يراك » .

---

(١) قطعة طويلة من القماش القطنى ، تطوى حول الوسط وتغطي الجزء  
الأسفل من الجسم .

فسارعت الى الباب وكم كانت دهشتي عندما رأيت « همشاندرا »  
على هذه الصورة وفي هذا الزي ، فأخذت . غير أن وجهه لم ينم عن  
شيء ، اللهم الا عن تلك الابتسامة الهادئة التي عودناها منه .

« ولكن ألم يهزأ بك الأطفال في الطريق ؟ »

« نعم فعلوا . فلما أهملتهم سكتوا » .

وذهب همشاندرا الى باريس بعد أن أقام في لندن بضعة أشهر . وبدأ  
يتعلم الفرنسية وحاول أن يترجم منها كتباً . وكنت أعرف من  
الفرنسية قدرأ مكنى من مراجعة ترجمته ، فأعطانيها لأطالعها .  
وسرعان ما استبان لي أنها لم تكن ترجمة بل مادة جديدة تماماً .

وأخيرا صمم على أن يزور أمريكا . وبكل صعوبة استطاع أن يحصل  
على تذكرة سفر في الدرجة الرابعة . ولما كان في أمريكا حوكم لأنه قليل  
الاحتشام في ملبسه ، لأنه خرج يوماً في قميص ودوقية . وأذكر أنه  
برى من هذه المهمة .

كان من السهل على أن أزاول مهنة المحاماة في إنجلترا . ولكن المرانة  
كانت غير ميسورة المنال . كنت قد درست القانون كمادة أساسية ،  
ولكن لم أدرس كيف أتابع الاجراء القانوني . درست مبادئ القانون  
غير أني لم أدر كيف أطبقها في مزاولة مهنتي .

...

كانت الشكوك تمزق أحشائي تمزيقاً خلال درس القانون . فأظلمت

بعض أصدقائي على ما أحس من هموم . واقترح أحدهم أن أبدأ إلى « دباباي نايجي » في طلب العون والنصيحة . وكنت أشعر بأنه ليس من حقي في شيء أن أزعج مثل هذا الرجل العظيم وأشغله بنفسى ، على الرغم من أنى كنت أحمل إليه كتاب توصية من الهند . وما فاتنى يوماً أن أسمع له خطاباً أزمع القاءه ، بل كنت أذهب الى المكان وأصغى إليه من ركن في الحجرة كنت آوى إليه ، ثم أنصرف بعد أن أشبع سمعى وبصرى . ومن أجل أن يكون أكثر احتكاكاً بالطلبة أسس جمعية . واعتدت أن أحضر اجتماعاته . وكنت أسر كل السرور بما أرى من اشفاقه على الطلبة ومن احترامهم له . وعلى مدى الزمان استجمعت شجاعتى وقدمت له كتاب التوصية . فابتدرنى بقوله « يمكنك أن تحضر الى لتتلقى نصائحي في أى وقت تشاء » ولكنى لم أحاول أن أنتفع قط من وعده هذا بشيء .

ولقد نسيت الآن ان كان صديقى هذا بعينه هو الذى قدمنى الى مستر « فريدريك بنكت » - Mr · Frederiak Pincutt - كان من حزب المحافظين ، ولكن عطفه على الطلبة الهنود كان صافياً من غير شائبة . ولقد سأله الكثيرون من الطلبة النصح والمساعدة ، وسألته بدورى أن أحظى بموعده ، فلم يبخل به . ولن أنس ما أعيش هذه المحاورة . فلقد رحب بى كصديق وهزأ بتشاؤمى قائلاً - « كن على

يقين من انه ليس بشيء غير عادى أن يصبح الانسان محامياً ذا مرانة  
وحصافة . فالأمانة والعمل ، كافيان لأن يجعلاه يعيش . وليست كل  
القضايا مرتبكة الأجزاء كما تتوهم . ولكن عرفنى ماهى معلوماتك  
العامة ومطالعاتك .

فلما أطلعتة على مقدار معرفتى ، وهى ضئيلة ، رأيت انه امتعض .  
ولكن امتعاضه لم يدم أكثر من دقيقة ، وسرعان ما أشرق وجهه  
بإتسامة مرضية وقال :

« لقد فهمت السر فى اضطرابك . إن معلوماتك العامة ضعيفة .  
انك قليل الخبرة بالحياة . والدليل انك لم تقرأ حتى تاريخ بلادك . ان  
المحامى يجب أن يدرس الطبيعة البشرية . وواجب على كل هندى أن  
يلم بتاريخ الهند . وليس لهذا من علاقة بمزاولة مهنة المحاماة . ولكن  
ينبغى لك أن تعرف هذا . واتضح لى انك لم تقرأ شيئاً مما كتب  
« كلى » أو « ملسون » من تاريخ العصيان فى الهند . الجأ الى هذا  
فى الحال ، ثم اقرأ كتاباً أو كتابين فى الطبيعة البشرية » .

شعرت بأنى مدين بأ كبير دين لذلك الصديق الذى أمدنى بهذه  
المساعدة القيمة . على أن نصيحة « بنكت » ان كانت لم تفدنى فائدة  
مباشرة ، فانى استعصت بصداقته عما خيل الى أن أنال من فائدة بنصحه .  
وان وجهه الفر البسوم بايزال حياً فى مخيلتى ، وما زلت أعتقد أن



= ٧٠ =

السكفاية العليا ليست ضرورية لكي يكون الانسان محامياً ناجحاً في الحياة . فالأمانة والا كباب على العمل يكفيان . ومذ كان لي في الحياة نصيب من هاتين الصفتين ، شعرت بأني حققت قوله .  
فلما اجتزت الاختبار النهائي في القانون ، انتهت مدة اقامتي في انجلترا .



# الفصل الخامس

## العودة الى الهند

حان الوقت الذي أغادر فيه إنجلترا ، وحصلت على اجازة بالسفر على الباخرة « آسام » في شهر يونية ، وكانت الرياح « الموسمية » Monsoon قد أخذت تهب عندما بلغنا بحر العرب وظل الجو عاصفاً طوال سياحتنا الى بومباي ، بعد أن غادرنا ميناء عدن . وأصيب كل من كان على الباخرة بدوار البحر ، غير اني ظلت معافى ، وشعرت بكثير من السرور والمرح اذ كنت أقف على ظهر السفينة أرقب هياج العاصفة وتلاطم الأمواج الثائرة . وكان أكثر المسافرين مصابين بالدوار ، فلم يكن يحضر الى غرفة الطعام للافطار سوى اثنين أو ثلاثة أنا واحد منهم ، فتقدم لنا عصيدة القرطم في أطباق تتشبت بها في أحضاننا لتلا تفلت منها العصيدة وتلوثنا .

كانت العاصفة التي ترسل بأهازيجها في الخارج ، رمزاً الى العاصفة الثائرة في نفسي . على أن عاصفة الطبيعة لم تستطع أن تهزني أو ترزعجني . وعن هذا عجزت أيضاً العاصفة التي كانت تثور في نفسي . وكنت أتوقع أن أواجه عاصفة أخرى يثيرها أهل طائفتي . أضف الى ذلك ما كنت أشعر به من عجز عن أن أبدأ حياتي كحمام . ولما كنت بطبعي

مصلحاً ، أخذت اكد نفسي في التفكير بأية ناحية من نواحي الاصلاح أبدا . ولكن القدر كان يخبألى أكثر مما جال بخاطرى .

حضر أخى الأكبر من « كاثياوار » ليلتقانى على المرفأ . وكان قد تعرف بدكتور « مهتا » وأخيه وازلنا ضيفين فى بيت أخى دكتور « مهتا » بعد أن ألح على أخى إلحاحاً . وبذلك تحولت المعرفة التى بدأت فى انجلترا الى صداقة دائمة بين الأسرتين ، وظلت طوال رحلتى الى وطنى أتطلع الى لقاء أمى . وكنت أجهل أنها لم تعد بعد بين الأحياء للتلقانى بذراعيها وتضمنى الى صدرها . ولقد ألقى الى أخى بهذا الخبر المحزن ، بعد أن أخفاه عنى طوال اقامتى فى انجلترا ، وأراد بذلك أن يكفينى مؤنة الصدمة وأنا فى بلاد أجنبية . والحق أن هذا الخبر كان صدمة عنيفة لى ، ولكنى لم أتطوح مع الحزن والأسى . وكان حزنى على فقد أمى أعظم من حزنى على فقد أبى . غير أنى أذكر تماماً أنى لم أتماد فى التعبير عن حزنى الى الحد الذى يخرجنى عن الوقار ، حتى لقد استطعت أن أحبس دموعى ، وأن أمضى فى أعمالى كما لو كنت فى حالتى العادية ، وكان لم يكن فى قلبى حزن عميق .

قدمنى دكتور « مهتا » الى كثير من الأصدقاء ، وكان أحدهم أخاه واسمه « ريفاشنكر جاجشان » وكان تعارفنا مقدمة لصداقة طويلة ظلت طول عمرنا على أحسن حال . ولكنى أريد أن أشير على وجه خاص الى « مقدمة » قدمنى بها دكتور « مهتا » للشاعر ريشاند Raychand

وهو يمت بقرابة الى أخ كبير من اخوة دكتور « مهتا » وأحد المساهمين في اتحاد الصاغة . ولم يكن هذا الشاعر قد تجاوز الخامسة بعد العشرين من عمره . غير أن أول لقاء به أقنعني أنه رجل قويم الأخلاق واسع المعرفة . وكان يلقب « بالمعلمة »<sup>(١)</sup> Shalavadhani وحرصني دكتور « مهتا » أن أمتحن قوة ذاكرته ، فأخذت أعيد كلمات مما أعرف من مختلف اللغات الأوربية ، وسألته أن يعيدها ، فأعادها على نفس الترتيب الذي نطقها به . ولقد شعرت بأني أحسده على كفايته هذه ، غير أنني لم أؤخذ بها . أما ما أثار إعجابي به بحق ، فسعة معرفته بالكتب المقدسة وأخلاقه العالية ، وتمحرقه واشتهائه أن يحقق ذاته ويصبح بهامستقلا في أفق جديد . وكان هذا غرضه الذي من أجله يعيش . وكثيراً ما كان يردد « أبياتاً » من شعر « مکتاناد » Muktanad كنت أشعر أنها محفورة على صفحات قلبه : -

« أشعر بأني في نعيم عندما « أراه » (الله) في كل عمل من أعمال  
يومي . والحق أنه الخيط الذي يضل حياة مکتاناد »  
كانت تجارة « ريشانديباي »<sup>(٢)</sup> تقوم بمئات الألوف من الروبيات .

(١) الكلمة الهندية Shata - vadhani معناها الشخص الذي يستطيع أن  
يتذكر أو يعي مائة شيء في آن واحد ، ويُنخِل إلى أن كلمة معلمة أقرب كلمة عربية  
يمكن بها التعبير عن هذا المعنى .  
(٢) العادة المتبعة في مقاطعة كوجرات وبعض مقاطعات غيرها في الهند تقضي  
بأن يضاف مقطع « باي » أو « بهاي » - Bhai - ومعناه أخ - الى اسم  
الصديق تكريماً وازهاراً للود .



وكان خبيراً بالآلآء والماس . ولم تكن تعترضه مشكلة من مشاكل العمل الا وتصبح بين يديه سهلة هينة . ولكن كل هذه الأشياء لم تكن المحور الذى تدور من حوله عجلة حياته . أماحياته فكانت تدور عجلتها حول الشهوة فى أن يرى الله وجهاً لوجه . فكنت ترى بين الأشياء الكثيرة المتناثرة على مكتب عمله كتاباً دينياً ويومياته . فكان لى انتهائه من عمله يتناول الكتاب الدينى أو اليوميات . وأكثر ما نشر من مؤلفات ، لم تخرج عن أنها منتخبات من يومياته . والرجل الذى يستطيع أن يعكف توأ وبمجرد أن يخلص من أعماله التجارية ، على الكتابة فى الأشياء الخفية العميقة فى أغوار النفس ، ليس برجل تاجر على اطلاق القول ، بل رجل يبحث عن الحق بكل معناه . ولقد شهدته مأخوذاً بأبحاثه الروحية وهو مغمور فى لجة عمله التجارى مرات لأمرة واحدة . ولم ألاحظ أنه فقد توازنه العقلى فى أى ظرف من الظروف . ولم يكن بيننا أية علاقة دنيوية تربطنا ، ومع هذا فكنت أتبعه اتباع الظل . كنت فى الأ أكثر محامياً مغموراً . ومع هذا فكنت لا أراه الا ويجرنى الى الكلام فى مسائل ذات صبغة دينية . وعلى الرغم من أنى كنت حتى ذلك الحين ما أزال أتلمس طريقى تلمساً ، ولم يكن لى أية لذة فى المناقشات الدينية ، كنت أجد فى حديثه هزة لا أعرف مبعثها . ولقد كان هذا سبباً فى أن أزور الكثيرين من حكماء الدين ، وحاولت أن أقابل الكثيرين من رؤساء الطوائف الدينية . ولكن من غير

أن يترك واحد منهم في نفسى من الأثر ما ترك « ريشانداى » فان كلماته كانت تنفذ رأساً الى أعماق نفسى ، وحازت قوة عقله عندى من الاحترام مالا يقل عن احترامى لجده الأدي ، وثقتى التى لا يمكن أن يكتنفها شك فى أنه سوف لا يغشنى أو يغربنى ، وانه سوف يرشدنى دائماً ويفضى الى بذات نفسه. ولذا لم أكن أجد غيره من ملجأ ، كلما ساورتنى الأزمات الروحية العنيفة

ومع هذا ، وعلى الرغم من عظيم احترامى له ، فانى لم أستطع أن أنزله من قلبى منزلة « الغورو »<sup>(١)</sup> - Guru - من نفسى . فان هذه المكانة ظلت خالية ، وما أزال أبحث عن من يشغلها حتى الآن . على انى أعتقد بصحة النظرية الهندية فى « الغورو » وقيمته فى تحقيق السمو الروحانى . ويخيل الى ان هناك قسطاً عظيماً من الحق فى الحكمة القائلة بأن المعرفة الحقيقية غير مستطاعة من غير « غورو » . فان معلماً غير كامل العدة فى المسائل الدنيوية أمر قد يحتمل وقد يتسامح فيه الانسان ، أما فى المسائل الروحانية فالأمر على خلاف ذلك . وان معلماً كاملاً فى المسائل الروحانية ، بكل ما تحتمل صفة الكمال من المعانى ، هو دون غيره الذى يصح للانسان أن يتوجه ملكاً على عرش القلب والوجدان . وعلى هذا يجب أن يستمر الانسان يكافح طوال حياته فى سبيل بلوغ ذروة

---

(١) حكيم روحانى . وهو ليس اسم شخص ، بل يطلق على من يتصف بالحكمة

الروحانية ويوجه غيره الى الرشده .

الكمال . لأن كل انسانيات انما يصل الى « الغورو » الذي يستحقه .  
وكفاحنا في سبيل الكمال هو حق الانسان الطبيعي . والكمال يحمل  
في ثناياه ما ينتظر الانسان في الدنيا من ثواب . أما الباقي بعد ذلك فبين يدي  
الله . وعلى الرغم من أنني ما استطعت أن أضع « ريشاندباي » في  
موضع « الغورو » من قلبي ، فانه كان في كثير من الحالات مساعدي  
ومرشدي . ان ثلاثة من المحدثين استطاعوا أن يتركوا في أثرهم الثابت  
ويختلبونني اختلاباً . ريشاندباي بعلاقته الشخصية ، وتولستوي  
بكتابه « ملكوت الله في نفسك »<sup>(١)</sup> ورسكن بكتابه « حتى هذه  
النهاية »<sup>(٢)</sup>

عقد أخي على آمالا كباراً . وكانت تحتكم فيه رغبة المال وبعد  
الصيت وذيوع الاسم . وكان كبير القلب متجاوزاً عن الاخطاء ، وهو فوق  
ذلك سليم الفطرة ساذجها ، فالتف حوله كثير من الاصدقاء الاوفياء  
ومن طريقهم حاول أن يزودني بالقضايا والمنازعات القضائية . وتخيّل اني  
عما قريب سوف أحصل على قدر كاف من المراتة والتقدم في العمل ،  
وعلى هذا التقدير أسرف في نفقات البيت والمعيشة . ومضى يعمل بكل  
جد ليمهد لي سبيل العمل كمحام أمام المحاكم .

كانت العاصفة التي أثارها زعماء طائفتي قبل سفرى الى انجلترا لاتزال

(1) The kingdom of God is within you

(2) Unto this last

ثائرة ، حتى لقد انقسمت الطائفة قسمين ، حكمت احداها توأ لدى رجوعى الى الهند بدخولى مرة أخرى الى حظيرتها ، ومضت الأخرى مستمسكة بقرار فصلى الذى صدر قبل سفرى . فمن أجل أن يرضى أخى الطائفة الأولى ، أخذنى قبل سفرى لراجكوت الى « ناسك » وغسلى فى النهر المقدس ، ولما وصل الى راجكوت أعد وليمة طائفية لتكون بمثابة كفارة عن ذنبى . ولقد كرهت كل هذا وزهدت فيه . ولكن حب أخى لى كان عظيما ، ولم يكن تعلقى به يقل عن حبه لى . لهذا رضيت بأن أعمل كآلة تتحرك كما يريد معتبراً أن ارادته قانون على الطاعة له . على أن هذا قد فض اشكال رجوعى الى الطائفة من طريق عملي ، عرف أخى كيف يسلك السبيل اليه .

لم أحاول مطلقاً أن أرجع الى الفريق الذى رفض أن أعود الى الطائفة . وكذلك لم أشعر بأى شعور من الحقد ازاء رؤسائها الذين كانوا سبباً فى اخراجى من حظيرة الطائفة وحالوا دون رجوعى اليها . وفوق هذا ظلمت أحترم قرار الطائفة الذى صدر بفصلى وحرمانى . فقد كان محرماً على أن أتناول الطعام فى بيت أقرب أقاربي حتى أختى وزوجها ، أو أن أتناول شربة ماء فى بيت واحد منهم . وكثيراً ما حاولوا أن يعدوا العدة ليخالفوا ذلك الأمر سراً وعلى غفلة من رجال الطائفة . غير أنى كنت أرفض دائماً أن أعمل فى السر عملاً أخجل من أن آتبه جبهة .



وكان سلوكي واستقامتي سببين في أن لا يحاول رجال الطائفة ازعاجي بصورة من الصور. بل على الضد من ذلك لم أشهد من كل أفراد الطائفة إلا كل كرم وسخاء ، وعلى الأخص من الفريق الذي ظل على رأيه في حرمانى وطردي . وزادوا على ذلك أنهم ساعدوني في عملي من غير أن يتوقعوا منى أية مساعدة أقوم بها من جانبي لصالح الطائفة : ولو أننى حاولت أن أعود الى حظيرة الطائفة وأخذت أدعو الى قبولى مرة أخرى ، أو لو أننى سعيت الى شق الطائفة الى شيع وفرق وأن أزيد صدعها اتساعا ، أو هاجمت رموس الطائفة وتحديتهم ، فما لا شك فيه أنهم كانوا يثأرون منى ويقابلون عملي بمثله . ولو أننى لم أعمل على تهديئة العاصفة ، لوجدت نفسى ، لدى وصولى الى الهند ، فى لجنة من التهييج الطائفي ، كانت بلا ريب تضطرنى أن أتصنع ما ليس فى نفسى ، وأن أنافق وأن أتخذ الرياء قناعاً .

أما علاقتى بزوجى فكانت ما تزال الى ذلك الحين على غير ما أرغب أن تكون . فان اقامتى فى انجلترا لم تشفى من مرض الغيرة الآكلة . وظللت أبدى شكى فى كل شيء مهما كان تافها . وبذلك ظلت كل شهواتى العزيزة على غير مكفية . وصممت على أن تتعلم زوجى القراءة والكتابة وأن أساعدها فى التعليم ، ولكن شهوتى وقفت فى الطريق ، وكان عليها أن تحتل على غير ارادة منها مسؤولية تقصيرى وكسلى . وحدث مرة أنى تطوحت فى البنزق الى حد أنى أرسلتها الى بيت أبيها، ولم

أقبل أن تعود الى بيتي الا بعد أن أذقتها التعاسة كيف يكون مذاقها ومرارتها . ولقد اقتنعت بعد ذلك بقليل أن هذا كله لم يكن منى الا حمقاً واسرافاً .

أخذت أفكر في اصلاح تعليم الأولاد . فقد كان لآخوتي أولاد ، وكان ابني الذي تركته قبل سفرى الى انجلترا طفلاً قد شب وشارف على الرابعة من عمره . واتجهت رغبتى الى أن أعود هؤلاء الأولاد العكوف على الرياضة الجسمية ليصبحوا أقوياء الأبدان مشدودى الأصلاب قادرين على الاحتمال والصبر ، وأن أتخذ من تجاربي الشخصية اماماً في تنشئتهم . ولقد شجعنى على ذلك أخى ، ورجح نجاحى في هذا الشأن فشلى . على أن عشرة الأولاد كانت من مباحجى التى أسربها ، وما أزال حتى اليوم أعكف على عادة اللعب مع الأولاد والتفككة بهم ، ومنذ ذلك الحين بدأت أفكر فى أنى ربما أصلح لأن أكون معلماً صالحاً للأولاد .

وظهر لى أن الضرورة تدعو الى اصلاح طرق « التغذية » . وكان الشاى والقهوة كلاهما قد وجد مكانا فى نظام المنزل . وعمل أخى على أن يكون جواً انجليزياً صرفاً فى البيت استعداداً لقدمى . ولذا أخذت الآنية الخزفية تدخل فى حيز الاستعمال بعد أن كانت تظل محفوظة للمناسبات . وأكملت « اصلاحاتى » ما كان ينقص طريقة استعمال هذه الأشياء من نظام . واستبدلت الشاى والقهوة ، بعصيدة القرطم ومنقوع الكاكو . ولكنهما فى الحقيقة أصبحا اضافيين على الشاى والقهوة .

وكنا نعرف من قبل الأحذية والنعال، وأكملت أنا « التفرنج » باستعمال الأردية الأوروبية .

بدأت النفقات تزيد . وكنا نضيف كل يوم شيئاً جديداً . ولا جرم أننا نجحنا في زيادة النفقات أو كما يقول أهل الهند نجحنا في أن نربط فيلا أبيض على بابنا ، ولكن كيف يمكن أن نسد نفقاته ؟ وكان البدء بالعمل في الحمامة براجكوت معناه سخرية محققة النتيجة . ذلك لأنني كنت فاقد الخبرة بكل ما يحتاج إليه « الوكيل »<sup>(١)</sup> من المعلومات والاجراءات ، وكنت أطلب عشرة أضعاف الأجر الذي يطلبه « الوكلاء » في الهند . فلم أسقط على صاحب قضية بلغ به النرق ذلك المبلغ الذي يغويه أن يوكلني في دعوى . وحتى لو فرض ووجد ذلك « الانسان » فهل يصح أن أضيف الى جهلي ما يحتمل أن ينتج طغيان النصب والاحتيال من نتائج تضاعف مقدار ديني ومسؤولياتي لهذه الدنيا ؟ ونصحني بعض الأصدقاء أن أهبط « بومباي » عسى أن أحصل على بعض المراتبة العملية أمام المحكمة العليا ، ولأدرس القانون الهندى ولأحصل على ما يمكن أن أحصل عليه من الدعاوى القضائية . فقبلت النصح وذهبت الى « بومباي » . وفيها استأجرت منزلاً ، وطباخاً لا يقل جهله بالطهو عن جهلي به . وكان « برهانياً » اسمه « رافيشنكر » ولم أكن أعامله معاملة الخادم ، بل كأنه أحد أفراد المنزل . وكان يصب

---

(١) Vakil - أى المحامى الذى يخرج من مدارس في الحقوق الهند .

الماء على جسمه صيباً ، ولكنه لا يستحم أبداً . وكانت ملابسه قدرة على الدوام ، كما كان على جهل مطبق بكل كتب الهند المقدسة . ولكن كيف يتسنى لي أن أحصل على طاه أليق منه ؟ . كنت أقول له : يمكن أن تكون جاهلاً بالطهو ، ولكن ألا يصح أن تعرف شيئاً من عبادتك اليومية ؟ فكان يجيبني في بلاهة « عبادتي اليومية ! تذكر ياسيدي ان المحرات هو عبادتنا والفأس هي مراسمنا الدينية . اننى انما أعيش اعتماداً على مراحمك . فاذا فقدت الأمل فيها فان الزراعة تكون ملجئى وظهيرى » .

هنا بدأت أكون معلماً ألقن « رافيشنكر » ما يحتاج اليه من المعلومات الأولية . وبدأ الوقت يمر بي في بطاء مسئم ، فأخذت أطهو نصف طعامى . وأجريت الطهو على الطريقة النباتية الانكليزية . فبنيت موقداً ، وبدأت أقوم بخدمة المطبخ مع « رافيشنكر » . وكنت لا أشعر بحاجة الى غذاء بين الوجبات ، وعلى هذا جرى خادمى . ولم يبق لي من شكوى أوجهها اليه الا ادمانه القنطرة ، حتى انه لم يكن يحفظ الطعام نظيفاً نظافة كافية .

غير اننى لم أستطع المقام في « بومباى » أكثر من أربعة أشهر أو خمسة لأنه لم يكن عندى من الدخل ما يسد النفقات . وبعد أن يئست من أن أحصل على عمل في « بومباى » غادرتها الى راجكوت ، وعدت الى مكتبي الأول . وهناك بدأت أعمل عملاً معتدل القيمة ، وبلغ متوسط



دخلت ثلاثمائة روية كل شهر ، ولكن هذا لم يكن راجعاً الى مهارتي ، بل الى تأثير أخي . فان شريكه كان ذا خبرة بالأعمال ، فكان يعهد الى بالبسائط ، ويعهد بالمشكلات الى كبار المحامين .

وأرى انه من الواجب على أن اعترف انني بدأت في ذلك الوقت أفكر في ضرورة إعادة النظر في مبدئي الذي جريت عليه من الامتناع عن دفع عمولة (سمسرة) . فقد أنبئت ان الحالة هنا على الضد مما أعهد . والعمولة تدفع في « بومباي » للسامسة ، ولكنها في راجكوت تدفع الى الوكلاء الذين يمونون المحامي بالقضايا . أما القاعدة هنا كما هي في بومباي ، فتحتم أن يدفع كل المحامين ومن غير استثناء نصيباً متوياً من أتعابهم سمسرة . أما كلام أخي في هذا الموضوع فكان مقنعاً . قال لي : « ترى انني شريك مع وكيل آخر . واني أميل دائماً أن نعهد اليك بكل القضايا التي نعرف انه في مقدورك مباشرتها . فاذا رفضت أن تدفع عمولة لشريكي ، فمن المحقق انك تضعني في مركز حرج . ولما كنا نشترك معاً في معيشة واحدة فان أتعابك تعد دخلاً مشتركاً لكلينا ويتالنني من ذلك نصيب . ولكن ماذا يكون أمر شريكنا ؟ افرض مثلاً انه عهد بقضية بين يديه الى محام آخر ، فانه ينال منه عمولة » ولقد اقتنعت بهذا الكلام ، وشعرت بأنني اذا أردت أن أعمل كمحام ، وجب علي أن أضحي بمبدئي في دفع العمولة ، وفي مثل الحالات التي ذكرها أخي على الأقل . هذا ما ساورني وتردد في نفسي ، أو بكلام أوضح ، بهذا

نخدت نفسي وغششتها . ولا مندوحة لي عن أن أضيف الى هذا انني  
لا أذكر اني دفعت عمولة ما في حالة ما في غير هذه الحالات التي تجري  
عليها كلام أخي . وعلى الرغم من أنني جاهدت في سبيل أن أوفق بين  
المتقاضين ارضاء لسر مهنتي ، فقد صدمت في ذلك الحين أول صدمة  
عنيفة في حياتي . ولقد سمعت كثيراً من قبل ما يعنى الهنود بضابط  
الانكليزي ، ولكنني لم أكن قد وقفت أمام ضابط انكليزي وجهاً لوجه  
حتى ذلك الحين .

كان أخي سكرتيراً ومستشاراً للمرحوم « راجابورباندر » وقد علقت  
في عنقه من بعد ذلك تهمة أنه أشار بنصيحة فاسدة لما كان يشغل ذلك  
المنصب . ووضعت المسألة بين يدي القومسير السياسي ، وكان في صدره  
من أخي حفيظة . وكنت أعرف ذلك الضابط لما كنت في انكلترا ،  
ومما يمكن أن أصرح به انه كان على صداقة معي . وظن أخي أنه من  
المستحسن أن ألتجأ إلى هذه الصداقة ، فألقى بكلمة طيبة عند الضابط  
تشفع لأخي بعض الشيء . وظن أخي أنه في استطاعتي أن أوضح حقيقة  
الأمر للضابط لعل ذلك يخفف من حفيظته نحوه . غير أنني لم أوافق  
مطلقاً على هذه الفكرة ، لأنني لم أرد أن أجعل لصداقة حصلت مصادفة  
في انكلترا ، مدخلا في مثل هذه الامور . فاذا كان أخي حقيقة قد أخطأ  
فأى شيء يفيد تدخل أو توصيتي ؟ وإذا كان بريئاً ، فما عليه إلا أن  
يكتب عريضة يشرح فيها حقيقة الامر وينتظر النتيجة . غير أن أخي

لم ترقه هذه النصيحة . وقال لى « انك لا تعرف كاثياوار . وعليك فوق ذلك أن تعرف الدنيا . فليس لشيء هنا قيمة الا الوسائط . ولا يخلق بك وأنت أخى أن تمتنع عن القيام بالواجب ، وأنت قادر على أن تفوه بكلمة طيبة عنى لضابط أنت على صلة به » .

ولقد أصبح من المستحيل على بعد ذلك أن أرفض رأيه ، فذهبت الى الضابط على غير ارادتى وعلى كره منى . وكنت أعرف أنه لا يحق لى أن ألاقه ، ومتحققاً فوق ذلك انى كنت على وشك تعريض احترامى الشخصى للامتهان . ولكنى على الرغم من هذا ضربت موعداً وذهبت ، وما كدت أذكره بصلتنا فى انكلترا ، حتى أبان لى سريعاً أن « كاثياوار » غير انكلترا ، وان ضابطاً بريطانياً فى اجازته ، غيره وهو قائم بمهام منصبه . ولقد ذكرت الضابط بتلك الصلة التى كانت بيننا ، غير ان تذكيره بها قد جاوز به إلى الخشونة . أما خشونته فكان معناها « انك لم تأت الى هنا اليوم الا لتنتهك هذه الصلة باستغلالها » غير انى رغم ما أدركت من الموقف ، شرحت شكاتى . وهنا عيل صبره ، وقال محتدماً — « إن أخاك دساس ، وانى لا أريد أن أسمع شيئاً فوق ما سمعت . ليس عندى وقت . واذا كان عند أخيك ما يقوله فما عليه الا أن يلجأ الى المراجع المختصة » . وربما كنت أستحق هذا الجواب الحاد . غير ان حب الذات أعمى ، فعدت بعد كل هذا الى روايتى أتمها . وهنا وقف الصاحب وقال لى « يجب أن تذهب الآن » فقلت « ولكن

أرجوك أن تسمع مني « . فلم يزد كلامي هذا الا غضباً . فنادى خادمه وأمره أن يدلني على طريق الباب . وكنت لا أزال متردداً عند ما أقبل الخادم ، ووضع يديه فوق كتفي ودفعتني خارج الباب . وما كدت أستقر في مكاني حتى كتبت مذكرة معناها « انك اهنتني ، وتهجمت على من طريق خادمك . فاذا لم تقم بما يصلح هذا الأمر ، اضطررت أن أرفع أمري الى القضاء » ولكن سرعان ما تلقيت منه الجواب على يد حاجبه وقد جاء فيه .

« لقد كنت بذيئاً معي . فقد أمرتك بالذهاب وأنت امتنعت . فلم يكن لي من بد ازاء امتناعك من أن آمر خادمي بأن يريك طريق الباب . ولما سألك أن تترك مكنتي لم ترد أن تفعل ذلك ، فما كان لديه من وسيلة أخرى الا أن يستعمل معك من القوة قدراً يكفي لاجراجك . وانك حر في أن ترفع أمرك الى أية جهة أردت » .

عدت الى المنزل وفي جيبى هذا الرد ، ذليلاً خافض الرأس ، وقصصت على أخي كل ما حصل ، فحزن . ولكن لم يكن يدري طريقاً يسليني به عما حدث . وكثيراً ما تحدث عن هذا الأمر الى أصدقائه من الوكلاء ، لأنني لم أكن أعرف الطريق الرسمي لمقاضاة الصاحب ، وحدث أن السر « فيروز شاه مهتا » كان في راجكوت في ذلك الوقت ، وقد قدم من بومباي لمباشرة قضية ما . ولكن كيف السبيل لمحام



صغير حديث العهد بالمهنة ، أن يقابله ويحظى بلقياه ؟ ولكن أرسلت إليه أوراق قضيتي من طريق الوكيل الذي دعاه الى راجكوت وسألته الرأي في الموضوع . فقال للوكيل « أفهم غاندى ان مثل هذه الأشياء أمر عادى هنا . انه هبط من إنجلترا قريباً ولا يزال دمه حامياً . وانه لا يعرف الضابط الانجليزى . فاذا كان يربح من مهنته شيئاً هنا، واذا كان الزمان يؤاتيه بالحاجات ، فقل له ان الأولى به أن يمزق مذكرته وأن ييلع الاهانة . فانه لن يربح شيئاً من مقاضاة الصاحب ، بل على الضد من ذلك تماماً يرجح كثيراً أن يكون في ذلك هدم مستقبله . وعليك أن تعرفه عنى أن عليه أن يعرف من الدنيا أكثر مما عرف حتى الآن » .

كان لهذه النصيحة مرارة السم في فمى ، ولكن لم يكن لي مندوحة من أن أبتلعها ، كما ابتلعت الاهانة ، ولكنى على كل حال انتفعت بها اذ عاهدت نفسى على « أن لا أضعها في مثل هذا الموضوع الدقيق مرة أخرى وأن لا أحاول أن أستغل الصداقة هذا الاستغلال ثانية » . ومنذ ذلك الوقت لم ارتكب جريمة الحنث بعهدى والرجوع عن تصميمى بهذا . غير ان هذه الصدمة الألمية غيرت مجرى حياتى تغييراً كلياً . ولا شبهة مطلقاً فى انى كنت مخطئاً اذ أقدمت على الذهاب الى القومسير السياسى . غير أن حنقه وقلة صبره وغضبه ، جميعها كانت لا تتناسب مع خطئى . ولم يكن فى الأمر ما يوجب طردى . لانى كنت سوف لا أستغرق من وقته أكثر من خمس دقائق . ولكن

الواقع انه لم يستطع أن يحتمل منى كلاماً في الموضوع . وكان في استطاعه أن يطلب منى في أدب أن أذهب . ولكن القوة الغاشمة أسكرته الى درجة غير كفيلة بالاتزان . ولقد علمت فيما بعد أن الصبر أبعد الأشياء عن فضائله .

أما اذا عزمت على أن أزاول مهنتي في ذلك المكان فما لا شك فيه أن أكثر قضاياى سوف تنظر أمام محاكمه . وكان مما يخرج عن طوقى أن أتوصل الى ترضيته والتفاهم معه ، كما انى لم أكن على استعداد لأن أتلف اليه . ولما كنت قد هددت بأن أقاضيه ، صعب على أن أظل ساكناً . غير انى سرعان ما بدأت أفهم شيئاً من سياسة هذه المقاطعة . فان « كاثياوار » ليست الا كتلة مكونة من ولايات صغيرة . وكانت الدسائس بين الولايات ، والمؤامرات بين الضباط ليرقى كل منهم درجات القوة والسلطان الواسع ، القاعدة العامة في النظام الحكومى . وكان الأمراء تحت رحمة غيرهم . ولم يكن فى وسعهم الا أن يلقوا بسمعهم الى المتزلفين . ولقد شعرت بأن هذا الجو مشبع بالسموم ، وكيف أبقى بعيداً عن التأثير به ؟ كانت هذه مشكلة بذاتها . وما لبثت غير قليل حتى شعرت بأننى مكتئب خائر النفس ولحظ فى أخى هذا الأمر . وشعر كلانا بأننى اذا استطعت أن أجد عملاً بعيداً عن هذا المكان ، استطعت أن أفلت من جو الدسائس والوشايات . ومن غير أن ألتجأ الى وسائل غير شريفة ، لم يكن فى وسعى أن أشغل منصباً ادارياً أو قضائياً .

ناهيك بمشكلكي مع القومسير السياسي .

كانت « پورباندر » اذ ذاك تحت الادارة الحكومية ، وكنت هبطتها لأسعى في أن أنال للأمير حقوقا أوسع من الحقوق التي يتمتع بها . وكذلك كنت أرغب في أن أرى المدير لآناقشه في مسألة أجور الأراضى وارتفاع القيمة التي تجبى من المستأجرين . غير انى وجدت هذا الضابط المدير ، ولو انه هندي ، أشنع من الصاحب أخلاقا وأشد نزقا . ولقد فشلت في هذا الأمر فشلا عظيما ، حتى لقد خيل الى أن العدل يمنع عن زبائنى عمداً ، وبذلك أعجز عن أن أصل اليه . وكل ما كان في مستطاعى أن أعمله لا يتعدى أن أعرض أمري أمام القومسير السياسى أو الحاكم الذى لم يكن من شأنه الا أن يرفض النظر فى شكواى قائلا : « ليس من شأننا أن نتدخل فى الأمر » . أما اذا كان هنالك قانون أو نظام يحدد مثل هذه القرارات ، فلا شك فى أن يكون لنا شأن . ولكن ماذا يكون العمل مادامت ادارة الصاحب هى القانون ! غير انى شعرت فى النهاية انى ساخط مغيظ ، ورجبت كل الرغبة فى أن أبعد عن جو الدسائس جهد ما أستطيع .

فى هذا الوقت كتبت احدى المؤسسات التجارية فى « پورباندر » الى أخى تعرض عليه الآتى :

« لنا أعمال فى جنوب افريقية ، ومؤسسة من أكبر المؤسسات . وقد اشتبكنا فى قضية تبلغ قيمتها أربعين ألفاً من الجنيهات الانجليزية .

ومضى على الدعوى زمن طويل وما تزال منظورة ، واستخدمنا فيها  
أمهر الوكلاء وأشهر المحامين . فاذا سمحت بأن ترسل أخاك الى جنوب  
افريقية فانه سوف يفيدنا ويفيد نفسه . وسوف يستطيع ، على ما نرى ،  
أن يزودنا بنصائح ثمينة ، فضلا عن أنه سيرى بلادا جديدة وينشئ  
علاقات مع أشخاص لم يكن يعرفهم . وبعد مناقشة قبلت العرض  
من غير أية مساومة وأخذت أستعد للذهاب الى جنوب افريقية .





## الفصل السادس

في ناتال

كان « عبد الله شيث » ينتظرنى فى « دوربان » Durban ووصلت السفينة الى المرفأ . فلاحظت الناس يصعدون الى الباخرة ليلاقوا أصدقاءهم ، كما لاحظت أن الهنود غير محترمين . ولم يفتنى أن أرى طابعا من الانحطاط والوضاعة ظاهراً فى الطريقة التى عومل بها « عبد الله شيث » من الذين كانوا يعرفونه على ظهر الباخرة . غير أن « عبد الله شيث » كان قد ألف هذه المعاملة . والذين لاحظوا وجودى منهم

لم يتعففوا عن أن يرمقوني بنظرات الاحتقار المزوجة بالتعجب والدهشة . فان لباسي كان يميزني عن بقية الهنود . فقد كنت ألبس بذلة « فروك » وعمامة صغيرة .

وكان « عبد الله شيث » غير مثقف ، ولكنه كان واسع التجربة كبير الخبرة . ويمتاز بعقل حاد مدرك ، وكان يعرف في نفسه هذه الكفاية . وبخبرته استطاع أن يلتقط من اللغة الانجليزية قدرًا يمكنه من التكلم بها . فساعده هذا في أعماله ، سواء أفي علاقاته الكثيرة بمديرى البنوك والتجار الأوربيين ، أم في شرح مشاكله لمستشاريه . وكان الهنود يعجبونه ويحترمونه ، كما كانت مؤسسته أكبر المؤسسات الهندية ، أو على الأقل من أكبرها . ولكن بجانب كل هذه المزايا كانت فيه نقيصة واحدة . فانه كان بطبعه مرتابًا كثير الشك .

وله بالاسلام شغف يدفعه الى الفخر به ، ويجعله كثير الميل الى المناقشة في الفلسفة الاسلامية ، وعلى الرغم من أنه كان جاهلا باللغة العربية ، كان الملم بالقرآن والأدب الاسلامي على وجه عام لا بأس به . أما الأمثال فكان فيها كنزاً لا يفنى ولا ينضب ، يلجأ الى ذاكرته فتواتيه بها عن غير جهد . ولقد زودتني علاقتي به بكثير من المعلومات العملية عن الاسلام . ولما زادت أفتنا ، كنا نمضي في مناقشات طويلة وأبحاث واسعة في الأمور الدينية .

وفي اليوم الثاني أو الثالث من وصولي صحبني لأرى محكمة «دوربان» وهناك قدمني لكثير من الناس وأجلسني الى جانب محاميه . فظل

الحاكم ينظر الى ويحدد جنى بعينيه ، ثم أمرني بأن أخلع عمامتي فرفضت  
أن أصدع بما أمرت و تركت المحكمة في الحال . ووقع في روعي أن  
الجلاد والصراع ينتظراني حيث حللت أيضاً . ولقد أبان لي « عبد الله  
شيث » عن السبب الذي من أجله يطلب إلى بعض الهنود أن يخلعوا  
عمائمهم . فالذين يرتدون الملابس الاسلامية يمكن أن يسمح لهم بوضع  
عمائمهم ، أما غيرهم فمن الواجب أن يخلعوها اذا دخلوا المحكمة .

ويقضى على الواجب أن أشرح هنا بعض التفاصيل لأظهر السبب  
في هذا التفضيل . ففي خلال اليومين أو الثلاثة التي قضيتها قبل  
ذهابي الى المحكمة لاحظت أن الهنود منقسمون الى شيع . احداها  
شيعة التجار المسلمين ، ويدعون أنفسهم « أعراباً » والثانية شيعة  
الهندوكيين ، والثالثة شيعة كتاب « البارسي » (Parsi) . أما الكتاب  
الهندوكيون ، فلم يكونوا الى هؤلاء ولا إلى أولئك ، ما لم تتصل مصالحهم  
« بالاعراب » . أما الكتاب البارسيون ، فيدعون انهم فارسيون أي  
أعجام . وللشيع الثلاث روابط وعلاقات تصل بينهم . ولكن أكبر  
شيعة منهم كانت تتكون من رجال التميل Tamil والتيلوجو Telugu  
وسكان شمالي الهند الذين وفدوا الى جنوبي افريقية بمقتضى عقود حررت  
معهم والعمال الأحرار أي الذين يشتغلون بغير عقود . أما الذين وفدوا  
بعقود فقد هبطوا على ناآل يعملون فيها خمس سنوات . أما الشيع الثلاث  
الأخر فلم يكن لهم من عمل الا من طريق الاتصال بهؤلاء ويدعونهم

الانجليز « الأجراء » Coolie وهي كلمة هندية الأصل ومعناها حمال  
أوشيال . وقد تنصرف الى الأجير أو العامل ، فصرفها الانجليز الى  
الهنود اطلاقاً .

ولما كانت الأغلبية المعظمى من الهنود في جنوبي افريقية من طائفة  
الأجراء ، جرت العادة أن يدعى الهنود جميعاً أجراء - Coolie - أو  
« سامى » Sammi بلا تمييز بين الأقدار ولا المهن . وكلمة « سامى »  
محرقة عن « سوامى » Swami وهو مقطع يضاف الى نهاية الأسماء  
عند قبيلة « التميل » في الهند .

لهذا عرفت في جنوبي إفريقيا بأنى محام من الأجراء Coolie  
Barrister كما كان يعرف التجار بأنهم تجار الأجراء Coolie  
merchants وبهذا نسي المعنى الذى تدل عليه كلمة كولى Coolie  
وأطلقت لتكون اسماً عاماً على كل هندي .

أما التجار المسلمون فكانوا يحاولون أن يتخلصوا من شناعة الصفة التى  
جرت على الهنود مجرى أسماء الأعلام ، فيقول أحدهم اذا ما دعى بهذا  
اللعن « اننى لست أجيراً وانما انا عربى » أو يقول « اننى غير أجير ،  
وانما انا تاجر » فاذا كان الرجل الانجليزى الذى يدور معه الحديث فيه  
شئ من الأدب أو حسن الذوق ، اعتذر اليه .

ولو وضع العمامة على الرأس شأن كبير في مثل الحالات التى قامت  
اذ ذاك في جنوبي إفريقيا . فان خلع العمامة الهندية من فوق الراس



ليس له من معنى الا انك تصبر على اهانة أو تبتلع مسبة رميت بها .  
ولهذا فكرت في أن أودع عمامتى الوداع الأخير وأن ألبس قبعة  
انجليزية تحميني السب والاهانة ، وتوفر على كثيراً من المنازعات .  
ولكن « عبد الله شيث » لم يوافق على الفكرة وقال « انك لو أتيت  
شيئاً من هذا كان له أسوأ الأثر ، لأنك ستتحدى أولئك الذين يدعون  
إلى لبس العمامة الهندية ويحترمون لبسها . والعمامة تستوى على رأسك  
جيداً ، فاذا لبست قبعة ظن الناس انك « جرسوناً » ( خادم في  
مشرب ) .

كان في هذه النصيحة قدر من الحكمة والوطنية ، ولكن كان فيها  
لجانب هذا أيضاً قدر من الجمود وضيق الفكر . أما وجه الحكمة فيها  
فكان ظاهراً . وما كان ليحتم على الاستمرار على لبس العمامة  
لو لم يدعه الى ذلك داعى الوطنية . أما اشارته الى أن الناس قد يظنوننى  
« جرسوناً » ففيها جمود . وكان من بين الهنود ذوى العقود أو المتعاقدين  
على العمل ، هندوكيون ومسلمون ومسيحيون . أما المسيحيون فهم  
أبناء أولئك الذين اعتنقوا الدين المسيحى . ولقد كان عددهم كبيراً حتى  
سنة ١٨٩٣ . وكانوا يلبسون الزى الانجليزى ويكسبون عيشهم من  
العمل « كجرسونات » فى الفنادق . ولهذه الطائفة أشار « عبد الله  
شيث » لما نصحنى بأن أبقى على عمامتى . وكان الهنود يرون أن العمل فى  
الفنادق أمر مبتذل مذموم .

على كل حال اذ عنت لنصيحة «عبد الله شيث». ولكنى كتبت الى  
النصحف شارحاً ما وقع لى ، ودافعت عن ضرورة لبس العمامة في قاعة  
المحكمة . ولقد أخذ الأمر شأنًا كبيراً في الصحف وكان مثار مناقشات  
انتهى الأمر منها بأنى « زائر غير مرغوب فيه » . وكانت هذه الحادثة  
سبباً في الاعلان عنى فأصبحت معروفاً على غير ما كنت أتنظر فى كل  
نواحي إفريقيا الجنوبية فى خلال بضعة أيام . وانشق الرأى ، ففريق  
يناصرنى ، وفريق ينتقد «زقى» مر الانتقاد .

فى اليوم السابع أو الثامن من مقامى بجنوبى إفريقيا ، غادرت  
« دوربان » . وأخذت تذكرة بالدرجة الأولى لدى السفر . وكانت  
العادة أن يدفع المسافر فى الدرجة الأولى خمسة شلنات اذا أراد  
أن ينام فى عربة النوم . وحتم على عبد الله شيث أن أوجر فراشاً .  
ولكن عنادى وخيلائى ورغبتى فى الاقتصاد ، كل هذه جعلتنى أرفض  
ما أشار به على . فقال لى « تصور أولاً ان هذه البلاد غير الهند . والله  
الحمد لدينا مايكفى نفقاتنا . فأرجوك أن لا تحرم نفسك من شىء أنت فى  
حاجة اليه » .

ووصل القطار الى « مرتزبرج » عاصمة « ناتال » فى الساعة التاسعة  
مساء وكانت حجرات النوم تهبأ فى هذه المحطة ، فتقدم خادم وسألنى اذا  
كنت محتاجاً لفراش ؟ فأجبتة سلبا ، وانصرف . ولكن هبط على  
مسافر وأخذ ينظر فى طولاً وعرضاً . ورأى اننى من ذوى « الألوان »

Coloured man فأزعجه هذا الأمر ، وخرج ثم عاد ومعه موظف أو موظفان من عمال السكة الحديد . ولكن ظل الكل صامتين هنيهة ، ثم قرب منى أحد الموظفين وقال لى : « قم من هنا . انك يجب أن تذهب الى عربة السبنسة .<sup>(١)</sup> »

« ولكن معى تذكرة فى الدرجة الأولى »

فرد على الموظف الآخر قائلاً : « هذا لا يهم . انى أمرك بأن تذهب الى السبنسة » .

— « لقد سمح لى أن أسافر فى هذا المحل من «دوربان» وأنا مصمم على أن أظل به حتى نهاية سفرى »

— « انك سوف لا تظل به ، بل يجب عليك أن تغادره ، وإلا فانى سأضطر الى الاستعانة بأحد كونسبتلات البوليس ليخرجك من هنا »  
— « لا بأس . افعل . وانى أرفض أن أخرج من هنا مختاراً »

وجاء الكونسبتل ، فأمسك بيدي وجذبني خارج العربة . وأخرج معى أمتعتى الى الرصيف . ولكنى رفضت أن أذهب الى حيث أمرت وأزف ميعاد السفر ، وأطلق البخار للقطار العنان . فذهبت الى حجرة الانتظار ، بعد ان أخذت معى حقيبة صغيرة تعودت أن أحملها فى يدي وتركت بقية أمتعتى حيث كانت . بعد ان عهدت بها الى موظف سكة الحديد .

(١) السبنسة كلمة نطقها فى مصر على كلمة - van - وهى عربة تكون فى مؤخرة القطار وفيها عامل يقوم ببعض أعمال ضرورية فى حالات خاصة .

وكننا في فصل الشتاء، والشتاء في الأماكن المرتفعة في جنوب  
افريقية شديد البرد. ومدينة « مرتزبرج » على ارتفاع كبير، فكان  
البرد زمهرياً. وكان معطفي في الحقيبة الكبيرة، وخشيت بل خفت  
أن أسأل عنها لثلاث تنالي اهانة أخرى، فجلست اهتز من البرد وفرائصي  
ترتعد. ولم يكن في الحجر نور، بل كانت في ظلام دامس. وفي منتصف  
الليل جاء مسافر وحاول أن يشتبك معي في الكلام، ولكني كنت في  
حالة يتعذر علي فيها أن أجد من نفسي ميلاً للحديث.

وبدأت أفكر في واجبي في مثل هذا الظرف وتلقاء هذه المعاملة. أوجب  
علي أن أصارع وأجاد في سبيل التمتع بحقوقى، أم أرجع إلى الهند؟ أم  
أتابع السفر إلى « بريتوريا » ثم أعود إلى الهند بعد أن أفرغ من قضيتى؟  
وكنت أعتقد أن من الجبن أن أرجع إلى الهند قبل أن أقوم بكل  
التزاماتى وواجباتى. أما المتاعب التى تعرضت لها حتى الآن فتافهة ولا  
قيمة لها. وهى في حقيقتها ليست إلا عرضاً بسيطاً من أعراض ذلك  
المرض الذى يدعو به مرض « اللون » فلا بد لى اذن من أن أحاول  
استئصال شأفة هذا المرض وأن أقاسى في سبيل ذلك المتاعب والآلام.

وعلى هذا صممت أن أركب القطار التالى الى « بريتوريا ». وفى  
الصباح أرسلت برقية مطولة الى مدير السكك الحديدية العام، وأخرى  
الى « عبد الله شيث » الذى قابل مدير السكة الحديدية بمجرد أن وقعت



البرقية في يده . ولقد برر مدير سكة الحديد مسلك الموظفين ، ولكنه أخبره بأنه أبدى تعليماته الى ناظر محطة « مرتزبرج » بأن ينظر في أمر وصولي الى حيث أريد آمنة . وأرسل عبد الله شيث الى التجار الهنود في مرتزبرج وغيرهم من أصدقائه في أما كن أخرى يوصيهم بي خيراً ! وحضر التجار ليلاقوني في المحطة ، وأخذوا يطيبون خاطرني ويروون الحوادث التي وقعت لهم ، ويظهرون لي أن ما وقع ليس بشيء غير عادي . وأخبروني أيضاً أن الهنود الذين يسافرون في الدرجتين الأولى والثانية يجب أن يوطنوا النفس على أن يلاقوا من عمال سكة الحديد ومن المسافرين « البيض » مثل هذه المعاملة ، وقضيت اليوم اسمع مثل هذه الروايات المحزنة . وأقبل قطار المساء . فاشتريت في « مرتزبرج » تذكرة « النوم » التي رفضتها في « دوربان » . ووصل القطار الى « شارلستون » في الصباح . ولم يكن في تلك الأيام موصلات بخارية بين « شارلستون » و « جوهنزبرج » بل كانت الموصلات تنحصر في النقل على عربات كبيرة تقضى الليل في بلدة « ستندرتون » أثناء السفر ؛ وكان معنى تذكرة تبيح لي السفر في هذه العربة ، ولم تكن قد أُلغيت قانوناً على الرغم من تخلفي يوماً بأكمله في بلدة « مرتزبرج » . وفضلاً عن هذا كان « عبد الله شيث » قد أرسل برقية الى متعهد العربات في « شارلستون » ليسهل لي طريق السفر .

غيز أن المتعهد كان يحاول أن يستند إلى أية حجة يمنعني بها عن ركوب العربة لما عرف أنني « أجنبي » فقال لي « ان تذكرتك ألفت » فرددت عليه بما يجب أن يقال في مثل هذه الظروف . ولم يكن السبب في عدم سماحه لي بالسفر في العربة هو عدم وجود الفراغ ، بل كان سبباً آخر يحاول أن يخفيه . والمتبع في مثل هذه الأسفار أن يجلس المسافرون داخل العربة ، ولكني لما كنت معتبراً من « الاجراء » وأني أجنبي ، رأى المراقب الذي يرافق المسافرين « البيض » أن أجلس بجوار السائق . وكانت هناك مقاعد على جانبي العربة من الخارج والواجب على هذا المراقب أن يجلس في أحدها ، ولكنه جلس داخل العربة وأعطاني مقعده . واعتقدت أن هذا مجرد اخلال بالنظام وخروج على العدل ، فضلاً عما فيه من اهانة واذلال . ولكني فضلت أن أذعن ، لأنه لم يكن في استطاعتي أن أقترح طريقاً إلى داخل العربة ، وإذا احتججت سافرت العربة وتركتني حيث أنا . ومعنى هذا أنني أخسر يوماً آخر ، ولا يعلم إلا الله ما كان يحدث في ذلك اليوم . وعلى الرغم مما كنت أشعر به في نفسي من غيظ وحنق ، جلست باحتراس إلى جانب السائق .

حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر وصلت بنا العربة إلى « برديكوت » وأراد المراقب أن يجلس حيث كنت أجلس لأنه أراد أن يدخن . ولعله كان يشعر أنه في حاجة إلى الهواء الطلق . فأخذ من السائق قطعة قذرة من الخيش وفرشها على المشي وناداني قائلاً - « أنت يا هذا . اجلس

هنا لأنى أريد أن أجلس إلى جانب السائق . وكانت هذه الالهانة أكثر مما يمكن أن أحتمل ، ولكنى قلت له فى خوف ورعدة - « إنك بنفسك الذى أجلسنى هنا ، على الرغم أن من حقى أن أجلس داخل العربة . غير أنى احتملت هذه الالهانة . والآن لأنك تريد أن تجلس فى الخارج لتدخن ، تريدنى أن أجلس عند قدميك . وانى لأرفض أن أذعن لهذا مالم آخذ مقعدى داخل العربة . »

وإذ كنت أجهد نفسى جهداً لأخرج هذه الكلمات ، تقدم الرجل نحوى وبدأ يصفعنى على أذنى صفعاً مؤلماً شديداً ، وأمسك بذراعى وحاول أن يجذبنى إليه فتشبثت بأجزاء من العربة وصممت على أن أظل متشبثاً بها ، حتى ولو كسر راسى ، وكان المسافرون يشهدون هذا المنظر ، والرجل يجذبنى اليه ويعمل جهده ليزحزحنى من مكانى ، وأنا متشبث به . وكان قوياً بقدر ما كنت ضعيفاً . وفى النهاية أخذت الرحمة تعمل فى قلوب بعض المسافرين فنادوا الرجل قائلين « اتركه أيها الرجل . انه على حق . فانه إذا لم يستطع أن يجلس حيث أردت ، فاتركه يجلس معنا » فأجابهم المراقب « لا تخافوا » . ولكن الظاهر أنه شعر بأنه هزم ، فامتنع عن ضربى ، وترك ذراعى متجهماً ، وأمر الخادم « الهوتنتوتى » أن يشغل المقعد الذى كان هياًه لى ، وأخذ هو مقعده .

وأخذ المسافرون أمكنتهم ، وأعطيت إشارة السير ، وانطلقت العربة فى مسيرها وكان قلبى يدق دقات سريعة قوية ، حتى لقد خيل إلى أنه

يكون من العجب إذا أنا وصلت إلى حيث كنت أريد وفي نفس يتردد .  
وكان الرجل يحدجني بنظرة غضب بين آونة وأخرى مشيراً إلى يده  
في تهديد قائلاً . « خذ حذرك . فاني إذا وصلت إلى « ستندرتون »  
فسأريك عاقبة عنادك » . ولكن ظلمات صامتاً أدعوا الله أن يكون في عوني .  
ولما خيم الظلام كئافى « ستندرتون » ولم أكد أرى وجوهاً هندية  
حتى صعدت من أعماق رثتي تهدة طويلة . وبمجرد أن نزلت من العربة  
قال لي هؤلاء الأصدقاء نحن في انتظارك لمرافقتك إلى محل تجارة  
« عيسى شيث » فقد أرسل إلينا « دادا عبد الله » برقية بهذا المعنى .  
فاغتبطت ورافقتهم إلى محل « شيث عيسى حاجى سومر » والتفت من  
حولى كتاب المحل ، وقصصت عليهم كل ما حدث لي فحزنوا ، ولكنهم  
انطلقوا يعيدون على سمعى ما وقع لكل منهم من التجاريب المريرة .  
وأردت أن أخبر مدير شركة العربات بكل ما وقع لي . فكتبت إليه  
خطاباً ، قصصت فيه كل ما حصل تماماً ، ووجهت انتباهه إلى التهديد  
الذى هددنى به العامل ، وكذلك طلبت منه تأكيدياً بأن يعطينى مكاناً  
مع بقية المسافرين داخل العربة عند ما تستأنف السفر صبيحة الغد ،  
فكان جواب المدير ما يلي :

« إن العربة التى ستغادر ستندرتون أكبر من العربة الأولى .  
ورجالها غير رجال تلك . والعامل المشكو منه سيكون بعيداً عن العمل  
غداً ، وسيخصص لك محل مع بقية المسافرين فكان فى جوابه



هذا بعض الترضية . ولم يكن لدى أية فكرة في مقاضاة الرجل الذى ضربنى وبذلك انتهى الأمر عند هذا الحد .

وفى الصباح رافقتى رجال « عيسى شيث » إلى العربية ، وأخذت فيها مكانا لائقاً ، ثم وصلت «جوهنز برج» فى المساء آمناً .

إن ستندرتون قرية صغيرة ، وجوهنز برج بلدة كبيرة . وكان عبد الله شيث قد أبقى إلى «جوهنز برج» أيضاً ، وأعطانى اسم «محمد قاسم قمر الدين» وعنوان محله التجارى . وحضر إلى خادمه ليلتقانى فى موقف العربات . ولكن لم أره ، كما أنه لم يعرفنى . فعزمت على الذهاب إلى فندق . وركبت عربة وأمرت السائق أن يذهب بى إلى « الجراندا أوتيل ناسيونال » وقابلت مدير الفندق وسألته عن حجرة . فأخذ ينظر فى هنيهة ، وقال فى أدب - « متأسف ليس عندنا مكان » فعدت إلى العربة وأمرت السائق أن يذهب إلى محل تجارة محمد قاسم قمر الدين . وهناك وجدت عبد الغنى شيث يرتقب وصولى ، فلتقانى بكل تحطاب ، ومضى يضحك مما حدث لى فى الفندق قائلاً « وهل تنتظر أنه يمكن أن تقبل فى الفندق ؟ »

- ولم لا .

- « ستعرف السبب بعد أن تقيم هنا بضعة أيام . اننا لا نستطيع أن نعيش فوق هذه الأرض ما لم نتحمل وتتسامح . وفى سبيل جمع المال تتغاضى عن السباب . هكذا نحن هنا »

وأخذ يقص على سمعي مختلف أنواع الصعاب والمشقات التي يعانيتها  
الهنود في جنوبي أفريقية .

وبعد أن مضى علي مقامي زمن قال لي - « إن هذه البلاد ليست  
بالديار التي تليق بأمثالك . وأنتك سوف تمضي إلى بريتوريا غداً . فعليك  
أن تسافر في الدرجة الثالثة . فإن مجرى الأحوال في الترنسفال أشنع منه  
في الناتال . فان تذاكر الدرجة الأولى والثانية لا تصرف بتاتاً للهنود .  
وإن كل مجهود في سبيل تغيير هذا النظام يذهب هباء . ولقد أرسلنا  
مرات عديدة من ينوب عنا للكلام في هذا الشأن ، ولكن رجالنا على  
وجه عام يكرهون السفر في الدرجتين الأولى والثانية »

فأرسلت في طلب لوائح سكة حديد وقرأتها بعناية . وبعد الدرس  
وجدت فيها مخرجاً . فإن اللغة القديمة التي كتبت بها اللوائح لم تكن  
مضبوطة ولا بينة الحدود تماماً . واللغة التي كتبت بها لوائح سكة  
الحديد كانت أحط من تلك بمراحل .

فقلت لشيث « أريد أن أسافر في الدرجة الأولى . فإذا لم أستطع فاني  
أفضل أن أركب عربة إلى بريتوريا ، وهي لا تبعد أكثر من سبعة  
وثلاثين ميلاً »

فأرشدني شيث عبد الغني عما يقتضى هذا الأمر من ضياع الوقت  
وزيادة النفقات . ولكنه وافق على أن أسافر في الدرجة الأولى ،  
وأرسلنا بذلك مذكرة إلى ناظر المحطة ، ذكرت فيها أني محام وأني أسافر

دائماً في الدرجة الأولى ، وأن عملي يقضى على بأن أصل إلى بريتوريا في أقرب فرصة ممكنة . ولم يكن لدى من الوقت ما يسمح بانتظار جوابه ، وفضلت أن أتلقاه منه شخصياً في المحطة ، وكان لي غرض من تلقى جوابه بشخصي خفية عن أصدقائي . فاذا كان ناظر المحطة سيرسل إلى رداً مكتوباً فمن المؤكد أنه سيقول « لا » مادام مقتنعاً بأن الشخص المسافر لا يزيد عن محام من « الاجراء » فيكون من الأوفق إذن أن أظهر أمامه في بزتي الانجليزية ، وأن أتكلم اليه ، فربما أحمله على أن يرضى بصرف تذكرة في الدرجة الأولى . ولذا ذهبت إلى المحطة في بذلة « فروك » ورباط رقبة من الطراز الأول ، وأبرزت جنيتها انجليزياً ليأخذ منه أجرة السفر ، وسألته أن يعطيني تذكرة في الدرجة الأولى .

- فسألني - « هل أرسلت إلى هذه الرقعة ؟ »

- نعم . واني لا أكون ممنوناً إذا سمحت لي بتذكرة ، فان واجبي يقضى على أن أصل إلى بريتوريا اليوم .

فتبسم في حنو وقال « إني لست من أهل الترنسفال ، بل هولاندي . ولذا أقدر شعورك وأمنحك عطفي . وسأعطيك التذكرة التي تطلبها ، ولكن على شرط أنه إذا أراد مراقب القطار أن ينقلك إلى الدرجة الثالثة ، فلا تحملني أية مسؤولية في الأمر . وأعني بذلك أنك لا تقاضي الشركة . وآمل أن تصل سالماً فاني أراك سيداً كريماً » .

وصرف التذكرة ، فشكرته وأكدت له اني سأرعى عهدي معه .

وجاء شيث عبد الغنى ليودعنى على المحطة . ولقد أبدى أقصى الدهشة  
عندما عرف أنى تحصلت على تذكرة فى الدرجة الأولى ، ولكنه حذرنى  
قائلاً - « سأ كون بلا شك شاكرًا للعناية إذا أنت وصلت بريتوريا سالمًا .  
وأخشى أن لا يتركك مراقب القطار آمنًا فى الدرجة الأولى . وإذا تركك  
هو ، فإن المسافرين سوف لا يتركوك » .

وأخذت مكانى فى الدرجة الأولى من العربة وسافر القطار . وفى محطة  
« جرمستون » أتى المراقب ليفحص التذاكر ، فغضب إذ وجدنى فى  
الدرجة الأولى وأشار إلى بأصبعه آمرًا أن أذهب إلى الدرجة الثالثة .  
فأبرزت له تذكرتى فقال - « إن هذا لا يهيم . يجب أن تذهب إلى  
الدرجة الثالثة . »

ولم يكن معى فى العين التى أجلس بها إلا رجلا انجليزياً . فتحدى  
المراقب قائلاً - « ماذا تعنى بذلك . ومن أجل أى شىء تتعب هذا  
السيد ؟ ألا ترى أن معه تذكرة فى الدرجة الأولى ؟ أما أنا فلا أشعر  
بأى تكليف فى أن يرافقنى فى السفر » - ثم نظر إلى وقال - « تفضل  
واسترح حيث أنت » . فتمتم المراقب قائلاً - « إذا كنت تريد أن  
ترافق أجيراً فى السفر فماذا يهمنى ؟ » . ثم انصرف .

وحوالى الساعة الثامنة مساء وصل القطار الى بريتوريا .  
ولقد ترقبت أن يتلقانى فى المحطة شخص من قبل محامى «دادا عبد الله»  
وكنت قد صممت على أن لا أنزل فى بيت أحد من الهنود ، فكان



من المنتظر أن لا أجد أحداً منهم . غير أنى لم أجد أحداً أيضاً من قبل  
الجبني . ولقد علمت بعد ذلك أننى وصلت يوم أحد ، ولم يكن فى  
مستطاعه أن يرسل أى شخص من غير أن يكون فى ذلك شىء من  
التكليف والامتناع . ولم أكن أعرف إلى أين أذهب ، وخفت أن  
لا يسمح لى بالبيت فى فندق من الفنادق .

، أما محطة بريتوريا سنة ١٨٩٣ فغيرها الآن ، فقد كانت أنوارها ضئيلة  
وكان المسافرون قليلى العدد . فتأخرت عن الخروج وتركت جميع الركاب  
يخرجون قبلى ، حتى أستطيع أن أسأل العامل الذى يجمع التذاكر عما  
إذا كان فى قدرته أن يهدينى الى فندق صغير ، أو الى أى مكان من نوعه  
أستطيع أن أقضى فيه الليل ، والافانى أقضى الليلة على رصيف المحطة .  
ولا بد لى من الاعتراف بأنى خفت أن أسأله هذا السؤال حذرأني يهيننى  
أو يشتمنى .

ونخلت المحطة من كل المسافرين وسأمت تذكرتى للعامل ثم أخذت  
التي عليه أسئلتى . فأجبنى فى أدب جم ، ولكن اتضح لى أنه لا يستطيع  
مساعدتى ، وساق الى القدر فى تلك اللحظة عبداً امير كياً ، تدخل فى الأمر  
واشتبك معنا فى الحديث فقال - « أرى انك غريب . وليس لك هنا  
أصدقاء ، فاذا سمحت أن ترافقنى هديتك الى فندق صغير يملكه رجل  
أمريكى يعرفنى معرفة أكيدة . وأظن أنه لا يرفض قبولاك »

ولم يحل قبولى مساعدته دون شكوك وريب . غير أنى شكرته وقبلت

اقتراحه ، فاقترادني الى فندق اسمه « أسرة جونستون » وانتحى بالمدير ناحية يكلمه ، فقبل أن أقضي عنده الليلة على شرط أن أتناول غذائي في حجرتي ولا أبرحها . ثم قال لي - « كن على يقين من أني بعيد عن شعور كراهية الالوان . ولكني أجرى على العادات الأوربية هنا . وإذا سمحت لك بأن تتناول طعامك في حجرة الأكل ، فربما امتعض نزلائي أو تركوا الفندق بتاتا » - فأجبت

- أشكرك على أنك قبلتني هذه الليلة . كنت قليل الخبرة بالأحوال هنا ، ولكني أزداد بها علما مع الزمن . والآن أستطيع أن أقدر موقفك ولا يهمني أن أتناول عشائي في حجرتي ، وآمل أن توفق الى ترتيب أدق في اليوم التالي .

وذهب بي الى حجرتي ، وظللت بها أنتظر عشائي وأتسلى بالغناء ، لأنني كنت وحدي . ولم يكن في الفندق كثير من النزلاء . وكنت أنتظر الخادم ليحضر الطعام ، ولكن جاء مستر « جونستون » بنفسه وقال لي - « لقد شعرت بكثير من الحجل اذ طلبت منك أن تتناول طعامك هنا . فتكلمت مع بقية النزلاء بشأنك وسألتهم ان كانوا يسمحون لك بتناول الطعام في حجرة الأكل . فأبدوا أن لا اعتراض لهم البتة على ذلك ، بيد أنهم لا يرون أي مانع من أن تظل هنا ماشئت المقام . ففضلت بالنزول الى حجرة الأكل ولك أن تظل بها كيفما شئت » .

فشكرته وذهبت الى حجرة الاكل وتناولت عشائي مغتبطا وبشبهة عظيمة

## الفصل السابع

في بريتوريا

في صبيحة اليوم الثاني ذهبت الى مكتب مستر بيكر المحامي ، وكان عبد الله شيث (صاحب الدعوى) قد زودني ببعض معلومات عنه . ولذا لم يدهشني انه استقبلني بأنس وبشاشة ، وأخذ يسألني عن بعض الأشياء . ثم قال لي - « ليس عندنا من عمل تشغله كمحام لأننا بالفعل قد لجأنا الى أكبر ذوى الرأى والقضية كثيرة الشعب والتفاريع ، بيد انها معقدة . وغاية ما أستطيع أن أتفجع بك فيه هو أن تساعدني بامدادى بالمعلومات الضرورية . وفي مستطاعك أن تجعل علاقتى بموكلى أكثر سهولة ، وستكون أنت المسلك الوحيد الذى به أتمكن من التزود بالمعلومات منه . وهذا على ما أعتقد أمر ذو قيمة . وانك لو اجد كراهية الجنس واللون قد بلغت حداً نحيفاً في هذه البلاد ، وليس من السهل أن تجد محلاً تقيم فيه باطمئنان . ولكن أعرف امرأة فقيرة هى زوجة رجل تاجر رقيق الحال . وغالب ظنى انها تقبل أن تعيش معها وبذلك يمكن أن يزيد دخلها »

فأخذنى الى منزلها وكلمها فى خلوة بشأنى وقبلت أن أبقى معها تلقاء خمسة وثلاثين شلناً فى الأسبوع نوماً وطعاماً .

أمامستر بيكر فكان من كبار المبشرين بالدين النصراني ، وأكثرهم حماسة . ولا يزال حيا الى الآن ، وقد تفرغ للرسالة التبشيرية وترك مهنته الأصلية . وهو متوسط الغنى . ولقد استمر يكاتبني ، ولكنه ظل في كل ما يكتب أميناً لمعتقده . فهو لا يزال يذكر النصرانية ونفحاتها وسمو مراميها ، ويزعم انه من المستحيل أن ينعم الانسان بالسلام الأبدي ، ما لم يعتقد ان عيسى ابن الله ، وانه مخلص النوع الانساني .

ومنذ أول مقابلة استطاع مستر « بيكر » أن يستخلص مني متجهي الديني ، فقلت له : « اني هندوكي مولداً ، ولكني لا أعرف كثيراً عن تفاصيل الدين الهندوكي ، ومعرفتي بالأديان الأخرى أقل من معرفتي بديني الأصلي ، وفي الحقيقة لا أستطيع أن أحدد بالضبط موقفي من الأمور الدينية ، أو أن أحقق ماهو ، أو ما يجب أن يكون معتقدي . واني لأميل أن أدرس ديني الأصل بعناية ، وأن أكب على درس الأديان الأخرى ، على قدر ما تسمح ظروفى » .

فاغتبط مستر بيكر إذ سمع مني هذا الكلام وقال : « اني أحد مديري بعثة التبشير العامة في جنوبي افريقية ، وشيدت كنيسة خاصة بمالي لألقى بها مواعظ دينية بانتظام . ولست من أولئك المصايين بمرض الجنس أو اللون . ولى أصدقاء يرون رأيي هذا ، فنجتمع كل يوم حوالى الساعة الأولى بعد الظهر ونكب على صلاة حارة ندعو الله فيها أن يمنحنا



السلام والنور ، واني لأسر أن توافينا الى هناك لأقدمك الى أترابي ،  
الذين سوف يغتبطون بمرآك ، ولا أحجم عن أن أقول انك سوف تسر  
بصحبتهم . وكذلك أريد أن أزودك ببعض الكتب الدينية لتقرأها ،  
ولو أنك يجب أن تعرف أن أبا الكتب كلها هو الانجيل المقدس ، وهو  
الذي اخصك بالنصيحة في أن تجعله سميرك »

فشكرت مستر بيكر ووعده بآني سوف أشهد صلاة الساعة الأولى  
بعد الظهر بانتظام على قدر ما أستطيع فقال : « اذن سأنتظرك غداً  
حوالى الساعة الأولى لنذهب معا ونصلى » ثم افترقنا بعد التحية  
الواجبة .

ولم يكن لدى من الوقت ما يكفي للتفكير والتأمل ، فذهبت تواء الى  
الحان الذى كنت أنزل فيه ودفعت حسابى وانتقلت الى مأوى الجديد  
حيث تناولت وجبة الظهر ، وكانت سيدة المنزل من الطيبات ، فأعدت  
لى غداء نباتيا . غير انه مضى زمن قبل أن أعود على المعيشة مع الأسرة  
وأشعر انى فى منزلى . وبعد ذلك ذهبت لألاقى ذلك الصديق الذى  
زودنى « دادا عبد الله » بتوصية له . فعلمت منه أكثر مما كنت أعلم  
عن المتاعب التى يعانيتها الهنود فى جنوبى افريقية ، وأظهر لى تصميمه  
على أن أعيش معه فشكرته وعرفته انى أفضل ترتيب حياتى على وجه  
يقنعنى ، فاكتمى بأن يسألنى أن لا أحجم عن أن أجاأ اليه فى كل شىء  
احتاج اليه .

وخيم الظلام ، فعدت الى المنزل وتناولت عشائي ثم ذهبت الى حجرتي واستلقيت مغموراً في لجة عميقة من الأفكار ، ولم يكن لدى من عمل يشغلني في ذلك الوقت ، ولكن الذي أثار دهشتي انحصر في ذلك الاهتمام الذي وجهه الى مستر بيكر . وأخذت أفكر فيما يمكن أن تكون الفائدة التي أجنبيها من العمل مع زملاء انحصر كل همهم في الدين ؟ والى أي حد يجوز لي أن أذهب في درس النصرانية ؟ وكيف أستطيع أن أفهم النصرانية من غير أن أدرس ديانتى الهندوكية درساً عميقاً مستفيضاً ؟ ولقد خلصت من هذه التأملات بنتيجة واحدة محصلها أن أكب خالي الفكر والغرض على درس كل ما يقع لي وأن أتصرف مع مستر بيكر وجماعته كما يريد الله أن يهديني ، على أن لا أتطوح الى التفكير في اعتناق دين آخر قبل أن أعرف ما هو ديني الأصيل . وما وصل بي الفكر الى هذا الحد حتى أغفيت وأخذتني سنات نوم هادئة طويلة .

وفي اليوم التالي حوالي الساعة الأولى بعد الظهر ذهبت الى ملتحق العبادة الذي أقامه مستر بيكر فقدمني الى مس هاريس ومس جاب ومستر كوتس وغيرهم . وقد ركع الجميع يصلون فركت مثلهم . وكانت الصلاة مجرد ابتهاج الى الله في طلب أشياء كثيرة ، كل منهم على حسب حاجته ؛ ولكن التوسل الدائم كان في سبيل الدعاء بأن يمر اليوم في سلام وأن يأمر القادر الأحد بأن تفتح أبواب القلب . ولكن أضيف الى ذلك دعاء توجهوا به نحوهم بقولهم — « يارب أنر الطريق لأخينا الجديد

الذى هبط جمعيتنا ، وأنعم عليه يارب بما أنعمت به علينا من طمأنينة، وخلصه بحق سيدنا عيسى كما خلصتنا . أجب دعاءنا بحق عيسى عليك « ولم يكن في هذه الاجتماعات تراويل أو موسيقى وكنا نفرق كل يوم عقب الابتهاج بطلب شيء خاص ، كل منا إلى بيته لتناول الطعام . ولم تكن الصلاة تستغرق أكثر من خمس دقائق .

أما مس هاريس ومس جاب فكانتا آنستين حطمتا الشباب ودلفتا إلى الكهولة . وكانتا تعيشان معاً . فسينتالي موعداً الساعة الرابعة بعد ظهر كل أحد لا تناول معهما الشاي في بيتهما فاذا اجتمعنا في ذلك الموعد ، أعطيت لستر كوتس يومياتي الدينية التي تعودت أن أدونها خلال الأسبوع وأتناقش معه في الكتب التي كنت أقرأها والآثار التي تخلفها مطبوعة في نفسى . وكانت الآنستان تقصان علينا تجاربيهما اللذيذة وتصوران الطمأنينة والسلام اللذين تحسان بهما في نفسيهما . أمامستر كوتس فكان شاباً مخلص السريرة صريحاً . وكنا نخرج للنزهة ماشيين ، فكان لا يترك فرصة تمر دون أن يقدمنى إلى غيره من الرجال المشتغلين بنشر النصرانية . فلما زادت ألفتنا أخذ يعطينى كتباً يختارها لى بنفسه ، حتى أصبح عندى مجموعة كبيرة منها . وبقدر كاف من الايمان الثابت أكتب على قراءة هذه الكتب ، ولكن لم أترك أمراً فيها من غير أن أقتله بحثاً ومناقشة .

وبقدر ما أهدى إلى من كتب ، قدمنى لأصدقاء من مخلصي النصارى .

وكان من بين هؤلاء أسرة تنتمي إلى جمعية تدعى «إخوان بليموث» . غير  
أنى لا أنكر أن أكثر الذين قدمنى إليهم مستر كوتس كانوا اختياراً  
طيبين . وأبين ماظهر لى من اخلاقهم انهم كانوا يخافون الله . ولكن  
حدث ذات يوم أن جابهنى أحد أعضاء « إخوان بليموث » بسؤال لم  
اكن على استعداد لأن اجيب عليه . قال

«انك لاتستطيع أن تدرك ما فى ديننا من جمال . ويظهر من كل  
أقوالك أنك تعكف دائماً على التأمل والتفكير فى خطايانا كل لحظة من  
لحظات حياتك ، محاولاً أن تصلح من أمورنا وان تعوضنا عنها كفارة  
واستغفاراً . فكيف تتصور ان دورانك حول هذه الدائرة التى لاتنتهى  
يمكن أن يجهوك الخلاص الاخرى . انك لن يطمئن لك قلب أو يحل  
بصدرك السلام . انك تسلم باننا جميعاً واقعون فى الخطيئة . ولذا يجب  
أن تعرف مدى ما يصل اليه معتقدنا من الكمال . فان الغرض الذى  
تحاول الوصول اليه من طريق التفكير فى ذنوبنا ، انما هو طمع فيما  
لامطمع فيه ، ولكننا رغم هذا نتطلع الى الخلاص الاخرى والفداء  
التام . وكيف نستطيع أن نحتمل عبء الخطيئة ؟ اننا لانستطيع أن نلقيه  
على كاهل عيسى . فانه وحده ابن الله المحرر عن المعاصى والخطيئات . هو  
القائل بأن أولئك الذين يؤمنون به دون غيرهم هم الذين سوف يفوزون  
بالخلود الأبدى ، وفى هذا سر الرحمة الالهية غير المتناهية . ولما كان إيماننا  
بأننا

(م - ٨)



بعيسى كاملا وثقتنا بغفرانه تامه ، اعتقد بجانب هذا ان خطايانا لن  
تقيد ضمائرنا . اننا يجب ان نعصى وان نخطىء . لأن من المستحيل أن  
يعيش الانسان في هذه الدنيا منزها عن الخطيئة . ومن أجل هذا تعذب  
عيسى وكفر عن كل خطايا النوع الانساني . والذي يقبل فداء عيسى  
ويعتقد به ، هو دون غيره الذي يحظى بالسلام الأبدى . فانظر الآن  
وقس الفارق بين القلق الذي تحسه في حياتك ، وبين السلام والطمانينة  
التي نلاحظها في حياتنا »

غير أن هذا التدليل سقطت عندي حجته سقوطا كاملا ، فأجبتة في  
خضوع « إذا كان هذا هو النصرانية ، فانه يستحيل على أن أقبلها .  
إننى لا أبحث عن الخلاص والفداء عن كل ما يترتب على خطايى ، انى  
أبحث كيف أتخلص من الخطيئة ذاتها ، بل من مجرد التفكير فى أن  
أخطىء . وحتى أبلغ هذا الغرض ، سأظل مغتبطا بأن أكون حائراً  
قلقا » . فرد على محدثى قائلاً « إنى أوكد لك أن محاولتك باثرة . وأرجو  
أن تعاود التفكير فيما قلت لك » . ولقد برهن محدثى على أنه يعنى مايقول ،  
فانه كان يرتكب الخطايا عمداً وباختياره ، وقال لى مرة ان ارتكابه هذه  
الخطايا لا يهمه ولا يحزنه ولا يقلق باله .

ولكنى كنت علمت قبل أن تكون لى أية علاقة بهؤلاء الصحاب ،  
ان ليس النصرارى جميعاً من المؤمنين بهذه النظرية فى الخلاص الأخرى .  
فان مستر كوتس كان يخاف الله ويخشاه . وكان صافى القلب ، يعتقد

بحرارة في احتمال أن يصل الانسان الى براءة النفس . أما الآنستان فكانتا من مذهبه . ولقد زاد اقتناعي بهذا منذ وجدت أن بعض الكتب التي أهداها الى كانت تفيض اخلاصاً وتعبداً . فكنت تجد أن مستر كوتس قد اضطرب وقلق من جراء ما حدث معي ، غير أنني استطعت أن أحقق لديه أن معتقداً فائلاً يستقر في نفس أحد « اخوان بليموث » لن يغير من رأبي في حقيقة النصرانية ، وأن الصعاب التي تواجهني إنما تقع في نواح أخرى غير هذه . وأبنت له من بعد أن هذه الصعاب تحوم حول الأناجيل والتفاسير المقبولة فيها .

وقبل أن أسوق الكلام في علاقات أخرى مع النصارى ، يجب على أن أمضي في سرد تجارب وقعت لي في ذلك الحين . فقد كان لتاجر يدعى « شيث طيب حاجي خان محمد » في « بريوريا » نفس المركز الذي يشغله « دادا عبد الله » في ناتال . ولم يكن من المستطاع أن تقوم حركة عامة من غير أن يكون هو المحرك لها . فتعرفت به في أول أسبوع هبطت فيه بريوريا وأطلعت على رغبتى في أن أتعرف الى كل هندي مقيم فيها . وأول خطوة خطوتها أنى دعوت الى اجتماع شهده تجار « الميان » كما شهده قليل من الهنوكيين ، لأن الهنوكيين في بريوريا قليلو العدد .

وألقيت في هذا الاجتماع خطبة هي أول خطبة عامة ألقيتها في حياتي . ولقد أحطت بالموضوع بعد تحضيره وانحصر كلامي فيه على الحض على

الأمانة في العمل والتعامل . فقد سمعت من كثير من التجار أن الصدق غير مستطاع في العمل التجاري . فيقولون ان العمل التجاري أمر دنيوي صرف ، والصدق مبدأ ديني . ومعتقدهم أن العمل شيء والدين شيء آخر . فهاجمت هذا المعتقد في خطبتي وسفهته ، ودعوت التجار الى ايقاظ روح الواجب في نفوسهم .

ووجدت عادات الهنود في جنوبي افريقية بعيدة عن أن تتفق مع القواعد الصحية مقيسة بعادات الانجليز الذين يعيشونهم ، فلفت أنظارهم الى هذا الأمر الهام . ثم أهبت بهم أن يتناسوا الخلافات الدينية والطائفية ، وأبنت لهم عن الضرورة التي تدعو الى ذلك . وفي النهاية اقترحت تأسيس جمعية يمكن أن تتصل بالسلطات الحكومية المختصة للنظر في المصاعب التي تعترض حياة الجالية الهندية في جنوبي افريقية ، وتعهدت بأن أبذل في سبيل هذه الجمعية من الوقت والخدمات كل مستطاع .

ولقد اغتبطت بنتيجة الاجتماع وقر القرار على أن يعقد اجتماع كل أسبوع على ما أذكر . فكانت تعقد الاجتماعات بانتظام حيناً وبغير انتظام حيناً آخر ، فتناول الرأي وتناقش . فتعرفت بكل الهنود المقيمين في بريتوريا ، وأحطت بكل أحوالهم خيراً . ثم حولت نظري الى القومسير الانجليزي في بريتوريا مستر « جكوبس ده وت » وحاولت أن أتعرف اليه . وكان هذا الرجل يعطف على الهنود ، ولكنه

كان ضعيف النفوذ . غير أنه على كل حال وعد بأن يساعدنا على قدر ما يستطيع ، ودعاني إلى لقياء كلما أردت أو مست الحاجة الى ذلك . ثم اتصلت بعد ذلك بإدارة سكة الحديد وأخبرت المشرفين عليها أنه حتى لدى الخضوع للوائحها ونظاماتها ، فإن الصعاب التي يعانيها الهنود لدى السفر على خطوطها لا يمكن أن يكون لها أي مبرر . فحصلت على رد مفاده أن تذاكر الدرجتين الثانية والثالثة يمكن أن تصرف للهنود الذين يكونون في هندام لائق . غير أن هذا الرد كان بعيداً عن أن يرضيني لأن الحكم على حسن الهندام أمر متروك لاختيار ناظر المحطة . وكان القومسير البريطاني قد أطلعني على بعض الأوراق المتعلقة بأحوال الهنود ، كما سلمني « طيب شيث » أوراقاً أخرى تماثلها . فعرفت منها مقدار القسوة التي عومل بها الهنود لدى طردهم من أرض حكومة « الأورانج الحرة » فكان مقامي في بريتوريا سبباً في أن أدرس أحوال الهنود المقيمين في ناتال وفي حكومة الأورانج الحرة ، ولم أكن أتوقع أن دراستي لأحوالهم سوف تكون ذات قيمة لا تقدر في المستقبل ، لأنني كنت أفكر في العودة الى وطني في نهاية العام ، ان لم يكن قبل ذلك ، اذا انتهت القضية التي دعيت من أجلها . ولكن الله أراد لي غير ما كنت أتوقع .

ولقد كان مقامي في بريتوريا سنة كاملة أعظم تجربة وقعت لي في حياتي . فهناك أتاحت لي الفرص لأعرف شيئاً من سر الأعمال العامة،



وعرفت إلى أية درجة يمكن أن تنتهي كفايتي في مزاولتها . وهناك بدأ الروح الديني يكون قوة حية تحرك نفسى ومشاعرى ، واستطعت أن أحصل على مرانة كافية في الاجراءات القضائية، فعرفت كل الأشياء التى يمكن لمحام مبتدىء أن يدرسها في مكتب محام قديم ، واقتنعت بأنى لن أسقط فى الحياة إذا امتنعت المحاماة ، بعد أن درست سر المهنة وأحطت بالوسائل التى لا مندوحة عنها للنجاح لمحام مثلى .

ولم تكن قضية دادا عبد الله من القضايا الصغيرة . فقد كانت قيمتها تقدر بأربعين ألفاً من الجنيهات الانجليزية ، وكان سببها عقوداً تجارية ، فكثر شعابها وتعددت نواحيها الفنية والحسابية . كما كان جزء منها يقوم أصلاً على وثائق تعهدية ، وجزء على وعد برسال ووثائق أخرى مثلها . وكان وجه الدفاع الذى يستمسك به خصومه قائماً على الدعوى بأن هذه الوثائق قد أخذت بطريق الغش والخداع . فأخذت أدرس القضية أعمق درس ، وصرفت فيها من العناية جهد مستطاعى . وكان موكلى رجلاً فائق القدرة ، ووضع فى كل ثقته ، فسهل ذلك على مأموريتى . ولاحظت أن قدرتى على الترجمة قد تضاعفت من اكبابى على ترجمة الرسائل ، وكان أكثرها فى اللغة الكجراتية . غير انه على الرغم من اهتمامى بالوسائل الدينية والمسائل العامة معاً ، كنت لا اضحى فى سبيلها الا بجزء من وقتى ، اذ لم تكن فى ذلك الحين من أوليات المسائل التى اهتم بها . لأن تحضير الدعوى استغرق كل همى . وقد

استغرق الجزء الأعظم من وقتي اكبابي على مراجعة القوانين والاطلاع على القضايا التي تعتبر الأحكام الصادرة فيها ذات مساس بالدعوى . فكانت النتيجة اني أملت بحقائق القضية المما أرجح انه لم يفز به طرفاً الخصوم ، لأن أوراق كل منهما كانت في حيازتي وتحت تصرفي . وهنا تذكرت نصيحة مستر «بنكث» اذ قال لي وأنا في لندن مرة ان الحقائق يتكون منها ثلاثة ارباع الهيكل الذي تقوم عليه الدعوى . ولقد طبق هذه القاعدة فيما بعد محام شهير من محامي جنوبي افريقية هو المرحوم مستر «ليونارد» . ففي احدي القضايا التي كانت تحت اشرافي ، رأيت ان الحق وان كان في جانب موكلتي ، فان القانون حسب ظاهره كان ضده . فلما يئست من الدعوى ذهبت الى مستر «ليونارد» لاستشيريه . فوافق علي أن حقائق الدعوى قوية، ولكنه قال لي: «مستر غاندي . لقد تعلمت شيئاً واحداً وهو اننا اذا عيننا بالحقائق فان القانون يعني بنفسه . فالواجب اذن ان تتعمق في درس حقائق هذه الدعوى الى غور اعماق» . - وأوصاني بأن اكب على درس الدعوى درساً أوفياً ، ثم أعود اليه مرة أخرى . فلما مضيت في درس حقائق الدعوى تبينت فيها نواحي كانت غامضة ، وعثرت على دعوى مشابهة لها كانت موضوع مناقشة في محاكم جنوبي افريقية . فسرت بهذه النتيجة وذهبت الى مستر «ليونارد» وأطلعته على كل شيء . فقال «حسناً سترجح الدعوى . ولكن يجب ان نجعل للقاضي الذي سوف يدرسها ، تقديراً في أذهاننا» .

لما كنت احضر قضية « دادا عبد الله » لم اكن قد ادركت بعد ما للحقائق من قيمة وأثر في الدعاوى القضائية. فالحقائق معناها « الحق » واذنا لجأنا إلى الحق فان القانون يكون في عوننا بطبيعة الحال، ومن غير احتياج إلى جهد. وقد رأيت أن الحقائق في قضية « دادا عبد الله » قوية كل القوة فأكسبت الدعوى مركزاً ممتازاً ، وان القانون لا بد من أن يؤيده ويكون في جانبه . ولكني رأيت بجانب هذا ان الخصومة اذا اصر عليها الطرفان سوف تحطم المدعى والمدعى عليه معاً ، فوق انهما كانا من ذوى القربى ومن قطان مدينة واحدة . ولم يكن يعرف أحد الى أى زمن سوف تستمر الخصومة - فاذا تركت للمحاكم فرجما استمرت الى غير نهاية، وبغير أن يكون منها أية فائدة لأحدهما، ولذا رغب كلاهما في فض النزاع وشطب الدعوى اذا كان ذلك مستطاعا .

فقابلت « طيب شيث » ونصحته بأن يخضع للتحكيم . ورجبت اليه في أن يقابل مستشاريه وخلصاءه وأشرت اليه بأنه اذا كان من المستطاع تعيين حكم يحوز ثقة الطرفين ، فان الخصومة تنتهي في أقرب وقت . وكانت أتعاب المحامين آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم ، حتى وصلت حداً كادت تستغرق فيه كل مالهيهما من الموارد ، على الرغم من أنهما كانا من كبار التجار كما قلت من قبل . كما أن الدعوى استفرغت كل جهدها واستحوذت على نشاطهما حتى كان يتعذر على أحدهما أن يجد وقتاً يصرفه في أى عمل آخر . وكنت ألاحظ أن سوء النية أخذ

يستفحل بينهما . وكان كلاهما يندل أقصى جهده ليصل الى النتيجة التي  
يرغب فيها . وأخيراً وافق « طيب شيث » على اقتراحى ، وعين  
الحكم وعرضت عليه الدعوى بخدافيرها وربحها عبد الله .  
غير أن هذا لم يرضنى ، فان موكلى اذا أراد أن ينفذ الحكم تواء ، فان  
« طيب شيث » سوف يعجز عن القيام بأداء ما يطلب « دادا عبد الله » .  
وهناك عادة اكتسبت قوة الشريعة وان كانت غير مكتوبة ، يفضل  
معها رجال « الميان » من أهل « پورباندر » الموت على الافلاس .  
وكان يتعذر على « طيب شيث » أن يدفع مبلغاً يوازى سبعة وثلاثين  
ألفاً من الجنيهات ونفقات الدعوى . وكان مصمماً على أن يدفع المبلغ كله  
غير منقوص درهماً واحداً ، كما كان يفرع من اعلان افلاسه . فلم يكن  
لدينا الا طريق واحد ، هو أن يقبل دادا عبد الله أن يحصل على المبلغ  
أقساطاً معتدلة . وكان عبد الله رجلاً كريم الأخلاق واسع الثروة ، فقبل  
أن يحصل على حقه دفعا موزعة على عدد طويل من السنين . ولم تكن مهمتى  
في تسوية الدفع على أقساط بأقل مشقة من سعى في سبيل التحكيم .  
غير أنهما اغتبطا بالنتيجة ، كما رفع تسامحهما من مقامهما فى أعين الناس .  
أما فرحى فكان عظيماً ، فقد فقهت مسائل القانون العملية ، وأعنى بها  
أن أستحوذ على الناحية الشريفة من الطبيعة الانسانية ، وأن أفتح  
قلوب الناس للخير . وعرفت أن مهنة المحامى الحقيقية تنحصر فى  
التقريب بين الأطراف التى فصلتها المصالح والمطامع . ولقد كان لهذا



الدرس العملي أثر في نفسي حتى اني في خلال العشرين عاماً التي قضيتها محامياً ، عملت على اتمام الصلح بين المتخاصمين في مئات من القضايا التي عرضت علي لأبشرها . ولم أخسر شيئاً من جراء مبدئي هذا . لم أفقد شيئاً من المال ، بله نفسي وروحي .

...

في ذلك الوقت الذي قضيته في « بريتوريا » كنت غالباً ما أرافق مستر كوتس في زهات ليلية ، وكنا قلما نرجع الى المنزل قبل الساعة العاشرة . ولكن كان هنالك قانون تتناول أحكامه « ذوى الألوان » المقيمين في الترنسفال، وكان يحظر على الهنود المشي على الأرصفة أو البقاء خارج المنازل إلى ما بعد الساعة التاسعة مساءً من غير اجازة خاصة . فماذا سوف يحدث لو أن البوليس اعتقلني ؟ وكان اهتمام مستر كوتس بالأمر أكثر من اهتمامي به . وكان من عادته أن يحصل على اجازات لخدمه السود . ولكن كيف يستطيع أن يعطيني احدى هذه الاجازات ؟ وللسيد وحده حق الحصول على اجازة لخدمه . فاذا طلب اجازة ، أو فرض وكان مستر كوتس مستعداً لأن يزودني بواحدة منها ، فانه يكون في خطر من أن يستكشف الأمر ويتهم بالغش والخداع .

لهذا صحبتني مستر كوتس أوأحد أصدقائه ، ولست أذكر من صحبتني منهما بالضبط ، الى أفوكاتو الحكومة دكتور « كروز » وظهر أننا من خريجي مدرسة واحدة . فلما علم بأني أريد الحصول على اجازة تبيح لي

البقاء خارج المنزل الى ما بعد الساعة التاسعة ، أبدى أسفه وتأثر كل  
التأثر ، وعطف على كل العطف . ولم يكتف بأن يزودنى بالاجازة ، بل  
أعطانى خطاباً يبيح لى البقاء خارج المنزل فى أى وقت أشياء من غير أن  
يتدخل البوليس فى أمرى . ولذا كنت أصحب هذا الخطاب كلما برحت  
المنزل . أما أنى لم أحتج إلى إبرازه فى حادث من الحوادث ، فكان مجرد  
مصادفة لم تتكرر مع غيرى .

أما النتائج التى كانت تترتب على نظام المشى على الأرصفة ، فكانت  
معضلة . فقد تعودت أن أخترق شارع « پرزدنت » إلى سهل فسيح  
يقع لدى نهايته . وكان بيت الرئيس « كروجر » فى ذلك الشارع ،  
وهو عبارة عن بناء يستوفى كمال الذوق غير ذى اتساع وليس له حديقة ،  
ولا يمكن بحال تمييزه عن بقية المنازل القائمة حفاى الشارع . وكانت  
منازل بعض الأغنياء فى بريتوريا أكثر فخامة من منزل الرئيس كروجر  
وكلها محاطة بمحاذق غناء . والحقيقة ان ما اتصف به الرئيس كروجر  
من البساطة كان مضرب الأمثال . ولولا رجل البوليس الواقف أمام  
الباب ، لما استطعت أن تعرف أن المنزل مملوك لأحد كبار موظفى الحكومة .  
وكنت أمر على الرصيف وأتجاوز الشرطى كل يوم من غير أن يعترضنى  
أحد أو يقع لى حادث .

وكانت العادة أن يبدل رجل البوليس الواقف لدى الباب من آن لآخر .  
فحدث مرة أن أحدهم ، ومن غير أن يأمرنى بترك الرصيف ( المشى )

دفعني بكل قوته وركلني برجله إلى وسط الشارع . والحق أني فزعت ،  
وقبل أن يكون لدى من الوقت ما يسمح لي بأن أسأله عن سبب فعلته ،  
ناداني مستر كوتس ، وقد اتفق ان كان ماراً بنفس المكان على ظهر  
جواده قائلاً :

« غاندى - لقد رأيت كل شيء . واني أسر أن أكون شاهدك اذا  
أردت أن تقاضى هذا الرجل : واني لحزين لأنك هوجمت بشراسة وقلة  
أدب » فقلت له

« ليس بك من حاجة لأن تحزن . ماذا يمكن أن يعرف هذا الرجل  
المسكين فان كل « ذوى الألوان » لديه سواء في هذه البلاد . والقاعدة  
التي وضعتها لسلوكي تقضى بأن لا أُلجأ الى القضاء اذا نالنى أى أذى  
يتناول شخصى ، فليس اذن فى نيتى أن أقاضيه » فقال لى

- « انك لجدير بذلك . ولكن فكر فى الأمر مرة أخرى . فان

الواجب أن نعطى مثل هذا الشخص درساً ينفعه »

ثم تكلم مع الشرطى وعنفه . ولم أستطع أن أعى ما قالاً لأنهما كانا  
يتكلمان باللغة الدائركية ، لأن الرجل كان من البوير ، ولكنه اعتذر  
إلى ، من غير أن تكون بي حاجة الى الاعتذار . لأنى كنت سامحته  
بالفعل .

غير أنى لم أخترق هذا الشارع مرة أخرى : فقد يتفق أن يأتى غيره  
ممن هم جاهلون بحادثتى معه ، وقد يعاملونى بمثل ما عاملنى . ولماذا

أحمل جسمي ركلة ثانية من غير ضرورة ؟ لهذا أخذت طريقاً آخر  
لنزهي .

بيد أن هذه الحادثة لم تذهب من غير أن تترك في نفسي أثراً عميقاً  
جعلني أرثي لحال الجالية الهندية، فأخذت أناقشهم في أن تقوم بتجربة ،  
إذا كان من الضروري أن نلجأ الى ذلك ، بعد أن أقابل القومسير  
الانجليزي وأكلمه في أمر هذه الانظمة الجائرة .

فأكبت على درس الحالة السيئة التي وصلت اليها الجالية الهندية ،  
ولجأت الى التجارب الشخصية ، فضلاً عن قراءة كل ما كتب فيها  
وسماع كل ما يمكن أن يستمع منها . وسرعان ما اتضح لي أن جنوبي  
افريقية ليست بالمكان الذي يستطيع هندي يحترم نفسه أن يقيم فيه ،  
وأخذ عقلي يشتغل ليل نهار في التفكير فيما يمكن أن تكون الطريقة  
التي يلجأ اليها لمعالجة هذه الحالة وتحسينها

وظفق مستر « باكر » يشفق على مستقبل فاصطحبني إلى جمعية تدعى  
« جمعية ولنجتون » وكان من عادة البروتستانت من النصارى أن  
يعقدوا مثل هذه الاجتماعات كل عدد من السنين ليزدادوا بالدين نوراً ،  
وبالايمان صفاء . وقد ندعو عملهم هذا « بالاحياء الديني » . وكانت  
جمعية ولنجتون من هذا الطراز ، ويرأسها رجل ديني معروف هو المحترم  
« اندرو موراي » . وقد تخيل مستر باكر أن عبير السمو الديني وحماسة  
أعضاء الجمعية وتفانيهم في الدين قد يحملني على أن أعتنق النصرانية .



غير أن ملجأه الأخير كان ينحصر في الصلاة والأدعية . لأن ثقته  
بالصلاة كانت لا تنتهي عند حد . بل كان يعتقد أن الله لن يخيب سؤال  
إنسان يصلي إليه ويدعوه بحرارة الإيمان . وكان يستشهد على ذلك  
بتصرف رجال من أمثال جورج موللرفي بريستول ، وكان يتوسل  
بالصلاة الحارة حتى في سبيل قضاء مصالحه الدنيوية . فكنت أستمع  
إلى كلامه في تأثير الصلوات من غير كثير انتباه ، وجعلته يعتقد أن  
ما من شيء يمنعني عن اعتناق النصرانية إذا أنا استمعت الدعوة إليها .  
ولم أتردد في أن أعده بهذا الوعد لأنني كنت قد وطنت نفسي على أن  
أستجيب دائماً لداعى الصوت الخفى الخارج من أعماق وجداني . ولذا  
اعتبطت لأنني ألقيت بنفسى في حماه . أما أن أعمل على غير ما يدعوني  
إليه ، فإن ذلك يكون من آلم الأشياء إلى نفسى .

وذهبنا إلى مدينة ولنجتون ، ولقد لاقى مستر باكر بعض الصعاب  
لأنه يصطحب رجلاً مثلي من ذوى الألوان . وكان قد قاسى الأمرين  
مراراً عديدة من قبل بسببى واضطررنا أن نقف السفر يوماً بأ كمله ،  
لأن يوم الأحد أدر كنا خلال سفرتنا ، ومن عادة مستر كوتس وصحبه  
أن لا يكسروا السبت . وبعد أخذ ورد طويلين قبل مدير فندق المحطة  
أن يقبلنى كنزيل ، ولكنه لم يسمح لى مطلقاً بأن أذهب إلى حجرة  
الطعام . وكان مستر « باكر » ممن لا ينهزمون بسهولة . فاستمسك  
بالحقوق التى يجب أن يتمتع بها نزلاء الفنادق . ولكن أدركت الصعوبة

التي تعرضه . وكذلك كان الأمر في ولنجتون . فاني نزلت حيث نزل  
مستر باكر . وفضلا عن أنه كان يحاول أن يخفي عنى المتاعب التي سببتها  
له ، كنت أقف على الكثير منها ، على غير إرادة منه في أن أعرفها .  
وكان مقر هذه الجمعية عبارة عن حجرة يلتئم فيها عدد من غلاة  
النصارى . فأسرني ما رأيت فيهم من حرارة الايمان . وقابلت هنالك  
مستر «اندرو موراي» وأدركت أن كثيرا منهم كانوا يصلون من أجلى ،  
وأحببت الاستماع إلى بعض ترانيلهم ، فقد كان فيها حلاوة ورنة جميلة .  
واستمر الاجتماع ثلاثة أيام . واطلعت على مقدار ما بلغ الايمان بأفراد  
الجمهرة ، ولكنى لم أر سببا يحملنى على أن أتبدل بمعتقدى معتقداً آخر .  
وتعذر على أن أعتقد أن من الممكن أن أصدع إلى السماء أو أن أمنح  
الخلاص بمجرد أن أصبح نصرانياً . ولما أطلعت بعض أصدقائى من  
الأعضاء على فكرى ، أسفوا وكانهم صدموا وصدوا دون البلوغ الى  
أمنية عزيزة لديهم . ولكن لم يكن فى مستطاعى أن أفعل غير هذا ،  
فان المشكلات التي اعترضتنى كانت قد حلت فى مكان من نفسى أبعد  
من هذا غوراً . رأيت بعيداً على عقلى أن يعتقد أن عيسى وحده دون  
غيره كان ابن الله المتجسد ، وأنه لا خلود الا لمن يعتقد فى صحة رسالته  
واذا كان من الممكن أن يكون لله أولاد ، فكنا أولاده . واذا كان  
عيسى مثل الله أو أنه الله بنفسه ، اذن فكل الناس يكونون كمثل الله  
أو يكونون الله بنفسه . ولم يتسع عقلى لاعتقاد أن عيسى بميتته وبدمه

قد فدى الإنسانية وطهرها من خطاياها . على أنه قد يكون في ذلك شيء  
لمن الحق ، ولكن مجازاً . ثم لم يغب عنى أنه على المعتقد النصراني ،  
ليس من شيء في الدنيا له روح إلا الانسان ، وليس كذلك بقية  
المخلوقات ، التي يعتبر موتها فناء تاماً . وكنت أعتقد ما يخالف ذلك . ويمكنني  
أن أعتبر عيسى شهيداً ، وأنه رمز التضحية الجسد ومعلم روحاني إلهي .  
ولكنه ليس أكمل انسان أخرجته البطون الى ظاهر الأرض . أما موته  
فوق الصليب فأروع مثال يمكن أن يقدم للإنسانية . ولكن القول بأن  
صلبه قد تضمن أسراراً ومعجزات ، فذلك ما لم يكن في مستطاعى الايمان  
به أو تصديقه . وكذلك لم تزودنى حياة المؤمنين من النصارى بما لم  
تزودنى به حياة غيرهم من المؤمنين بأديان أخرى . ورأيت في حياة غير  
النصارى من صالح العمل والتفانى في الاصلاح ، مثل ما رأيت في  
النصارى تماماً . أما من الناحية الفلسفية فلم أدرك شيئاً خارقاً للعادة  
في المبادئ النصرانية ، فمن ناحية التضحية أرى أن الهنود يفوقون  
النصارى بمراحل واسعة . ولهذا تعذر على أن أعترف بأن النصرانية  
دين كامل ، أو أنها أكمل الأديان .

ولقد أفضيت بفكرتى هذه لكثير من أصدقائى النصارى ، ولكن  
أجوبتهم لم تكف لإقناعى ، وبقيت كما أنا . فلم أستطع أن أقبل مبدأ  
أن النصرانية كاملة ، ولا أنها أعظم الأديان . وكذلك كان معتدى في  
الدين الهندوكى حينذاك . فان النقائص التي تعتور الدين الهندوكى

كانت مكشوفة لى . وأخص ما كان يتور ذهنى فى ذلك الوقت مبدأ  
معاملة « الأنجاس » . أما اعتبار هذا المبدأ جزءاً مكوناً فى الدين  
الهندوكى ، فاعتقدت دائماً أنه بدعة دخلت على الدين ، لا مبدأ أصيلاً  
فيه . ولم أستطع أن أفقه معنى لتعدد الطوائف والمذاهب أو ما المعنى فى  
قول الذين يقولون بأن أسفار « الفيدا » هى كلمات الله المنزلة . فإذا كانت  
هذه الأسفار منزلة ، فلماذا لا تكون الأناجيل ، ولماذا لا يكون  
القرآن ؟

وبقدر ما رغب أصدقائى من النصارى فى أن أعتنق النصرانية ،  
رغب المسلمون فى أن أعتنق الاسلام . ولقد شغلنى « عبد الله شيث »  
بدرس مبادئ الاسلام ، وكان لديه ما يقول فى وصف جماله والتغنى  
بمحاسنه .

فكتبت إلى « ريشاند باى » أفضى اليه بمشكلاتى القليلة ، كما كتبت  
إلى غيره من رؤساء الدين ، وتلقيت منهم أجوبة . ولقد غمرنى رد  
« ريشاند باى » بطمأنينة ، إذ نصحنى بأن أكون صبوراً ، وأن  
أتعلم فى درس الهندوكية . وانى أذكر جملة مما كتب إذ قال -  
« اعتقد ، من غير أن يكون اعتقادى هذا متأثراً بميولى النفسية ، ان  
ديناً آخر غير الهندوكية لا يمكن أن يحوز ما فيها من كمال الوضع أو  
عمق الفكرة أو سعة النظر فى دقائق النفس أو حب الاحسان » .



واشترت ترجمة « صال » للقرآن وأخذت في قراءتها ، كما حصلت على كتب أخرى تتعلق بالاسلام . وفضلا عن هذا اتصلت بكثير من أصدقائي النصارى في إنجلترا . فقدمنى أحدهم إلى « ادورد متلند » فشرعت أكتبه . فأرسل إلى كتاب « الطريق القويم » وهو كتاب ألفه بالاشتراك مع « أنا كنجسفورد » كما أرسل الى كتابا آخر هو « التفسير الجديد للانجيل » فاغتبطت بكليهما ، بعد أن ظهر لى أنهما يؤيدان الهندوكية . أما الكتاب الذى اختلبنى بحق فكتاب تولوستوى « مملكة الله فى نفسك » فان ما خلف هذا الكتاب فى نفسى من الأثر باق لا يزول . وأمام ما فى هذا الكتاب من استقلال الفكر وسمو الآداب والأمانة والصدق ، تضاءلت كل الكتب التى أعطانيها مستر كوتس حتى أنها لم تعد شيئا مذكورا .

وجدت نفسى فى ذلك الوقت أكثر اكبابا على خدمة مصالح الجالية الهندية ، وإن ذلك الأمر أخذ يستهوينى شيئا فشيئا .

أما الدافع الذى دفعنى على أن أحصر همى فى ذلك فكان سعى التواصل فى سبيل أن « أحقق ذاتى » واستقل بها عن كل الأشياء وعن كل الأوهام . واعتقدت أن الدين الحقيقى انما ينحصر فى « العمل » ، لأنى شعرت إذ ذاك بأن الله لا يمكن أن يتحقق فى نفسى إلا من طريق العمل . والعمل عندى قد انحصر فى خدمة « الهند » لأن الهند كانت الهدف الذى استهوانى بالفطرة ، ومن غير أن أحاول أن أخلق فى نفسى

ميلا إليه يدفعني إلى خدمة مصالحه . ولكنني لم أهبط جنوبي افريقية إلا هرباً من دسائس « كاثياوار » وفراراً من مكايدها ، وسعياً في سبيل الحصول على رزقي وقوتي . غير أنني ، كما قلت من قبل ، وجدت نفسي مغموراً في سبيل العثور على الله والعمل على « تحقيق ذاتي » والاستقلال بها عن كل ما يحيط بي في الوجود من أشياء .

ولقد عرف في أصدقائي من النصارى تعطشي إلى المعرفة ، حتى لقد بلغ بي التعطش إليها حد الرغبة الملحة . ولكنهم كانوا لا يتركونني في سلام ، ولو أظهرت لهم عدم اكتراثي واستهتاري . فلما كنت في « دوربان » استكشفتني مستر « والتون » رئيس بعثة المبشرين في جنوبي افريقية ، وربطت بيننا أواصر الصداقة حتى أصبحت كأني أحد أفراد أسرته . وكان السبب في هذه الصداقة علاقتي بعدد من النصارى في بريتوريا . وكان لمستر والتون نزعة خصيصة به ، فاني لم أتذكر أبداً أنه دعاني إلى اعتناق النصرانية . بل اكتفى بأن يشرح لي حياته ويعرضها أمامي ككتاب مفتوح لأستخلص منها ما أريد ولا أكون على علم بتفاصيلها . أما مسز والتون فكانت سيدة ذات آداب ، سامية المدارك ، واسعة العقل . ولقد اختلبنى ما في حياة هذين الزوجين من نظام واتساق . وكان كل منا يعرف تماماً ما يختلف فيه عن الآخر من وجهات النظر . وقد عجزت المناقشات الطويلة عن أن تقرب من نواحي الاختلاف ، ولكن ظهر لي أن اختلاف وجهات النظر ومناقضة الآراء يصبح ذا

قيمة كبيرة من حيث الوقوف على الحقائق ، على شرط أن يعاون الاختلاف روح التسامح والاحسان وحب الحقيقة . ولقد تملكني الإعجاب بما رأيت في مستر ومسر والتون من التواضع والصبر والاحتمال والاكباب على العمل ، فكنت آنس بصحبتهما وأسعى لأن أصرف معهما من الوقت ما أقتصد من أعمالى الأخرى .

وكان لصدائهما أثر كبير في أن أحتفظ بالاهتمام بالدين والروح الدينية حية في قرارة نفسى . ولكن لم أجد في نفسى من حب الاكباب على البحث الدينى في ذلك الوقت ما كنت أجد من قبل في بريتوريا ، غير أن ما كنت أنفق من وقت في الدرس الدينى ، وان كان ضئيلاً ، لم يكن يخلو من فائدة وريح : بيد أنى لم أقطع مراسلاتى في الابحاث الدينية ، فقد استمر « ريشاند باي » يهدىنى ويرودى بالحقائق . وأرسل لى صديق كتاب « نارمادا شنكر » المسمى « ذرمافيشان » فانتفعت بمقدمته . وكنت قد سمعت بالحياة البوهيمية التى قضاها ذلك الشاعر ، ولكن مقدمة الكتاب أوقفتنى على التطور الانقلابى العظيم الذى طرأ على حياته من درس المبادئ الدينية ، فكان لذلك أثر فى نفسى اختلبنى اختلاباً .

وأخذت أحب الكتاب . فقرأته من ألفه الى يائه بكل عناية وانتباه ، وقرأت باهتمام كتاب العلامة « مكس مولبر » وعنوانه « الهند - وما نتعلم منها » ، كما قرأت ترجمة « أسفار اليوبانشاد » التى

نشرتها الجمعية الثيوصوفية ، وكان هذا سبباً في أن أوجه عنايتي إلى الهندوكية ، وأخذ ما فيها من جمال وجلال يظهر لي جلياً واضحاً . غير أن هذه النزعة لم تولد في نفسي أثراً من التحامل على الأديان الأخرى . ثم قرأت كتاب « حياة محمد وخلفائه » تأليف « واشنجطون ارفنج » والفصل الذي كتبه كارليل في البطل في صورة نبي ، وكان هذا سبباً في أن تسمو منزلة محمد في نفسي إلى حد الاجلال العظيم والتقدير السامى . وقرأت أيضاً كتاباً عنوانه « كلمات زرادشت »

ومن هذه السبيل استطعت أن اوسع معلوماتي عن الديانات المختلفة . وقوى في هذا الدرس نزعة النظر الذاتي والعمل على أن أضع موضع التنفيذ ما يستهويني من المبادئ التي أدرسها خلال مطالعاتي . فجعلت ازاول بعض التجاريب « اليوجية » كما استطعت أن أدرك هذا المذهب في الكتب الهندية التي وقعت لي . ولكن لم استطع أن أتقدم فيها ، وصممت على أن أعاود مزاولتها بارشاد ممرن خبير عند ما أعود الى الهند . ولكن لم أشبع في نفسي هذه الرغبة حتى الآن .

وأخذت ادرس تولستوى درساً عميقاً واسعاً حتى استوعبته . فكان لكثير من كتبه آثار في نفسي لن تزول . ومن هذه الآثار اعتقاد ان الحب المتبادل بين شعوب العالم ممكن التحقيق ، وان لتحقيقه إمكانات كثيرة يمكن اللجوء اليها في سبيل جعله عاماً بين الناس أجمعين . في ذلك الوقت بدأت علاقتي بأسرة نصرانية اخرى . وتحت تأثير



هذه العلاقة أخذت أشهد اجتماعات « كنيسة ويزلى » كل أحد، وكنا ننصرف من الكنيسة الى الغداء في بيوتهم . غير ان الكنيسة لم تترك في نفسى أى أثر . ولم أكن أرى في الاجتماع من الروح الدينية شيئاً . فاني لم أشهد في المجتمعين روح التوجه الدينى والغمرة القدسية التى تشمل النفوس المتجهة الى الله . وكنت أرى في المصلين جمعاً من الناس بهظتهم المطامع الدنيوية ، وانهم لا يذهبون الى الكنيسة الا للتسلية أو بحكم العادة . فكنت اغفى في بعض الاحيان ويهوم برأسى النعاس ، فانتبه خجلاً ، ولكن كثيراً ما كنت أرى غيرى من النصارى قد اخذتهم الغفوة . فلم استطع الاستمرار طويلاً على هذه الحال ، فامتنعت عن الذهاب الى الكنيسة .

غير ان امتناعى عن الذهاب الى الكنيسة كان سبباً في أن تنقطع علاقتى توأماً بالاسرة التى كنت ازورها كل أحد . واستطيع أن اقول بأنى خذرت من أن أزورها . وإليك ما وقع . فان مضيفتى كانت سيدة طيبة السريرة صافية النفس ، ولكنها كانت ضيقة العقل ، وكنا كثيراً ما نتناول بالكلام مختلف المسائل الدينية . وكنت في ذلك الوقت اعيد قراءة كتاب «ارنولد» نور آسيا . فاخذنا مرة تقارن بين حياة عيسى وحياة بوذا ، فقلت لها مرة انظرى الى رحمة «غوتاما» . انها لم تقتصر على النوع البشرى وحده ، بل تناولت كل الاحياء . ألا ترى ان الانسان يفيض قلبه بالحب اذ يفكر فى حمل وديع مسكين يحمله فوق كتفيه ؟

وان الانسان ليعجز عن أن يجد مثل هذا الحب الشامل لكل الاحياء  
في حياة عيسى « - غير أن هذه المقارنة آلمت السيدة الطيبة القلب  
كل ألم . واستطعت ان أدرك شيئاً من مشاعرها . فكففت عن  
الكلام وذهبت الى قاعة الطعام وكان لها ابن لم يتجاوز الخامسة حضر  
مناقشتنا . ومن طبعى ان أسر بعشرة الأطفال ، وكنت وهذا الطفل  
صديقين حميمين - فأخذت أدم قطعة اللحم التي كانت في صحنه وأمدح  
التفاحة التي كانت أمامى - فتأثر الطفل وأخذ يمدح الفواكه ويدم  
اللحوم .

ولكن الأم استنكرت هذا . فحذرتنى أن أعود اليه . فغيرت  
موضوع الكلام مستقوياً على نفسى . وفي الأسبوع التالى ذهبت لزيارة  
الأسرة ولكن لحظت شيئاً جديداً من الامتعاض . غير أنى لم أفكر فى  
الانقطاع عن الزيارة . غير أن السيدة سهلت لى الطريق فقالت لى -  
« يامستر غاندى . أرجو أن لا تمتعض إذا أنا صارحتك بأن طفلى  
لا ينتفع بصداقتك . لقد أخذ يتوانى فى أكل اللحوم ويطلب الفواكه  
وذلك يذكرنى دائماً بمناقشاتك . وهذا كثير احتمال . فانه إذا امتنع عن  
أكل اللحوم يضعف ، وربما يمرض . فكيف أحتمل هذا . فأرجو  
أن تحصر مناقشاتك معنا نحن الكبار . لأنى متأكدة أن مناقشاتك  
هذه لها أثر سيء على الأطفال » . فأجبتها - « انى آسف . فانى أقدر  
شعورك كوالدة ، لأنى أيضاً لى أطفال . ومن الممكن أن تقف هذه الحال

عند حد ، ويجب إذن أن أمتنع عن هذه الزيارات ، دون أن يكون لذلك  
أى تأثير على صداقتنا » . فشكرتني بسرور ظاهر .  
وعلى الرغم من أنى اقتحمت طريقاً لم يرد له لى أصدقائى النصارى ،  
فانى أشعر بأنى مدين لهم بما غرسوا فى من نزعة البحث الدينى .  
وسأذكر على الدوام علاقتى بهم مغتبطاً مسروراً . غير أن الأيام كانت  
تخبأ لى من أمثال هذه العلاقات النفسية المقدسة ، كنوزاً أكبر مما  
زودتنى به فى ذلك الحين .



## الفصل الثامن

### عنف الغوغاء في دوربان

في منتصف سنة ١٨٩٦ عدت الى الهند . ولما كان الحصول على بواخر من الناتال تقصد رأساً الى كالكوتا ايسر من الحصول على بواخر تقصد الى بومباي ، سافرت على باخرة تقصد الثغر الأول . ذلك لأن الاجراء المتعاقدين كانوا يبجرون الى جنوبي افريقية أما من كالكوتا أو من مدراس . وبينما كنت اقطع الطريق بين كالكوتا وبومباي ، تخلفت عن القطار فقضيت يوماً في « الله آباد » وهناك بدأت مهتمتي في شرح الحالة في جنوبي افريقية . فزرت مستر تشسني - Chesniy - محرر جريدة البيونير « Pioneer » أي « الرائد » . فكلمني بأدب وعرفني بصراحة أن ميوله تتجه الى العطف على المستعمرين . ولكنه على الرغم من هذا وعدني بأن يقرأ أي شيء أكتبه ويشير إليه في جريدته . وبهذا اكتفيت .

وفي أثناء اقامتي في الهند كتبت رسالة شرحت فيها حالة الهنود في جنوبي افريقية . فأشارت اليها كل الجرائد على وجه التقريب وطبعت مرتين . ووزع منها خمسة آلاف نسخة في كثير من أنحاء الهند



وفي أثناء هذه الزيارة أتيت لي أن أرى زعماء الهند ، وهيئت لي  
الفرص العديدة التي ألقيت فيها خطابات عامة في بومباي وپونا  
ومدراس . وليس من قصدي أن أشرح هذه الأشياء باطناب ولكن  
حسبي أن أذكر أنه بينما كنت في اجتماع عام في كالكوتا، وصلني تلغراف  
من ناتال يسألني فيه مرسلوه أن أعود إلى الناتال توأ ، فقصر هذا الحادث  
أمد زيارتي للهند . لأنني أدركت من هذا التلغراف أنه لا بد أن تكون  
قد قامت حركة معادية للهنود ، فتركت عملي الذي بدأت في كالكوتا  
غير كامل وذهبت إلى بومباي ، وركبت أول باخرة ومعى أسرتي . وكان  
بيت « دادا عبد الله » قد اشترى الباخرة « كورلاندا » - Courland -  
وبذلك أضاف هذا البيت إلى أعماله التجارية مخاطرة جديدة ، بأن  
يكون له فوق البحار باخرة تمخرها بين « پوربندار » وناتال . وتبعته  
هذه الباخرة باخرة أخرى تدعى « ناديري » - Naderi - مملوكة لشركة  
بواخر خليج العجم ميممة شطر الناتال . فكان ركاب الباخرتين  
يناهزون الثمانمائة مسافر .

وكانت الدعوة التي نشرتها في الهند قد نالت من الاهتمام قدراً جعل  
الجرائد الهندية تهتم بها وتفصح لها من أعمدتها وجعل روتر يرسل  
اشارات برقية عنها إلى انجلترا . وهذا لم أعرفه إلا عندما وصلت الناتال .  
وكان وكيل روتر في انجلترا قد أرسل برقيات إلى جنوبي افريقية لخص  
فيها خطاباتي في الهند تلخيصاً مبالغاً فيه . ولم يكن هذا الأمر حديداً

I have made up my mind  
to turn the cold that now  
I have arrived at this  
a finite conclusion as a  
series of deep & prayerful  
thinking I have reached  
it all to me. The nature of  
the action is not yet clear  
to me. It has to be civil  
disobedience. Now it is to be  
considered & kept in mind  
besides me. I have not yet  
been quite clear. But  
the thing is that over  
long the truth is coming  
day by day & with present  
break.

I hardly wanted to write  
this in haste. I began this letter  
But when you are

Gurudev passed delightful  
moments with me. He was  
afraid considerably. We came

أو غير عادي ، كما أن المبالغة في تحوير الأخبار لا تكون مقصودة في كل الأحوال . فالذين تثقلهم الأشغال والمسؤوليات ، يتعودون دائماً أن يقرأوا الأخبار قراءة سطحية وكثيراً ما تطغى عليهم ميولهم الشخصية وما يكون قد ثبت في أنفسهم من أثر التحامل ، فإذا كتبوا ملخصاً لما يقرأون كان فيه أثر من مجمل هذا ، فيصبح جزء منه نتاجاً للوهم ول مجرد التصور . ولا ننسى بجانب هذا أن الملخص يفسر تفسيراً مختلفاً باختلاف الأشخاص والأماكن . وبذلك يقع التشويه والتحريف من غير أن يقصد أحداليه . وهذا هو المأزق الأكبر الذي يعرور الأعمال العامة . كما أنه السبب الذي يقيدنا ويحددها في أكثر الظروف .

لما كنت في الهند وجهت إلى الأوروبيين في ناتال انتقادات مرة . وتكلمت بحرارة ضد قانون ضريبة الجنيهات الثلاثة التي كانت تجبي من الأجراء المتعاقدين . وضربت مثالا بما عانى أحد الأجراء المتعاقدين من الآلام وما لقي من القسوة ، وكان يدعى « سبرا همنيام » تعدى عليه مؤجره اعتداء كبيراً . ولقد رأيت جراحه بعيني وكانت قضيته بين يدي أعني بها أمام المحاكم . فلما قرأ الأوروبيون في ناتال الملخص المشوه الذي نقله روتر عن خطبي ، سخطوا علي وغضبوا مني أشد الغضب . في حين أني كنت كثيراً ما أكتب في مثل ما كتبت فيه عندما كنت في ناتال موجهاً انتقادات أمر مع ذكر أمثال أطول وأفزع من تلك التي ذكرتها في خطاباتي في كالكووتا . والحقيقة التي أشعر بها أن خطاباتي

في الهند كانت محوطة بروح الاحتياط حذر المبالغة والتفريط . ولما كنت أعرف بالتجربة أن شرح حادثة لشخص غريب عنها قد يحدث فيه من الأثر أكثر مما تقصد أن تنقل إلى ذهنه منها ، عملت جهدي في أن أصف الموقف في جنوبي افريقية لآخوانى الهنود بروح أكثر هوادة مما تجيز الحقائق الواقعة . ولكن قليلا من الأوروبيين كانوا يقرءون ما أكتب في ناتال ، والذين كانوا يهتمون بها أقل من الذين يقرءونها . ولا شك في أن الحالة كانت تختلف اختلافا ظاهرا بين هذا وبين الأثر الذى أحدثته خطاباتي وكتاباتي في الهند . فان آلافا من الأوروبيين قرأوا برقيات روتر التي لخص فيها أقوالى . وتجد من جهة أخرى أن موضوعا له من التقدير والاهمية أن تتناقله البرقيات ، تصيبه لأول وهلة حمى الاهتمام به لا أكثر مما يستحق . وظن الأوروبيون في ناتال أن عملى في الهند له من الاهمية ما قدروه له فى أنفسهم ، وان من المحتمل أن يلغى نظام الحصول على اجراء بالتعاقد معهم على العمل ، فيتأثر بالخسارة مئات من المزارعين الاوروبيين من جراء ذلك . وفضلا عن هذا فانهم شعروا بأن أهل الهند أصبحوا ينظرون اليهم بمنظار أسود . وبينما كان الأوروبيون في ناتال على ما وصفت من اضطراب العقل ، وصلتهم أخبار عودتى إلى ناتال على ظهر الباخرة « كورلاند » ومعى ثلاثمائة أو أربعمائة مسافر من الهنود ، وان الباخرة « ناديرى » كانت على وشك الوصول فى الوقت ذاته وعليها عدد لا يقل عن هذا ، فألهبتهم



هذه الأخبار وزادتهم هياجاً ، وانفجرت براكين الشعور إلى أقصى حدودها . وعقد أوريو ناتال اجتماعات كبيرة ، حضرها في الغالب أكثر شخصياتهم ظهوراً ومنزلة . وكان المسافرون الهنود على وجه عام ، وأنا على وجه خاص ، موضع نقد مرير ، حتى لقد صور وصول الباخرتين كورلاند وناديري إلى الناتال بمثابة « غزوة » هندية لتلك البلاد . وقال خطبائهم اني أنا الذي أحضرت هؤلاء الثمانمائة من المسافرين إلى الناتال ، وان هذه هي الخطوة الاولى في سبيل خطة مرسومة محصلها اني أرمي إلى اغراق الناتال بسيل عرم من مهاجري الهنود الاحرار . وترتب على هذا أن يصدر المجتمعون قرارات يقضون فيها بأن لا يسمح للمسافرين ، وأنا أولهم ، بأن ينزلوا إلى الناتال ، وأنه في حالة ما اذا عجزت الحكومة عن أن تمنع المسافرين عن النزول ، فان اللجنة التي كونت من الأورويين يكون لها الحق في أن تنصح لأعضائها بأن يخرقوا القوانين ويمنعوا المسافرين عن هبوط أرض ناتال بالقوة . ووصلت الباخرتان إلى ناتال في نفس اليوم الذي صدرت فيه هذه القرارات .

كان أول مظهر الطاعون الدملي في الهند سنة ١٨٩٦ . فأخذ الأوريون هذه الحقيقة ذريعة يتذرعون بها ليمنعوني عن الهبوط الى بر الناتال . ولقد ووجهت الحكومة بكثير من الصعاب القانونية . ذلك لأن قانون تحديد الهجرة لم يكن قد عمل به بعد . في حين ان ميول الحكام

كانت كلها مع لجنة الأوربيين : يدلك على هذا ان مستر « اسكومب »  
Mr Escombe - وهو عضو ظاهر من أعضاء الحكومة قد اخذ بضع  
كبير في الاجتماعات التي عقدتها هذه اللجنة . وهناك قاعدة مقررة معترف  
بها في كل الثغور بأنه في حالة حدوث اصابة بمرض معد بين ركاب  
باخرة ، أو اذا كانت الباخرة آتية من ثغر موبوء ، فرض عليها أن  
تبقى تحت الحجر الصحي عدداً من الأيام . على أن هذا الخطر لا يمكن  
أن يفرض إلا على أساس صحي فقط ، وعلى مقتضى أوامر يصدرها  
الضابط الصحي في الثغر . غير أن حكومة ناتال أساءت استعمال  
سلطتها بأن فرضت هذا الخطر لأسباب سياسية . فعلى الرغم من انه  
لم تحصل إصابة بمرض معد ، حجر على الباخرتين صحياً ، وظلتا تحت  
هذا الحجر مدة أطول مما يلزم إذ بقيتا على هذه الحال ثلاثة وعشرين  
يوماً . وفي أثناء هذه المدة كانت لجنة الأوربيين لاتنى نشطة عاملة .  
حتى لقد نال الشركاء « دادا عبد الله » أصحاب الباخرة « كورلاند »  
ووكلاء شركة بواخر خليج العجم التي كانت تملك الباخرة « ناديري » ،  
كثير من عنيتهم وخطرستهم . ولقد استعملت مع أصحاب الباخرتين كل  
المرغبات لكي يقتنعوا بأن تعود الباخرتان بمن عليهما من المسافرين من  
حيث أتينا ، ثم هددوا بالمقاطعة والعطل عن العمل إذا هم لم يصدعوا بما  
طلب اليهم أو رفضوا ما عرض عليهم . ولكن الشركاء « دادا عبد الله »  
كانوا على جانب عظيم من الشجاعة . حتى لقد أجابوا بأنهم لا يبالون

إذا نزل بهم الخراب وحل بهم الدمار ، وانهم سوف يخوضون غمار المعركة حتى نهايتها المرة ، ولكنهم لا يقبلون أن يجبروا على ارتكاب جريمة شنعاء بأن تعود الباخرة بمن عليها من المسافرين الأبرياء في حالة لا معين لهم فيها . ولقد أظهروا بموقفهم هذا أن الوطنية لا تنقصهم . ولا أنسى أن أذكر أن محامى هذه المؤسسة وهو المستر « لوتون » كان رجلاً شجاعاً مقداماً .

و شاء الحظ أن يصل الى افريقية في ذلك الوقت هندي ذو مكانة هو السير « منشو هلال هيرالال نازار » وابن عم المرحوم « نانابهاي هاريداس » القاضى المعروف . ولم يكن لى به من صلة ، كما أنى لم أكن أعرف أنه ذاهب إلى جنوبي افريقية . ولا حاجة لى لأن أذكر أنه لم يكن لى من يد فى احضار المسافرين الذين غصت بهم الباخرتان كورلاند وناديرى . فالكثيرون منهم كانوا من سكان جنوبي افريقية الأقدمين . كما كان الكثيرون منهم ذاهبين رأساً إلى الترنسفال . ولقد أرسلت مذكرات تهديدية أرسلتها لجنة الأوربيين إلى هؤلاء أيضاً ، فقرأها عليهم قباطنة الباخرتين . وجاء فى هذه المذكرات صراحة أن الاوربيين الذين يقطنون ناتال كانوا فى هياج خطير وحالة خلقية مريعة ، فاذا حاول المسافرون الهنود على الرغم من هذا التحذير أن ينزلوا إلى البر ، فان رجال اللجنة الاوروبية سيكونون على المرفأ مستعدين لأن يلقوا كل من تمس قدماه منهم أرض ناتال إلى البحر .

فترجمت هذه المذكرة للمسافرين على ظهر الباخرة كورلاندا . وترجمها لركاب الباخرة ناديري رجل هندي يعرف اللغة الانجليزية . وكانت النتيجة أن رفض ركاب الباخرتين العودة ، وأضافوا إلى ذلك أن الكثيرين منهم كانوا ذاهبين إلى الترنسفال ، وأن بعضهم من قطان ناتال المقيمين بها ، وأن لكل منهم الحق المطلق في أن ينزل إلى البر ، ولذا فانهم على الرغم من تهديدات لجنة الأوروبيين ، قد صمموا على النزول إلى البر ليعرفوا إن كان لهم الحق في ذلك ، أم أنهم حرموا قانوناً هذه الحقوق . ولقد بلغت حكومة ناتال آخر حدود الصبر على مثل هذه الحال الشاذة . فإلى أي حد يمكن أن تسمح باستمرار مثل هذا الحظر غير القانوني ؟ كان قد مضى ثلاثة وعشرون يوماً ، من غير أن يلين الشركاء « دادا عبد الله » ومن غير أن ينكص المسافرون أو تهزم شجاعتهم . ورفع الحجر الصحي بعد ثلاثة وعشرين يوماً وسمح للباخرتين أن تقلعا إلى الرفأ . وكان مستر « اسكومب » قد استطاع في هذه الأثناء أن يهدئ شيئاً من نائرة أعضاء اللجنة الأوروبية . فقال في إحدى الاجتماعات - « ان الأوروبيين في دوربان قد أظهروا من الاتحاد والشجاعة ما هو جدير بالثناء . لقد فعلتم أقصى ما في استطاعتكم ، وساعدتكم الحكومة ، فحجروا على الهنود ثلاثاً وعشرين يوماً ، استطعتم في أثناءها أن تعبروا عن شعوركم وعواطفكم وتظهروا رأيكم العام . ( م - ١٠ )



ولا شك في أن هذا سيكون له أثره في حكومة الامبراطورية ، كما أنه جعل الطريق الذي سوف تسير فيه حكومة الناتال سهلاً معبداً . فاذا منعتهم بعد ذلك هندياً واحداً عن النزول إلى البر ، أضررتهم بمصالحكم ووضعتم الحكومة في موضع عسير ، وأوقفتموها في أخرج موقف . وحتى بهذا سوف لا يمكنكم أن تمنعوا هندياً واحداً من النزول إلى ناتال . فليس المسافرون جميعاً ممن يحق لنا أن نغضب عليهم أو نتقم منهم . وبينهم نساء وأطفال . ولما سافروا من بومباي لم يكن لديهم من علم بحقيقة شعوركم . فنصيحتي الخالصة لكم أن تتفرقوا وأن لا تعيقوا هؤلاء الناس عن مغادرة الباخرتين . واني أوكد لكم أن حكومة ناتال سوف تنال من المجلس التشريعي القوة الكافية التي تستطيع بها أن تقيد الهجرة إلى هذه البلاد » وليس هذا غير تلخيص لما قال مستر « اسكومب » . ولقد امتعض سامعوه ، ولكنه كان ذا نفوذ واسع على الأوروبيين في ناتال ، فتفرقوا احتراماً لنصحه ودخلت الباخرتان إلى الميناء وألقتا مراسيهما على المرفأ .

وصلتني رقعة من المستر اسكومب ينصح لي فيها بأن لا أغادر الباخرة مع بقية المسافرين ، وأن أنتظر إلى المساء ، حتى يرسل إلى مراقب بوليس الميناء ليذهب معي إلى البيت ، وأضاف إلى ذلك أن أسرتي حرة في أن تنزل إلى البر في أي وقت تشاء . ولم يكن هذا بمثابة أمر بمقتضى القانون، بل كان من باب النصيحة للقبطان لكي لا يسمح لي

بالنزول من الباخرة، وليعرفني الخطر الذي يتورني . ولم يكن لدى القبطان من السلطة ما يجعله يمنعني بالقوة من مغادرة السفينة ، ولكنني صممت على أن أقبل مقترحاته . فأرسلت أسرتي إلى بيت صديق القديم وموكلي « پارسي رستوجي » وأخبرتهم بأنني سوف ألقاهم هناك . ولما نزل المسافرون من الباخرة حضر مستر « لوتون » مستشار دادا عبد الله وصديقي الشخصي لمقابلتي ، وسألني لماذا لم أغادر السفينة ؟ فأخبرته بأمر ما كان من خطاب مستر اسكومب . فقال لي بأنه يمقت فكرة بقائي الى المساء وأن أدخل المدينة دخول لص أو خصيم . وأني اذا لم أكن خائفاً ، أستطيع أن أرافقه فنسير إلى المدينة كما لو لم يكن قد حصل أى شيء . فأجبتته بأن الأمر لم يكن عن خوف من ناحيتي بل كان عن مراعاة اللياقة والأدب في أن أرفض أو أقبل مقترح مستر اسكومب . فابتسم مستر لوتون وقال - « ماذا فعل لك مستر اسكومب حتى تهتم بمقترحه ؟ وأى سبب يملك على أن تظن أنه انما اقترح ما اقترح شفقة عليك ورحمة بك ، وليس الباعث عليه غرضاً آخر ؟ انى أعرف أكثر منك دقائق ما حصل بالمدينة وما كان من أثر مستر اسكومب في الحوادث التي وقعت » . ولكنني قطعت عليه الحديث بإيماءة

غير أن مستر لوتون عقب على ذلك بقوله : « يمكننا أن نفرض أن مستر اسكومب قد كتب رقعة اليك مدفوعاً بأسمى البواعث ، ولكنك اذا وافقت على مقترحه أهنت نفسك . ولذا أنصح اليك ، اذا كنت

على استعداد ، أن ترافقني الآن . فالقبطان من رجالنا ، ومسؤوليته  
مسؤوليتنا . وهو غير مسؤول إلا أمام « دادا عبد الله » . واني  
لأعرف ما سوف يفكرون فيه ازاء هذا الأمر ، لأنهم أظهروا في هذا  
الصراع شجاعة ينذر مثالها . « فأجيبته - « دعنا نذهب اذن . وليس  
عندي تمهيدات أقوم بها . وكل ما على أن أضع عمامتي على رأسي .  
فلنخبر القبطان أولاً ثم نغادر الباخرة ؟ » . واستأذنا القبطان فأذن .  
كان مستر لوتون محامياً قديماً واسع الشهرة في دوربان . وكنت قد  
عرفته وتوثقت بيننا عرى الصداقة . وكان من عادتي أن أستشيريه  
في القضايا التي آنس فيها صعوبة أو أوكله عني باعتباره أقدم مني بالمهنة  
عهداً وأوسع تجربة . وكان رجلاً شجاعاً قوى البنية مفتول العضل .  
أما طريقنا فكان يمتدق الشارع الرئيسي في دوربان . ووافت الساعة  
منتصف الخامسة من المساء ، عند ما بدأنا في المسير . وكانت السماء يكسوها  
غيم خفيف وكانت الشمس قد انحدرت نحو المغرب فلم تكن ترى .  
وللمشي على قدميه أن يمضي ساعة بزمتها حتى يصل إلى بيت « پارسى  
رستومجى » . وكان الناس الواقفون على أرصفة المرفأ ليسوا أكثر عدداً  
من المعتاد . ولكننا بمجرد أن نزلنا من الباخرة لمحنا بعض الصبية . ولما  
كنت الهندي الوحيد الذي يلبس عمامة ذات طابع معين ، فسرعان  
ما عرفت ، وبدأ الصبية يصيحون « ها هو غاندى ! هنا غاندى !  
حطموا غاندى ! أحيطوا بغاندى ! » وأقبلوا نحوى . وبدأ بعضهم يلقي

على الحجارة . وشاركهم بعد قليل أوريون أسن منهم ، وأخذت جماعة الغوغاء المفتونين تزداد تدرجاً . وفكر مستر لوتون أن هناك خطراً محققاً بنا إذا مضينا نسير على الأقدام ، فنادى عربة يد لتقلنا . وحتى الساعة لم أكن قد ركبت عربة يد لأنى كنت أستهجن أن أستقل عربة يجرها واحد من بنى آدم . ولكنى شعرت بأن واجبي أن أستخدم عربة اليد لأول مرة . ولقد عالجت في حياتى خمس أو ست حالات ، وان شئت فقل تجاريب ، استبنت منها ان الشخص الذى يريد الله له النجاة لن يصيبه الضر ولو ألقى بنفسه فيه . وعلى الرغم من أنى نجوت هذه المرة أيضاً ، فانى ما شككت فى أن نجأتى لم تكن من عند نفسى ولا بمهارتى . وكان الذى يجر العربة رجل من « الزولو » - Zulus - فهدده الصبيان والرجال الأورويون بأنه إذا سمح لى بأن أستقل عربته فعقابه الضرب المبرح وتحطيم عربته . وسمعنا من هذا « الزولى » كلمة « خا » أى « لا » وذهب بعيداً عنا . فحمدت الله لأنى لم أحمل على أن أخجل نفسى بأن أركب عربة يجرها فرد من أبناء آدم . لم يصبح أماننا من مفر فى أن نمضى مشياً على الأقدام إلى حيث قصدنا . وتبعنا الغوغاء . ولم نكن ننتقل خطوة حتى يزداد الغوغاء فى العدد . وما وصلنا شارع « وست » - West - حتى أصبح عدد المتظاهرين مريعاً . وتقدم رجل قوى الأعصاب من مستر لوتون وفرق بينه وبينى . فأصبح فى موقف لا يستطيع فيه الدنومنى . وبدأ الغوغاء يسيئوننى



ويلقون على الحجارة ، بل وكل ما تصل اليه أيديهم . ورموا بعماشي إلى الأرض . ثم تقدمني شخص بدين كثير الصياح وصفعني على وجهي وركاني بقدمه . وكنت على وشك أن أسقط على الأرض مغشياً على ، عندما أمسكت بحدائد منزل قريب مني . واستطعت أن أتنفس برهة ، ولما ذهبت عنى نوبة الانغماء بدأت أسير في طريقي . وفي ذلك الوقت فقدت كل أمل في أن أصل المنزل حياً . على اني أذكر جيداً اني حتى في تلك الحالة لم أشعر في قلبي بأية حفيظة نحو الذين يؤذونني .

بينما كنت أسير ببطء متهادياً مترنحاً في طريقي ، كانت مسز « الكسندر » زوجة مراقب بوليس دوربان مقبلة في الناحية الأخرى . وكانت بيننا معرفة وثيقة ، والحق أنها سيدة فيها شجاعة واقدام . فعلى الرغم من أن السماء كانت غائمة وقد انحدرت الشمس للمغرب ، فانها نشرت شمسيته لتقيني بها ومشت الى جانبي . ومن عادة الاوروبيين ان لا يهينوا سيدة ، وعلى الأخص زوجة مراقب البوليس ، وهو رجل متقدم في السن معروف عند الناس حق المعرفة محبوب لديهم ، فكيف يفكرون في ايدائها ؟ وكان لا بد من ان تؤذى اذا هم صوبوا نحوي . لذلك أشعر بأن المضار التي لحقتني بعد صحبتها كانت غير ذات بال . وكان مراقب البوليس قد عرف بأن الغوغاء تهاجمني فأرسل بعض رجاله للحمايتي ، وأحاط بي رجال البوليس . وكان مركز البوليس في طريقنا . فلما وصلنا وجدت ان مراقب البوليس كان واقفا ينتظر قدومنا . وعرض

علي أن أحتمي بمركز البوليس فرفضت وشكرته قائلاً . « لا بد لي من أن أصل الى حيث أقصد . واني لؤمن بعث أهل دوربان ايماني بقداسة قضيتي . فشكراً لك على اهتمامك وارسالك رجال البوليس لحمايتي . واني لأشكر مسز الكسندر لانها ساهمت بأكثر من الواجب في سبيل سلامتي .

ووصلت بيت « رستوجي » من غير حادث آخر . وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله عندما وصلت . وأخذ طبيب الباخرة كورلاند يمتحن جروحي لأنه كان هنالك . فلم يجد في كثير من الجراح . ولكن كدماء كبيراً كان يؤلني أشد الألم . غير أني فضلاً عن هذا لم اترك لاستريح . فان آلافا من الاوروبيين تجمهروا أمام منزل « رستوجي شيت » . ولما نخم الظلام شاركهم في تجمهرهم عدد من « الفتوات » ، وأرسلوا الى رستوجي شيت كلمة يقولون فيها بانه اذا لم يسلمني اليهم أحرقوا المنزل بمن فيه وأنا معهم . على ان رستوجي شيت كان هندياً من الذين لا تلين قناتهم . ولما علم مستر الكسندر مراقب البوليس بالحالة اختلط بالغوغاء ومعه عدد من البوليس السرى . واستحضر منصة ووقف عليها . ثم خدع الغوغاء بأنه سوف يتكلم فيهم ، وبهذه الخدعة استطاع أن يحتل باب منزل رستوجي حتى لا يستطيع أحد أن يقتحمه ويدخل الى البيت ، وكان قد أوقف رجالاً من البوليس السرى في الأماكن الضرورية . وبمجرد أن وصل أمر أحد أتباعه أن يستخفي في زى تاجر

هندي بأن يلبس ملابس هندية ويصنع وجهه ، حتى يستطيع أن يقابلني .  
وأن يحمل الى الرسالة الآتية : « اذا كنت تريد أن تنقد صاحبك وضيوفه  
وماله ، واسرتك شخصياً ، فاني أنصحك بأن تستخفي في زي كونستابل  
هندي وتخرج من باب بيت رستومجي الخلفي ثم تندس مع رجلي هذا  
في الجمع الحاشد حول المنزل وتتسلل الى مركز البوليس . ان عربة  
تنتظر في منعطف الشارع . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع  
بها أن أنقذك وأنقذ غيرك . ان الغوغاء في هياج حتى انه ليتعذر على أن  
أحكم أهواءهم . فاذا كنت متردداً في اتباع مشورتي ، فاني أخشى أن  
يهدم الغوغاء بيت رستومجي من أساسه . وهناك لا أستطيع أن اقدر  
كم من الارواح سوف تزهق وكم من الاموال سوف تبدد » . ولقد  
أدركت الموقف بسرعة فاستخفيت في زي كونستابل وغادرت منزل  
رستومجي . ووصلت أنا والضابط مركز البوليس في أمان . وفي ذلك  
الوقت كان مستر الكسندر يماجن الغوغاء ويغنيهم أغنيات يستدعيها  
الموقف حيناً ، ويتكلم فيهم حيناً آخر . فلما علم أنني بلغت مركز  
البوليس ، انقلبت مجاته جداً وسأل :

- « ماذا تريدون ؟ »

- « نريد غاندي » .

- « ماذا تريدون أن تفعلوا به ؟ »

- « نحرقه » .

- « أى ضرر أحدث لكم ؟ »  
- « لقد سود وجوهنا فى الهند ويريد أن يفرق الناتال بسيل من  
الاجراء » .

- « وماذا سوف تعملون لو انه لم يخرج ؟ »  
- « اذن نحرق المنزل » .  
- « ان زوجه وأولاده هنا أيضاً . وهناك رجال ونساء غيرهم .  
أفلا تنجلون من أن تحرقوا نساء وأطفالا ؟ »  
« ان مسؤولية ذلك تقع عليك . اننا لا نريد أن تؤذى أى شخص آخر  
ولذا نطلب اليك أن تسامنا غاندى » .

وهنا ابتسم مراقب البوليس فى هدوء وأخبر الغوغاء بأنى غادرت  
منزل رستونجى ومررت فى وسطهم ووصلت إلى مأمّن آخر . فصاحوا  
معاً . « هذا كذب ! هذا كذب ! » فأجابهم

« اذا كنتم لا تصدقون مراقب بوليسكم العجوز ، فأرجو أن  
تنتخبوا لجنة من بينكم مكونة من ثلاثة أو أربعة أفراد . على أن يتعهد  
الباقون أن لا يقتحموا المنزل ، فاذا لم تجد هذه اللجنة غاندى فى المنزل  
عدتم بسلام الى منازلكم . انكم مهتاجون اليوم ، ولا تريدون أن  
تطيعوا البوليس . وهذا مما يضعف الثقة بكم ، لا بالبوليس . لهذا تحايل  
البوليس عليكم ، فأخرج فريستكم من وسطكم فخرتم الصفقة .  
ولا شك فى أنكم لا تلومون البوليس على هذا . ان البوليس الذى



أقمتوه ليحافظ على النظام قد قام بواجبه .  
ولقد خاطب مراقب البوليس الغوغاء بلباقة وقوة حتى استل منهم  
الوعد الذي أراد . وعينت لجنة . وفحصت بيت رستومجى فحسباً  
دقيقاً ، وأخبروا الغوغاء بأن مراقب البوليس صادق وأنه كسب منهم  
الصفقة . وهنا امتعض الغوغاء . ولكنهم نفذوا عهدهم وانصرفوا من  
غير أن يرتكبوا عبثاً . وكان وقوع هذا الحادث في يوم ١٣ من يناير  
سنة ١٨٩٧ .

...

في صبيحة اليوم الذي رفع فيه الحجر الصخري عن الباخرتين ، قابلني  
مكاتب احدي صحف دوربان على ظهر السفينة . وسألني عن كل شيء  
وكان من السهل على أن أتصل من التهم التي وجهت الي وأن أقيم له  
الدليل على ذلك بما أرضاه . ولقد أثبت له بأسهاب أنني لم أتورط في أية  
مغالاة ، واني لم أفعل الا ما أعتقد أنه واجب على . واني اذا توانيت  
عن أن أظهر ما أظهرت ، فاني لا أكون جديراً بأن أسمى رجلاً . وظهر  
هذا كله على صفحات الجرائد في اليوم التالي . ولقد اعترف ذوو النهي  
من الأوروبيين بخطئهم . وعبرت الصحف عن ميولها وعواطفها نحو  
الأوروبيين وموقفهم في ناتال ، ولكنها بجانب هذا دافعت عن موقفى  
وعملى . وكان من وراء ذلك أن ازداد صيتى ذيوماً ، واكتسب الهنود  
احتراماً ، حتى لقد ظهر أن الهنود ، ولو أنهم فقراء معدمين ، ليسوا

جبناء ، وأن التجار الهنود على استعداد لأن يجاهدوا ليحافظوا على احترامهم ومن أجل وطنهم ، من غير تقدير لما سوف ينزل بهم من خسائر . وعلى الرغم من أن الجالية الهندية كانت سوف تقاسى الآلام ، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي نزلت بيت « دادا عبد الله » ، فإن النتيجة اجمالاً كانت مفيدة . فإن الجالية الهندية استطاعت أن تتمحن قوتها ، وبذلك زادت ثقتها بنفسها . وأنا شخصياً قد استفدت من هذه التجربة ، حتى أنى ما فكرت في ذلك اليوم إلا وشعرت بأن الله كان يهيئني لأن أضع « الستياجراها » موضع التنفيذ . ولقد كان لحوادث ناتال هذه صدى تردد في انجلترا ، فإن مستر تشامبرلين وزير المستعمرات أبرق الى حكومة ناتال يسألها أن تحاكم الذين آذونى وأن يأخذ العدل مجراه فى مسألتى .

وكان مستر اسكومب مدعياً عمومياً فى حكومة ناتال فاستدعانى اليه وأطلعنى على برقية مستر تشامبرلين . وأظهر أسفه لما نالنى من الايذاء ، كما أبدى سروره من أن نتائج مطاردتى لم تكن أشد مما كانت . وأضاف الى ذلك - « انى أوكد لك بأنه لم يكن من قصدى أن تؤذى أو يؤذى أى شخص من أفراد جاليتكم . ولأنى خفت من أن ينالك الأذى ، أرسلت اليك رقتى ناصحاً بأن لا تغادر السفينة الا مساء . فلم تحب أن تأخذ باقتراحى . وليس من قصدى أن أوجه اليك أى لوم فى أنك أخذت بنصيحة مستر لوتون . فإن من حقك أن تعمل كل ما تراه صواباً .

وحكومة ناتال تقبل كل طلبات مستر تشامبرلين بحذافيرها ، وترغب  
في أن يقف مهاجموك موقف الاتهام . فهل يمكنك أن تستدل على أى  
شخص من الذين هاجموك ؟

فأجبتة بأنه ربما كان فى امكانى أن اعين شخصاً أو اثنين منهم ،  
ولكنى صممت تصميماً قاطعاً على أن لا أشكو أحداً . فان كل المعلومات  
التي تلقاها مهاجمى انما تلقوها من رؤسائهم وزعمائهم ، وانه لكثير أن  
يطلب الانسان من غوغاء أن يحكموا فيما اذا كانوا على صواب أو على  
خطأ . فاذا كان كل ماسمعوا عنى صحيحاً ، فمن الطبيعى أن يهتاجوا  
وأن يرتكبوا شيئاً من الخطأ فى ثورة من الغضب . وان الجماهير المستاءة  
الصاخبة كثيراً ما حاولت أن تنفذ العدالة بهذه الكيفية . واذا كان لى  
أن ألوم احداً فاني انما ألوم لجنة الاوروبيين . وربما يكون روتر قد نقل  
أخباراً مشوهة . ولكن زعماء الاوروبيين لما علموا بقدمى الى ناتال ،  
كان من الواجب عليهم وعلى اللجنة أن تسألنى فى الشكوك التي ساورتهم  
من جراء أعمالى فى الهند .

فأجابنى مستر اسكومب قائلاً : «انى أفهم ماتقول حق الفهم ، وانى  
لاحترم أقوالك وأقدرها . انى لم أكن مستعداً لأن أسمع منك انك  
لا تريد أن تحاكم الذين آذوك وهاجموك . وانى ما كنت لاشعر بأية  
غضاضة من أن تطلب محاكمتهم . ولكن بما أنك أبديت تصميمك  
على أنك لا تريد أن تحاكمهم ، فانى لا أتردد فى أن أقول لك بأنك لم

تصل الى الراى الصائب فى الموضوع لاغير ، بل أقول لك بصراحة بانك بهذا سوف تقدم لجالتك خدمات أكبر مما قدمت لها، بما تبدي من القدرة على ضبط النفس . وكذلك يجب على أن أصرح فى الوقت ذاته بان رفضك أن تحاكم الذين آذوك سينقذ حكومة ناتال من أن تقف موقفاً من أسوأ ماتتصور . ولو أردت أن تحاكمهم، فاذن تضطر الحكومة الى القبض عليهم ، ولكن لاينفى عليك أن الاوروبيين سوف يحتاجون لهذا العمل وسوف يكون سبباً فى قيام عاصفة من النقد المرير لا يمكن لاية حكومة أن تواجهها. ولكنك اذا كنت قد صممت نهائياً على أن لا تحاكمهم ، فعليك اذن أن تكتب لى مذكرة تفيد ذلك . على انى لا أستطيع أن أدافع عن حكومتى بأن أرسل الى مستر تشامبرلين ملخصاً عن حديثك هذا . فانى سوف أبرق له ملخصاً من مذكرتك التى سوف تكتبها . على أنى لا أطلب منك أن تكتب لى هذه المذكرة الآن ، فالأوفق أن تستشير أصدقاءك . وخذ رأى مستر لوتون . واذا رأيت انك بعد استشارتك هذه لاتزال مصمماً على ما ترى الآن، فاكتب الى . ولكن يجب أن تبين فى مذكرتك بجلاء بأنك ترفض تحت مسؤوليتك الشخصية أن تحاكم الذين هاجموك . فى هذه الحالة فقط أستطيع أن اتفجع بما تكتب .

فقلت له - «لم يكن عندى أية فكرة فى أنك أرسلت الى لتخاطبني



في هذا الشأن . ولم أستشر أى انسان في هذا الموضوع ، ولا أريد أن  
أستشير أى شخص الآن . فانى لما صممت على أن أبارح الباخرة وأسير  
مع مستر لوتون ، كنت قد هيات نفسى على أن لا أحزن أو أمتعض  
اذا نالنى أذى . فاعتبر اذن أن محاكمة الدين آذونى أمر خارج عن  
موضوع المناقشة . ان هذا عقيدة دينية ثابتة فى نفسى . «  
وبعد أن فهِت بهذه الكلمات تناولت ورقة بيضاء وكتبت له  
ما أُرَاد وسلمتها اليه .



## الفصل التاسع

### حرب البوير

لما قامت حرب البوير في سنة ١٨٩٩ واجه الهنود في جنوب افريقية حالة دقيقة، بل مشكلة نشأت عن التساؤل في الجانب العملي الذي يقومون به ازاء الحرب . أما البويريون فقد اشتبك كل الذكور منهم في الحرب وحملوا السلاح . فترك المحامون مكاتبهم والمزارعون حقولهم والتجار متاجرهم والخدم وظائفهم - أما الانجليز فلم يشترك رجالهم في الحرب بالنسبة التي اشترك بها رجال البوير . غير أن عدداً كبيراً من غير رجال الحرب في مستعمرة الكاب والنااتال ورودريشيا تقدموا متطوعين لخوض غمار الحرب . وتبعهم في ذلك كثير من المحامين ذوى المكاثة والتجار ذوى الأموال والسمعة الحسنة . وكانت احدى التهم الموجهة إلى الهنود أنهم لم يهبطوا جنوب افريقية إلا ليتزوا الأموال وانهم عبء ثقيل وكمية ميتة يحملها الانجليز على أكتافهم . بل شبهوا بالديدان التي تعيش في جوف الخشب لتأكل منه اللباب، وانهم لا يعنون من مصالح جنوب افريقية بشيء الا تعمير جيوبهم . بل انهم لا يقومون باية تضحية حتى ولو غزيت البلاد أو هوجمت منازلهم وانتهكت حرمانها . وفي هذه

الحالة لا تصبح مهمة الانجليز قاصرة على الدفاع عن أنفسهم ، بل يتلو ذلك أنهم يضطرون الى حماية الهنود . ولقد بدأنا نفكر في هذه الاعتبارات ، وشعرنا جميعاً بأن هذه فرصة سانحة يمكننا أن نبرهن فيها أن هذه التهم لا أساس لها ، ولكن انتهىنا من التفكير في الأمر بالنتائج الآتية :

« ان الانجليز يستبدون بنا ويضطهدوننا بقدر ما يفعل البوير . واذا كنا نتعرض الى صعاب ومتاعب في الترنسفال ، فان حالنا في الناتال ليس بأقل منها في تلك ، أو في مستعمرة الكاب ، صعوبة وقسوة . والفرق ، ان كان هنالك فرق ، فانه يتناول الدرجة ، ولا يتناول الصفة . وفضلاً عن هذا فاننا لسنا بأكثر من جالية من الارقاء . وبما اننا نعرف ان البوير ، وهي أمة صغيرة ، انما تحارب دفاعاً عن حريتها ، فلماذا نشترك في حرب تعجل بدمارها ؟ وفوق كل هذا لا يمكن لأحد أن يتكهن بأن البوير سوف يهزمون . واذا انتصروا فلا شك في انهم سوف ينتقمون »  
وكان من بين الهنود جماعة قوية تؤيد هذه النظرية بحماسة . وكنت أفهمها جيداً وأزنها الوزن الكافي . ولكن مع ذلك لم اقتنع فرفضت الأخذ بها وأثبتت للجالية رأيي كالاتي :

« ان وجودنا في جنوب افريقية يتوقف على أننا من رعايا بريطانيا . وما ونبينا نعمل تحت هذا العنوان في كثير من الظروف لنحقق هذا الأمر عملياً . وكنا نفخر دائماً برعويتنا البريطانية ، وألقينا في روع رجال الحكومة ، كما أقنعنا انفسنا ، بأن من دواعي الاغتياب ان نشعر

بهذه الفخرة . وان قليلا من الامتيازات التي تتمتع بها انما تتمتع بها تحت عنوان انا بريطانيون . وانه لمن أنكى ما يصيب كرامتنا باعتبارنا أمة ، ان نقف مكتوفى الأيدي ننظر بجمود الى الخطر الداهم يواجه الانجليز ويواجهنا معهم ، لأنهم سيئون معاملتنا . وهذا الموقف السلبي الاجرامى ، من شأنه أن يضاعف متاعبنا . فاذا فاتتنا هذه الفرصة التي جاءتنا عرضاً ، لنبرهن من طريقها على فساد التهم التي نعتقد نحن انها غير صحيحة ولا أساس لها ، فاننا انما نقف بذلك موقف من يقدم نفسه للاتهام وييده وثيقة الاثبات . ولا عجب بعد هذا اذا أمعن الانجليز في اساءتنا وفي النظر الينا نظر الاحتقار والامتهان أكثر مما يفعلون . اننا لاشك نكون مخطئين . أما قولنا بأن التهم التي توجه الينا لا أساس لها وفاسدة لدى الواقع وانها لم يتم عليها برهان واحد ، فليس له من معنى الا اننا نخدع أنفسنا . قد يكون في القول بأننا في الامبراطورية لانزيد عن اننا عبید أرقاء قوة ، غير اننا عملنا حتى الآن على أن نحسن مركزنا ، وظللنا عاملين لهذا ونحن في حضن الامبراطورية . ولقد كانت هذه سياسة زعمائنا في الهند دائماً ، كما هي سياستنا . أما اذا رغبتنا رغبة حقيقية في أن ننال حريتنا وأن تتمتع بتحسين أحوالنا وتزيد رفاهتنا كأعضاء في الامبراطورية ، فهاهي أمامنا الفرصة الذهبية ننتهزها بأن نساعد الانجليز في الحرب بكل الوسائل التي تصل يدنا اليها . وعلى الرغم من أنه يجب



علينا أن ندعن الى الاعتقاد بحقيقة أن العدل يؤيد البوير ، فان بجانب هذا يجب أن نفكر في أنه ليس من حق كل فرد يتمتع برعوية دولته ان يفرض عليها الأخذ برأيه في كل الحالات . ان السلطات لا يمكن أن تكون دائماً على صواب ، ولكن مادام أن الرعايا يدينون بالطاعة لحكوماتهم ، فان واجبهم على وجه عام يقضى عليهم بأن يعاونوا الحكومة بأنفسهم ، وان يدعنوا لوجهة نظرها .

«وفضلاً عن هذا كله فاني أرى انه اذا رأيت طائفة من الرعية ان عمل حكومتها لا يتفق وآداب الدين ، فهنالك يجب عليهم ، قبل أن يتقدموا بمساعدتها أو معاندتها، ان يحاولوا اقناع رجال الحكم بالاقلاع عن خطتهم ولو تعرضت حياتهم للخطر. على اننا لم نقم بعمل كهذا بيد اننا لا نشعر بمثل هذا الجرح النفسى في الحالة القائمة الآن ، وليس لأحد منا أن يقول اننا انما نرغب في الابتعاد عن الاشتراك في هذه الحرب لمثل هذا السبب الاجماعى . فواجبنا الطبيعى باعتبارنا أعضاء في الامبراطورية ، ان لا نناقش في احتمالات الحرب وتقديراتها ، بعد أن نشبت الحرب فعلاً ، بل ان نشترك فيها ونساعد بقدر ما يصل جهدنا. واذا فرضنا أخيراً انه في حالة انتصار البوير وانتصار البوير في حدود الاحتمال الآن- تكون حالتنا في النهاية اسوأ منها في الابتداء، وان البوير سوف ينزلون بنا اقصى الانتقام، ونكون بهذا قد ظلمنا البوير الشجعان وظلمنا أنفسنا. واني لأرى أن التفكير في مثل هذا ضياع ، ولا يكون له من معنى الا التعبير عن

خنوثننا وضعفنا واتهاماً لولاثنا . وهل يفكر انجليزى واحد الآن فيما  
يحتمل أن يحدث فيما لو خسرت انجلترا الحرب ؟ وان رجلا على وشك  
الاشتباك فى حرب دامية ، لا يمكن ان يفكر فى مثل هذه الوجوه ،  
إلا ويكون خائناً لرجولته . »

ولقد قبل الكثيرون وجهة نظرى غير أن المسألة العملية بدأت  
تواجهنا . فمن ذا الذى سوف يلتقى بسمعه لصوت الهنود الضعفاء فى  
وسط هذه الجلبة الدامية التى تبعثها هذه الحرب الشعواء ؟ ولم يكن أحد  
منا قد استعمل من قبل سلاحاً من أسلحة الحرب . وحتى الأعمال التى  
يمكن أن يقوم بها غير المحاربين تحتاج إلى مرانة وتدريب . وليس منا  
من يعرف كيف يسير بنظام حربى . كما أنه ليس من السهل الهين أن  
يمشى الانسان مسافات بعيدة واحماله على ظهره . وقد يعاملنا البيض  
باعتبارنا « اجراء » - Coolies - أو يسبوننا أو ينظرون إلينا نظرة  
احتقار . فكيف يمكن احتمال هذا كله ؟ وإذا تطوعنا للخدمة ، فما هى  
الطريقة التى تقنع بها الحكومة على أن تقبل منا هذا العرض ؟ وبعد  
نقاش انتهينا إلى رأى الأخير . ومحصله اننا إذا كانت لدينا الارادة ،  
فان الله سوف يهبنا القدرة على أن نخدم فى الحرب ، وإنه لا يلزمنا أن  
نعبت أنفسنا بالتفكير فى كيفية القيام بما يعهد إلينا من الأعمال ، بل  
يجب علينا أن ندرّب أنفسنا على القيام به إلى الغاية التى تصل إليها  
استطاعتنا ، واننا مادما قد صممنا على أن نخدم فى الحرب ، فالواجب

أن نمنسك عن النظر في تفضيل أى من الأعمال التى يعهد إلينا بها ،  
وأن نغضى حتى عن السباب إذا وجه إلينا .

ولقد واجهتنا صعوبات شديدة فى سبيل أن يقبل طلبنا من جانب  
الحكومة . وقصتنا فى هذه الناحية طلية مسلية ، ولكن ليس هنا  
موضع سردها . ويكفى أن أشير هنا إلى أن زعماءنا تدربوا على العناية  
بالجرحى وتمريض المرضى ، وحصلوا على شهادات طبية بصلاحياتهم  
للعمل وأرسلوا خطابا للحكومة بذلك . ولقد أحدث هذا الخطاب كما  
أحدثت رغبتنا الأكيدة فى خدمة أغراض الحرب فى أية ناحية تريد  
الحكومة أن توجهنا فيها ، أثراً عميقاً . فشكرتنا الحكومة فى خطاب  
رسمى ، ولكنها رفضت ما عرضنا عليها مبقية على ذلك إلى حين . غير  
أن البوير قد استمروا فى تقديمهم كما لو كانوا سيلا محتاجا ، وخيف أن  
يلغوا دروبان . وتكدس الجرحى والقتلى فى كل مكان . وكنا نجد  
ملتسنا حيناً بعد حين ، وفى النهاية سمحت الحكومة أن نكون ماسمى  
فما بعد « فرقة الأسعاف الهندية » . وكنا أبدينا رغبتنا فى أن تقوم  
بعمل النظافة فى المستشفيات وتعهدها بالكس وتقل الأوساخ . فلا  
عجب أن يكون تكوين فرقة اسعاف منا فكرة تقابل بكل ارتياح .  
واقترحنا أن ينضم إلينا الهنود الأجراء ذوو العقود . ولما كانت  
الحكومة فى احتياج اذ ذاك الى أكبر عدد ممكن من الرجال ، اتصل  
رجالها بالذين لديهم أجراء من ذوى العقود ، كى يسمحوا لرجالهم

بالتطوع . وبذلك استطعنا أن نكون فرقة للأسعاف عظيمة القدر  
مكونة من ١١٠٠ هندي غادرت دوربان الى خطوط النار . ولما عزمنا  
على المسير تلقينا من مستر اسكومب - الذي يعرفه القارىء من قبل -  
رسالة يبلغنا فيها تحياته وتبريكاته ، وكان اذ ذاك رئيس المتطوعين  
الأوروبيين في ناتال .

وكان عملنا هذا مادة متجددة تغذى جرائد جنوبي افريقية، بل كان رسالة  
جديدة من الهنود لأهل تلك البلاد ، لأنه لم يكن يتوقع أحد أن الهنود  
سوف يشتركون في هذه الحرب بأى عمل مهما كان نوعه . وكنا في  
البدء قد تلقينا دروسنا الأولية في الأسعاف الوقتي على الدكتور « بوذ »  
فرافقنا الى الميدان باعتباره مراقباً صحياً . وكان من رجال الدين الأتقياء،  
وعلى الرغم من أن عمله كان قاصراً على الاختلاط بالمسيحيين من  
الهنود ، فانه أخذ يخاطب الهنود جميعاً من كل ناحية ودين . وكان في  
الميدان فرقة اسعاف أوربية بجانب الفرقة الهندية ، وعمل كلاهما  
معاً في مكان واحد .

وسرعان ما تراكت علينا الأعمال ، وكانت أعمالاً أشق مما تصورنا .  
فان حمل الجرحى من الميدان سبعة أو ثمانية أميال كان جزءاً من عملنا  
اليومي . وكان يحدث في بعض الأحيان أن نضطر الى حمل جنود  
وضباط بالغة جراحهم ، مسافات بعيدة قد تبلغ بعض الأحيان خمساً  
وعشرين ميلاً . وقد بدأ بالمسير الساعة الثامنة صباحاً ، ونعني



خلال الطريق باعطاء الجرحى جرعات من العقاقير ، ونواصل المسير فلا  
نصل الى المستشفى الا في حدود الخامسة مساء . فلا شك اذن في أن  
العمل كان شاقاً مضمياً . وحدث مرة أن اضطررنا أن نحمل جرحى على  
أكتافنا ونسير بهم خمساً وعشرين ميلاً في يوم واحد . أضف الى ذلك  
أن الجيش البريطانى أصيب بفشل تلو فشل في بداية الحرب ، وجرح  
منه الكثيرون . ولهذا كان من رأي الضباط أنه من الضرورى أن  
يقلعوا عن فكرة عدم دخولنا إلى خطوط النار . ولكن يجب أن أقر هنا  
أنه عندما قامت مثل هذه الضرورة ، أخبرنا أن عقود التطوع تنص على  
أن نكون في حمى من مثل هذا الخطر ، فلم يكن لدى الجنرال « بولر »  
- Buller - فكرة أن يجبرنا على أن نعمل في خطوط النار ما لم نكن  
على استعداد لأن تقبل العمل في مثل هذا المأزق باختيارنا ، واذ ذاك  
يكون قبولنا أمراً يقابل بمنتهى الشكران والحمد . وكنا جميعاً في توق  
لأن ندخل منطقة الخطر ، ولم نرغب في أن نعمل خارجها منذ بدء  
عملنا . ولهذا سررنا بالفرصة السانحة . ولحسن الحظ لم يصب أحدنا  
بجرح سواء أمن الرصاص أم من أى شىء آخر . وعلى الرغم من أن  
فرقنا كثيراً ما كانت تتصل باعضاء فرق الاسعاف المؤقتة المكونة من  
الأوربيين أو تحتك بالجنود الاوربية ، فلم يشعر واحد منا أن الاوربيين  
أساءوا معاملته أو تصرفوا معه بشىء من الشذوذ . وكانت فرق الاسعاف  
المؤقتة مكونة من الأوربيين المقيمين في جنوبي افريقية ، وكلهم من الذين

أخذوا بضلع في الدعوة التي قامت ضد الهنود قبل الحرب . فاما عرفوا أن الهنود نسوا هذه الاساءات ، وانهم هبوا للعمل الى جانبهم في وقت الحاجة ، شعروا من أعماق قلوبهم بالعطف والمحبة . ولقد نوه الجنرال « بولر » بأعمالنا في بلاغاته ، ونال السبعة والثلاثون رئيساً الذين كانوا يقودون الفرق مداليات حربية اعترافا بفضلهم .

ولما تمت أعمال الجنرال « بولر » في انقاذ بلدة « لادى سميث » حلت فرقنا كما حلت الفرق الأوروبية . ولقد استمرت الحرب طويلا بعد ذلك . وظللنا على استعداد لأن نشترك فيها ، حتى لقد ذكر في أمر تسريح الفرق ان الحكومة لا تني عن دعوتنا للعمل إذا وقع ما يستدعي القيام بأعمال واسعة النطاق .

وأرى من الواجب أن أذكر حادثة ذات شأن في هذا الوطن . فقد كان في « لادى سميث » عندما حصرها البوير وهددوها عدد قليل من الهنود ، فضلا عن كان بها من الأوروبيين . وكان بعضهم يتعاطى التجارة ، بينما كان الآخرون من الأجراء ذوى العقود يعملون في مد السكك الحديدية أو كخدم لبعض الانجليز . ومن بينهم من يدعى « باربوسنغ » وكان يكنى دائما بالأجير - Coolie - وبالقرب من بلدة « لادى سميث » وضع البوير على تل مدفعا من مدافع الميدان ، هدد المدينة بالدمار، واستطاع أن يهدم بعض المباني وينهب بعض الأرواح . وكان لابد من أن تمر دقيقة أو دقيقتان قبل أن تصل كرة هذا المدفع إلى هدف

سددت اليه . فاذا أمكن أن ينذر السكان بان المدفع أطلق قبل أن تصل كرتة إلى حيث سددت ، أمكن للآهلين أن يهتموا ، وبذلك يدرءون عن أنفسهم الخطر . فكان « باربوسنغ » يجثم على شجرة قريبة من البلدة طيلة الوقت الذي كان يستعمل فيه المدفع لتهديدها ، وعيناه تنظران إلى التل ، ويقرع جرساً في اللحظة التي يلمح فيها نار المدفع . فاذا سمع السكان الجرس احتموا حالاً ونجوا بأنفسهم من كرة المدفع التي ينذرهم « الأجير » بأنها أطلقت لتحصد أرواحهم .

ولقد نوه الضابط الذي كان معهودا اليه أمر الدفاع عن « لادى سميث » بأعمال « باربوسنغ » فقال انه كان يقوم بعمله بكل نشاط وحماسة ، حتى انه لم ينحطى مرة في أن يقرع الناقوس كلما أطلق المدفع . ولا حاجة بي الى القول بأن حياته كانت دائماً في خطر طيلة عمله هذا .



## الفصل العاشر

### الطاعون الأسود

في « جوها نسبرج » ، حيث أقيمت بعد أن وضعت حرب البوير أوزارها ، أخذت أعمال القضاة تزداد وتتضاعف . وذات مرة كان عندي أربعة كتبة من الهنود ، ليس من الصعب علي أن أقول أنهم كانوا أقرب لأن اعتبرهم كأولادى منهم ككتبة مأجورين . ومع هذا فإنهم لم يكفوا للقيام بالعمل .

وبلغ بي الجهد منتهاه . فترا كمت على الأعمال ، حتى خيل الي انه من الصعب علي مها جهدت نفسي ، ان أقوم بأعمال مهنتي وأعمال العامة . وشعرت اني أميل الي استخدام كاتب أوروبي . ولكني لم أكن علي ثقة بأن أجد رجلا أو امرأة أوروبية تخدم رجلا من ذوى الألوان مثلى . غير اني صممت علي أن ابحث . فاتصلت برجل مهنته أن يقدم الكاتبين علي الآلة الكاتبة لمن يطلب أحداً منهم . وكنت أعرفه من قبل ، وسألته أن يبحث لي عن كاتب يعرف الاختزال اذا كان ذلك في مستطاعة . وكان لديه عدد منهم ووعدني بأنه يجتهد في أن يجعل أحدهم يقبل العمل معي . ووقع علي فتاة إيقوسيه تدعى مس «دك» - Miss Dick . كانت قد وصلت من إيقوسيا في تلك الآونة . ولم تكن تأنف من أن



تحصل على عيشها بطريق شريف اينما وجد العمل ، وكانت في حاجة .  
فأرسلها المتعهد الى وبأسرع مما كنت اتصور استطاعت أن تملكني  
- « انك لاتأنفين من أن تخدمى رجلا هندياً . »

فأجابتنى بحزم « أبدأ »

- « ماذا تطلين أجرا على عملك . »

- « هل تظن ان سبعة عشر جنيهاً ونصفاً يكون مرتباً كبيراً جداً . ؟

- « لا أعتبر انه كبير جداً اذا كنت تستطيعين أن تؤدى ما أطلب

من الأعمال . ومتى تبدئين ؟

- « الآن اذا أردت . »

فسررت من أجوبتها ، وبدأت املى عليها خطابات . وقبل ان يمضى

زمن طويل بدأت أشعر بأنها أصبحت فى منزلة ابنة أو أخت لى أكثر

من كاتبة . وقلما كنت اجد أى خطأ يستحق الملاحظة على عملها

معى . وكنت أعهد إليها غالباً بمراقبة الحسابات وكانت تبلغ بضعة آلاف

من الجنيهات ، كما جعلتها أمينة على دفاتر الحساب . ولقد نالت ثقتى

التامة ، وزادت العلاقة بأن جعلت تطلعنى على أفكارها وميولها .

واستشارتنى فى مسألة اختيار زوج لها ، فأخليت سبيلها مغتبطاً لتزوج .

وبمجرد ان أصبحت مس « دك » مسز « مكدونالد » تركت العمل

معى . ولكن كثيراً ما كانت تلبى كل ما أطلب منها اذا اضطرتنى

الظروف أن أُلجأ اليها .

وكانت لدى ضرورة في أن تحمل محلها كاتبة أخرى ، وساعدني الحظ في أن أجد فتاة أخرى تدعى مس «شلسين» - Miss Schelsin - قدمها إلى مستر «كلنباخ» . وهي الآن رئيسة مدرسة البنات في الترنسفال ولم تكن تتجاوز السابعة عشرة عندما قدمت إلى . على أن بعض ميوطها ونزعاتها كانت أكثر مما يمكن أن أحتمله أو يحتمله مستر «كلنباخ» . وقد أخذت تعمل لتتعلم أكثر مما تؤدي عملاً . غير أنها لم تكن مصابة بمرض اللون . ولم تكن لتقيم أي اعتبار لا للسن ولا لتجارب الحياة . فأنها لا تتأخر عن أن تهين أي رجل وأن تصارحه برأيها فيه . وكثيراً ما كانت توقعني بهورها واندفاعها في مآزق حرجة ، ولكن كان في مزاجها من الصدق والاخلاص ما يكفي لأن يذهب بكل أثر قد يخلقه تصرفها .

وكانت تضحيتها كبيرة . فقد ظلت زمناً طويلاً لا تتناول أكثر من ستة جنبيات كل شهر ، ورفضت أن تأخذ أكثر من عشرة جنبيات . ولما أردت أن أحملها على أن تأخذ أزيد من هذا المبلغ كانت تردني دائماً قائلة - « اني لم أوجد هنا لآخذ مرتباً منك . اني انما أعمل معك لأنني أحب أن أعمل معك وأحب مثلك السامية لا أكثر » . وكانت شجاعته لا تقل عن تضحيتها . انها من النساء القلائل اللاتي عرفهن فعرفت فيهن خلقاً أنقى من البلور وشجاعة تتضاءل بجانبها شجاعة الفرسان . ولقد أصبحت الآن امرأة متقدمة في السن . ولست أعرف

من أفكارها الآن بقدر ما كانت تعمل معي ، ولكني لا أتوانى عن القول بأن صلتى بهذه السيدة ستظل من الذكريات المقدسة عندي . ولهذا أعتقد انى انما أكون خائناً للحق اذا أنا حاولت أن أخفى شيئاً مما أعرف عنها . لم تكن تفرق بين الليل والنهار فى العمل للغرض الذى أخدمه . كانت تخاطر بالخروج فى جنح الظلام لتأدية بعض الخدمات وحيدة وترفض بغضب أن يخرج معها أحد لحراستها . وتطلع اليها ألوف من الهنود الأشداء والشجعان يستوحون منها النصيح والهداية . وفى أثناء القيام بحركة « الستيا جراها » Satyagraha سجن جميع الزعماء على وجه التقريب فقادت هى الحركة بمفردها ومن غير معين . فكانت تقود الألوف وترد على عدد عظيم من المراسلات وتقوم بشؤون جريدة «الرأى الهندى » - Indian Opinion - وتحمل كل هذا على أكتافها من غير أن تشكو نصيباً أو تشعر بملل .

وكان « جوكهال » - أحد زعماء الهند - يعرف كل الذين يتصلون بى فى العمل ويشاركونى فيه . ولقد امتدح الكثيرين منهم وقدر أعمالهم . ولكنه أعطى المقام الاول لس « شلسين » وفضلها على كل الذين كانوا يعملون معى من أوروبين وهنود . فقال لى « قلما وقعت على مثل التضحية أو الشجاعة أو الزهد الذى رأيتة فى مس « شلسين » . انها تستحق المقام الأول بين كل الذين يعملون معك » . وفى ذلك الوقت تقدم إلى السيد « مدنجيت » بفكرة إصدار

«الرأى الهندى» وأراد أن أشير عليه فى الأمر . وكانت فى يده مطبعة يديرها فوافقت على مقترحه ، وصدرت الجريدة فى سنة ١٩٠٤ وعلى رئاسة تحريرها السيد «منشو خلال نازار» . ولكن كان على أن أحمل عبء العمل كله ، لأنى كنت أغلب الاحيان أتقدم بحمل المسؤولية عن كل ما يتعلق بالجريدة . ولم يكن هذا لأن السيد «منشو خلال» لم يكن قادراً على القيام بأعبائها ، فانه كان يقوم بعمل صحفى واسع النطاق فى الهند ، بل لأنه لم يكن يتقدم للكتابة فى المسائل المتعلقة بجنوب افريقية مادمت موجوداً . وكان له الثقة التامة بقدرتى على الحكم فى الأشياء ، ولذلك ألقى على كاهلى عبء القيام بتحرير الجزء الصادر من قلم التحرير ومباشرته .

و بعد أن مضت كل هذه الأعوام على صدور هذه الجريدة أستطيع أن أحكم على أنها خدمت الجالية الهندية فى جنوب افريقية أجل خدمة . فإننا لم نفكر مطلقاً فى أن نجعل هذه الجريدة عملاً تجارياً . وفى خلال المدة التى ظلت هذه الجريدة تحت اشرافى ، لم يصبها من تغير فى الاتجاه الا وكان سببه تغير عميق يصيبنى فى حياتى . فالرأى الهندى وجريدة الهند الفتاة و نافاجيفان Navajivan وهى الجريدة الاسبوعية الكجراتية التى أصدرها ، كلها بمثابة مرآة ينعكس عليها جزء من حياتى . فكنت افرغ فى أعمدة هذه الجريدة اسبوعاً بعد آخر عصارة ذهنى و خلاصة روحى ، وأخذت افسر مبادئ «الستيا جراها» وعملياتها . فى خلال

عشرة أعوام ، أى من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤ ، ماعدا العطلة الاجبارية التى كنت أقضيها فى السجن ، لم يصدر عدد منها من غير أن يكون لى فيه مقالة الا فى النادر القليل . ولا أذكر انى خطت كلمة واحدة فى هذه المقالات قبل ان اقتلها بحثاً وتمحيصاً ، أو كلمة حاولت فيها أن أبالغ مختاراً ، أو أى شىء قصدت منه مجرد ارضاء الناس . وبالحق ان اصدار هذه الجريدة كان لى بمثابة تدريب علمى كيف أضبط نفسى ، كما كانت لاصدقائى بيئة حسنة يتصلون من طريقها بأفكارى . وكان المنتقدون قلما يقعون على شىء يستحق أن يوجه النقد اليه . وفى الواقع اعلم أن النعمة التى كنت احرر بها مقالاتى فى «الرأى الهندى» كانت تضطر النقاد الى أن يلجموا أقلامهم . ولا شك فى أن القيام بحركة «الستيا جراها» كانت مستحيلة بدون هذه الصحيفة . أما بالنسبة الى فقد أصبحت مدرسة أدرس فيها الطبع البشرى فى كل حالاته وعلى مختلف ألوانه . ولما كان همى أن احدث رابطة تقية صافية بين المحرر وقرائه ، غمرنى سيل من المراسلات اعتاد كاتبوها أن يصارحونى بما فى قلوبهم . فكان بعضها أخوياً مشجعاً وبعضها انتقادياً أو هجومياً على مقتضى مزاج الدين يكتبونها . فكانت هذه المراسلات مدرسة واسعة أقرأ فيها ما يصلنى منها وأهضمه هضمها كافيّاً ثم أجيب عليه . حتى لقد خيل الى أن الجالية كانت تشعر أن من واجبها أن تكاتبنى . وهنا أدركت قيمة المسؤولية التى تلقى على كاهل الصحفي ، كما كانت السبلة



التي أصبحت لي على الجالية من طريق هذه الصحيفة، سبباً في أن تكمل  
حملتي المقبلة بالنجاح وأن تصبح محترمة الجانب قوية لا تقاوم .  
عند ما بدأت بإصدار هذه الجريدة ، وفي أول شهر من عمرها ،  
استبنت بجلاء أن أول واجب الصحافة ينحصر في الخدمة العامة . فان  
الصحافة قوة عظيمة . وكما ان السيل الجارف الذي لا يصدده عن جريانه  
شيء ، قد يفرق البلاد ويذهب بالحراث والنسل ، كذلك يكون شأن القلم  
الجامح فانه لن يخلق إلا دماراً . أما اذا كان السلطان الذي يحكم القلم مستمداً  
من عوامل خارجية ، فان الأثر يكون أشد تسمياً للأفكار وأمعن تهديماً  
من الحاجة الى الهوادة والتريث . ولن يكون للقلم من أثر تجني فوائده ،  
إلا اذا كان السلطان الذي يحكمه مستمداً من ضمير الكاتب ووجدانه .  
كتب على بعض الطوائف التي تؤدي إلينا أعظم الخدمات وأجلها ،  
وهم الذين اخترنا نحن الهنود ان ندعوهم انجاساً أو منبوذين ، ان  
يعزلوا في أماكن بعيدة عن جنبات المدائن والقرى . وكذلك كان الحال  
في أوروبا النصرانية ، فقد مر على اليهود عصر كانوا فيه انجاس أوروبا ،  
حتى لقد أطلق على الأحياء التي كانوا يسكنونها اسم بنغيض ممقوت .  
Shetto - وعلى نفس هذه القاعدة أصبحنا انجاس جنوب افريقية .  
كان قداماء اليهود يعتقدون انهم شعب الله المختار ، ويخرجون عن  
هذا الاختيار كل الشعوب والأمم الأخرى . فكانت النتيجة أن تقع  
على اخلافهم لعنة شديدة وعقاب مخيف تلقاء خيلائهم . وكذلك يحدث

مع الهنود فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم « آرياس » - Aryas - متمدنين ، مع اعتبار جزء من ابناء عموماتهم وممن يمتون اليهم بصلة الدم ، انجاساً مبيوذين ، فكانت النتيجة أن يحل بهم انتقام الهى لا ينال الهنود النازلين بجنوبى افريقية وخدم بل يحل بالمسامين والبارسين ومعهم أولئك الذين يذوهم وسموهم انجاساً من أهل وطنهم وممن لهم جلود لا تختلف فى اللون عن جلودهم .

فى جنوبى افريقية أطلق علينا ذلك الاسم المبعوض المهن «أجراء» Coolies - وهذه الكلمة فى الهند تدل على « الجمال » ، ولكنها فى جنوبى افريقية تدل على معنى حقير دنس ، وتنقل الى ذهن الأوروبى نفس المعنى الذى ينقله اسم الأنجاس فى الهند ، حتى لقد سميت الأحياء التى خصصت للأجراء باسم « حظائر الأجراء » . وكان فى جوهانسبرج حظيرة من هذه الحظائر . فكان الهنود يكبدسون فيها تكديساً ، لأن الحظيرة لم تكن لتتسع فى المساحة بنسبة ازدياد ساكنيها . وفضلاً عن أن البلدية لم تكن لتعنى بتنظيف المراحيض الا اتفاقاً ، فانها أهملت أن تتخذ أى اجراء صحى ، فضلاً عن ترك الطرق وسخة غير معبدة ولا مبنية . وكانت بعيدة عن أن تفكر فى صحة الذين يحلون بهذه الحظائر . والهنود الذين يعيشون فيها ، كانوا على جهل تام بالقواعد الصحية ، ولم يكونوا ليقوموا بشىء من هذا القبيل مالم ترشداهم البلدية اليه .

ان ذلك الترك الاجرامى الذى تعمدته البلدية ، وجهل النزلاء الهنود ،

تضافرا على أن يجعلوا من هذه الحظائر موطئا للأمراض . فالبلدية على أنها كانت بعيدة عن أن تعمل أى عمل من شأنه أن يحسن الحالة ، مع أن هذا كان من واجبيها ، اتخذت هذه الحالة التى نشأت عن اها لها بالذات ذريعة لأن تأمر بهدم المحلة التى يسكنها الأجراء ، واستصدرت أمراً بنزع ملكيتها من الذين يملكونها .

وبينما كان الهنود مدعورين فزعين من هذه الحال تفشى وباء الطاعون الأسود ، ويدعى الطاعون النيومونى أى الرئوى ، وهو أنكى وأشد وطأة من الطاعون الدملى . ومن حسن الحظ أن محلة الهنود لم تكن مصدر الوباء ، بل ان الوباء تفشى فى منجم من مناجم الذهب بالقرب من جوها نسبرج . وكان أكثر العمال فى هذا المنجم من العبيد ، الذين لم يكن ليسأل عن نظافتهم وصحتهم إلا مؤاجروهم من البيض . وكان من بين العمال الذين يعملون هناك عدد قليل من الهنود ، أصيب ثلاثة وعشرون منهم بهذا الوباء ، وعادوا ذات ليلة الى حظائرهم يحملون معهم جراثيم هذا المرض الخبيث . واتفق أنه كان هناك السيد « مدنجيت » يسعى لاجتلاب مشتركين لجرادة « الرأى الهندى » . وكان رجلا لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه . فتأثر كل التأثر من مرأى هؤلاء الفرائس يقتلهم المرض ويقصر آجالهم الوباء ، فأرسل إلى مذكرة كتبها بالقلم الرصاص فيها ما يلى :

« حدث وباء فجائي بالطاعون الأسود . والواجب عليك أن تحضر  
توّاً لتتخذ الاجراءات الضرورية ، والا فاننا لا بد من أن نحتمل المسؤولية .  
أرجوك أن تحضر بسرعة » .

وكان السيد « مدنجيت » قد اقتحم باب منزل خال ووضع فيه كل  
المصابين . فركبت دراجتي الى المحلة مسرعاً وأرسلت مذكرة الى كاتب  
المدينة أخطره بالحالة . وأسرع الدكتور « وليم جدفري » الذي كان  
يزاول مهنته في جوها نسبرج الى النجدة بمجرد أن علم بهذه الأخبار ،  
وأخذ يقوم بمهمة الطبيب والممرض معاً للمصابين . ويقيني الذي يقوم  
على تجاربي أن قلب الانسان ما دام طاهراً نقياً ، فان الكوارث تجر  
معها الرجال والمعدات لمقاومتها . وكان في مكنتي أربعة من الهنود هم  
كالياننداس ومنكلال واثنان لا أذكر اسميهما . لقد جاء لي بكالياننداس  
أبوه لأقوم على تهذيبه . واني لأصرح بأني قلما التقيت بهندي في جنوبي  
افريقية أطوع منه أو أكثر جاذبية . وكان لحسن الحظ غير متزوج  
إذ ذاك ، ولذا لم أتوان في أن أعهد اليه بمهمات يستدعي القيام بها أن  
يجتاز المرء ما زق مهما كانت حرجة . أما منكلال فقد استخدمته في  
جوها نسبرج . وكان أيضاً غير متزوج على ما أستطيع أن أذكر .  
وصممت على أن أضحي بأربعتهم . ولك أن تسميهم بما شئت ، فادعهم  
كتبتى أو زملائي أو أولادي . ولم يكن بي من حاجة لأن أستشير  
كالياننداس . في حين أن الآخرين أظهروا استعدادهم التام للخدمة بمجرد

أن عرضت عليهم الأمر ، بل قالوا « حينما تذهب نذهب » ، فكان  
لجوابهم على اختصاره رنة حلوة لن أنساها .

وكانت ليلة ليلاء . تلك الليلة التي قننا في خلالها بالتمريض مسهدين .  
و كنت قد قمت من قبل بتمريض كثير من المرضى ، ولكن لم أمرض  
مصاباً بالطاعون الأسود . ولكن اتضح لي أن جراءة الدكتور  
« جدفري » وجسارته ، معدية تطفى على من حوله . ولم يكن هناك من  
حاجة للقيام بمهمات كثيرة . فان واجبنا انحصر في أن نعطي للمرضى  
جرعاتهم بنظام ، وأن نقوم بتلبية طلباتهم ، وأن نحفظهم وبفراشهم في  
حالة نظافة تامة . ولقد اغتبطت كل الاغتباط بما رأيت في فتيانى من  
النشاط في العمل وعدم الاكترات بالمتاعب والبعد عن الخوف . وأما  
تقدير الشجاعة التي أبدتها دكتور « جدفري » ورجل محنك مثل  
« مدنجيت » فما لا يقوى قلمي على وصفه . وكم كانت الروح التي  
أبداها الفتيان نبيلة سامية .

ولقد شكرنى كاتب البلدة على أنى استعملت البيت الخالى كستشفى .  
واعترف لي فوق ذلك بأن مجلس البلدة لم يكن لديه المؤهلات التي يمكنه  
بها أن يقاوم مثل هذه المفاجأة ، ولكنه مستعد لأن يقوم بكل المساعدة  
التي في قدرته . وكذلك كان شأن البلدية فانها لم تكد تستيقظ  
وتشعر بمسؤوليتها ، حتى أخذت تعمل ما في استطاعها بكل الوسائل  
الممكنة .



وفي اليوم التالي وضعت البلدية تحت تصرفي مظلة ، واقترحت أن ينقل المرضى إليها . ولكن البلدية لم تقم بتنظيفها . فانها كانت سهمة . وغير نظيفة . فقمنا بتنظيفها ، وحصلنا على بعض الأسرة من محسنى الهنود ، ونسقنا مستشفى مؤقتا . وأرسلت إلينا البلدية ممرضة ، ولكن دكتور « جدفري » ظل يواصل العمل .

وكانت الممرضة سيدة رحيمة القلب ، فأخذت تعنى بالمرضى عناية الممرضات العارفات بالواجب ، ولكننا منعناها عن أن تمسهم ، حتى لا تنتقل العدوى إليها .

ومات عشرون عندما كنا فى المظلة . وفى هذه الآونة كانت البلدية مشغولة فى اتخاذ اجراءات أخرى . وكانت هناك مصحة للأمراض المعدية تبعد عن جوها نسبرج سبعة أميال تقريبا . فنقل الثلاثة الباقون إلى خيام بالقرب منها ، وعملت الترتيبات اللازمة لإرسال الاصابات الجديدة إليها . وفى خلال بضعة أيام سمعنا أن الممرضة الرحيمة أصيبت بالمرض وقضت نحبها .

وكنت لما انتشر الوباء قد أرسلت إلى الجرائد مقالا ملتهبا . أتهم فيه البلدية بالاهمال وأحملها مسؤولية التغاضى عن القيام بواجبها نحو محلة الهنود بعد أن أصبحت من ممتلكاتها ، وأعزو إليها السبب فى انتشار الوباء . فكان من أثر هذا المقال أن انضم إلى مستر « هنرى بولاك » ، كما كان سيباً فى صداقتى بالمحترم « يوسف دوك » .

## الفصل الحادى عشر

« حتى هذه النهاية »

قلت فى فصل سابق إنى اعتدت أن أتناول وجباتى فى مطعم نباتى .  
وهناك التقيت بمستر « البرت وست » . وكنا نلتقى هناك كل مساء  
ثم نخرج للنزهة بعد العشاء . فقرأ مقالى فى الصحف عن تفشى  
الطاعون ، ولما لم يجدنى فى المطعم ساورته الوسوس فى أمرى .  
وكنت والمشتغلون معى قد أخذنا ننحرف من أغذيتنا منذ أن تفشى  
الوباء ، لأنى كنت من قبل قد اتبعت قاعدة التخفيف من الأغذية  
عند انتشار الأوبئة . وكان هذا سبباً فى أن أمتنع عن تناول وجبة  
المساء كلية . وكنت أعرف صاحب المطعم معرفة أكيدة ، فعرفته بأنى  
أعنى بأمر المصايين بالطاعون ، ولذلك أرغب فى أن أتفادى الاتصال  
بالمترددين على المطعم جهد المستطاع ، فأنتهى من وجبتى قبل أن يصل  
غيرى إلى المكان .

ولما لم يجدنى فى المطعم يومين أو ثلاثة على التوالى ، زارنى مستر  
« وست » فى منزلى ذات يوم فى الصباح الباكر ، وكنت أتهيأ  
للخروج للنزهة . ولما فتحت له الباب بادرنى بقوله - « لم أجدك فى المطعم

وخفت أن يكون قد أصابك مكروه . ففكرت في أن أحضر منذ الصباح لأكون على ثقة من أن أجدك في البيت . والآن تجدني تحت أمرك . انى على استعداد أن أخدم المرضى . وأنت تعرف انى ليس ورائى من يحتاج إلىّ . » .

فعبرت له عن شكرى وامتنانى ومن غير أن أفكر لحظة واحدة أجبته - « انى سوف لا أشغلك كمرض . واذا لم تقع اصابات أخرى ، فانا سوف نفرغ من عملنا فى التمريض بعد يوم أو اثنين . ولكن لى مع هذا أمر آخر » .

- « ما هو »

- « هل تستطيع أن تعنى بمطبعة « الرأى الهندى » فى دوربان ؟ »  
- « انك تعلم أن عندى مطبعة . والراجع انى سأذهب ، ولكن هل تسمح أن أعطيك رأى الأخير فى المساء ؟ فأبقى الكلام فى هذا الأمر إلى نزهتنا فى الليل . »

فاغتبطت بهذا . وفى أثناء تريضنا فى المساء أخبرنى أنه عزم على الذهاب . ولم يكن المرتب بأمر ذى بال عنده ، لأن المال لم يكن من مغرياته . ولكن اتفقنا على أن يكون مرتبه عشرة جنيهات انجليزية وجزءاً من الربح : وفى اليوم التالى سافر متر « وست » الى دوربان مع بريد المساء . ومنذ ذلك الوقت حتى الساعة التى فارقت فيها شواطىء جنوبي افريقية ظل مستر « وست » يشاطرنى الأفراح والأتراح .

كان مستر « وست » من أسرة مهنتها الزراعة في مدينة « لوث »  
- Louth - وكان تعليمه قاصراً علي ما يمكن تحصيله من مدرسة عادية ،  
ولكن مدرسة التجارب عامته كثيراً ، كما استطاع أن يعلم نفسه بنفسه .  
ولقد عرفته فعرفت أنه كان دائماً رجلاً انجليزياً من ذلك الطابع النقي  
القلب المزن الذي يخاف الله ويحب الانسانية .

وعلى الرغم من أني والمشتغلين معي قد أعطينا من عملنا في تريض  
المصابين بالوباء ، فقد كان أماننا كثير من الأعمال التي تربت على  
تفشي الوباء ، تتطلب الانجاز . وكنت قد فرغت من مسألة اهمال البلدية  
للحى الهندي . ولكن البلدية لم تعن من الأمر بأكثر مما كان يهملها  
من صحة السكان الاوروبيين . فأخذت تثر الأموال ثراً وتبدها  
تبديداً لتقاوم الطاعون . وعلى الرغم من الحوادث الاجرامية التي  
عدتها وألقت مسؤوليتها على البلدية من اهمال الهنود وانكار وجودهم  
كأحياء بشرية ، لم يسعني إلا أن أشكر لها اهتمامها وجزعها على حماية  
أرواح الاوروبيين ، حتى اني لم أتوان عن أن أمد لها يدي بكل مساعدة  
ممكنة لتخفيف الحمل عنها في مهمتها الشاقة . ولقد شعرت بأني اذا  
أمسكت عن أن أمد يد المعاونة ، فان مهمة البلدية ستكون أكثر  
صعوبة مما لو عاونتها ، ولم تكن تتواني من ناحيتها عن استعمال القوى  
المسلحة ، وتفعل أشنع ما يتصور من الحوادث . ولكن سلطات  
البلدية كانت مغتبطة بسلوك الهنود ، حتى ان كل الاعمال التي اتصلت

فيا بعد بمقاومة الطاعون قد سهلت وعبدت سبيلها . ولقد استعملت كل نفوذى لدى الهنود كى أجعلهم يخضعون لما تأمر به البلدية ويؤدون لها ما تحتاج اليه . وكان من الصعب على الهنود أن يذهبوا هذا المذهب حتى النهاية ، ولكنى أتذكر أنه لم يخالف واحد منهم نصيحة أباديتها .

ووضعت محلة الهنود تحت حراسة يقظة قوية ، حتى ان الدخول اليها والخروج منها كان مستحيلا بغير أمر خاص . غير أنى والمشتغلين معى كان مننا ترخيص حر يبيع لنا الدخول والخروج كيفما نشاء . وكان الغرض من هذا أن ينحى السكان هذه المحلة ويعيشوا فى خيام تضرب لهم فى سهل متسع يبعد عن جوها نسبرج ثلاثة عشر ميلا لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم تحرق المحلة حتى تدمرها النار تدميراً . وكان ترتيب العيش فى الخيام، وما يقتضى لذلك من حمل الزاد والحاجيات الأخرى يحتاج الى زمن ما ، وفى خلال هذا الزمن ، ضربت الحراسة على المحلة . ولكن الناس كانوا وجلين مشفقين . غير أنى وجودى معهم كان يسليهم ويطمئئهم .

وأشعلت النيران فى المحلة بعد اخلائها مباشرة . ولهذا السبب وفى الوقت نفسه أحرقت البلدية كل الاخشاب التى كانت تملكها فى السوق ، وتحملت خسارة تبلغ عشرة آلاف من الجنيهات . أما السبب الذى حملها على حرق أخشابها، فلأنها اكتشفت بعض قرآن ميتة بين



الأخشاب . وبهذا كان من الواجب أن تمضى البلدية في تحمل نفقات  
باهظة ، ولكنها بذلك نجحت في التغلب على انتشار الطاعون وتنفست  
المدينة الصعداء مرة أخرى .

وكان الطاعون سبباً في أن يعظم قدرى ويرتفع شأنى بين الهنود  
الفقراء ، وازداد عملى وتضاعفت واجباتى فازدادت مسؤولياتى . كما  
كانت اتصالاتى الجديدة بالأوروبيين وازديادها توثيقاً، سبباً في أن تتكاثر  
التزاماتى الأدبية تلقاء الجميع .

وفى ذلك الوقت تعرفت بمستر « هنرى بولاك » فى نفس المطعم  
النباتى الذى تعرفت فيه بمستر « وست » . فذات ليلة أرسل إلى شاب  
كان يأكل على مائدة بعيدة عنى بطاقته، مبدياً رغبته فى أن يقابلنى .  
فسألته أن يشاركنى الجلوس على مائدتى ، ففعل .

— « أنا سكرتير تحرير « الناقد » - Critic - ولما قرأت مقالك فى  
الصحف عن تفشى الطاعون شعرت برغبة ملحة فى أن أراك . وانى  
لسعيد بهذه الفرصة . »

ولقد ملكنى مستر « بولاك » منذ أول مقابلة اذ آنست فيه  
الصراحة والاخلاص . ومنذ أول لقاء توثقت علاقتنا ، وظهر أن آراءنا  
ومبادئنا تتفق فى كل المسائل الجوهرية . كان محباً للحياة البسيطة ، وفيه  
كفاية نادرة تمكنه من أن ينفذ كل الأشياء التى تلائم عقله ويخرجها  
الى حيز العمل ، حتى ان بعض الانقلابات التى أحدثها فى حياته كانت

موقوتة وبنيت ساعتها فضلاً عن التطرف والمغالاة فيها .  
وكانت « الرأى الهندى » تزيد أعباؤها ونفقاتها المالية يوماً بعد يوم .  
وأول تقرير تسلمته من مستر « وست » عن حالتها كان مزعجاً . قال  
في تقريره - « انى لا أنتظر من العمل ذلك الربح الذى توقعته . بل  
أخشى أن تنالنا خسارة . فالكتب ليست مرتبة ، وهناك متأخرات  
يجب تحصيلها - ولكن الانسان لا يستطيع أن يقف لها على أول يعرف  
أو آخر يوصف . وهناك حاجة ماسة للقيام بعارة واسعة النطاق في  
كل أطراف العمل . غير أن هذا كله لا يجب أن يزعجك . فانى  
سأجهد في أن أصلح الأحوال على قدر ما أستطيع . وسأبقى سواء  
أحصلت على ربح أم لم أحصل » .

وكان من الممكن أن يترك مستر « وست » العمل بمجرد أن رأى  
أن أمله في الربح مفقود ، ولم يكن لى وجه أن أومه . والواقع أنه  
كان من حقه أن يقاضينى ، لأنى أوهمته بأن العمل مربح من غير أن  
يكون بين يدي برهان قاطع على ذلك . ولكنه لم يتفوه يوماً بكلمة  
يشتم منها ربح الشكوى أو التامل . غير أنى شعرت بأن هذا الأمر جعل  
مستر « وست » يظن بأنى غير ساذج .

لما تلقيت كتاب مستر « وست » سافرت تواء إلى ناتال . وكنت  
قد وثقت فى مستر « بولاك » الثقة كلها ، وقد حضر ليودعنى على المحطة  
وترك معى كتاباً لأقرأه خلال الطريق ، وأكد لى أنى سوف أشغف به .

أما هذا الكتاب فكان كتاب « رسكن » الذي عنوانه « حتى هذه  
النهاية » - Unto This Last .

لم أستطع أن ألقى الكتاب من يدي منذ فتحته . لقد اختلبنى .  
ومسافة السفر من جوها نسبرج إلى ناتال أربعة وعشرون ساعة .  
فوصل القطار إلى دوربان في المساء . ولكن لم أستطع أن أنام تلك الليلة ،  
فاني كنت قد صممت أن أغير خطتي في الحياة مستهدياً بالضوء الذي  
استمدته من الكتاب . ولم أكن قد قرأت كتاباً من تأليف  
« رسكن » قبل ذلك الوقت . ففي حياتي الدراسية ندر أن قرأت كتابا  
خارجاً عن المتون المدرسية ، وبعد أن دلفت الى الحياة العامة ، لم يكن  
لدى من وقت كاف للقراءة . وترتب على هذا أن معرفتي المستمدة من  
الكتب كانت ضئيلة . وأعتقد بأنني لم أفقد كثيراً من جراء هذا القيد  
الجبرى . بل على الضد من ذلك أعتقد أن قلة قراءتي جعلتني أهضم  
ما قرأت هضمًا كافيًا . والكتاب الوحيد الذي استطاع أن يحدث انقلابا  
سريعاً في حياتي هو كتاب « رسكن » - حتى هذه النهاية - ولشغفي  
به ترجمته الى اللغة الكجراتية .

ويقيني أنني استكشفت في كتاب « رسكن » هذا بعضاً من أعمق  
ما تأصل في نفسي من المعتقدات ، وكان هذا هو السبب في أن الكتاب  
اختلبنى واستولى على كل الاستيلاء ، وحملى على أن أحدث انقلابا  
جوهريا في حياتي . فان الشاعر هو ذلك الرجل الذي يستطيع أن يوقظ

الخير الكامن في قلب الانسان . وليس كل الشعراء متساوين في التأثير  
لأن كل انسان انما ينشأ نشأة تختلف مقاييسها عن نشأة غيره .

واليك الصورة التي فهمت بها تعاليم « رسكن ! »

أولاً - ان خير الفرد مشمول في خير المجموع

ثانياً - ان عمل المحامي له نفس القيمة التي لعمل الخلاق ، في أن

لكليهما الحق في أن يعيش من عمله .

ثالثاً - أن حياة العمل - أي حياة الزارع والصانع اليدوي - هي

الحياة الجديرة بالانسان العاقل .

وكنت أعرف التعليم الأول . أما الثاني فكنت أشعر به ، ولكن

لا أتبينه تماماً . وأما الثالث فلم يطرأ لي على بال . غير أن « رسكن »

جعله أمامي جلياً واضحاً على قدر ما أعتقد بأن التعليمين الثاني والثالث

انما يندمجان في الاول .

واستيقظت مع الفجر وفي حرقه لآت أضع هذه التعاليم موضع

التنفيذ .

وتناقشت مع مستر « وست » فيما كان من أثر كتاب « رسكن »

في نفسي وعقلي ، واقترحت عليه أن ننقل « الرأي الهندي » الى مزرعة

يعمل فيها الجميع وبعرق جبينهم يتقاضون أجوراً متساوية ويعنون

بالطبعة في وقت الفراغ . ووافق مستر « وست » على مقترحي وحددنا

ثلاثة جنهات أجراً لكل انسان ، مع غض النظر عن اللون والقومية .

ولكن واجهتنا مشكلة. فهل يقبل العشرة العمال الذين يعملون في المطبعة على أن ينتقلوا معها إلى مزرعة ويقنعون بأجر معين كهذا ؟ غير أننا انتهينا من التفكير في هذا الأمر بأن الذي لا يقبل منهم الأجر المحدد يبقى أجره كما هو ، ويجتهد تدرجاً أن يتقرب من الأغراض التي نرمي إليها حتى يصبح عضواً في المستعمرة الجديدة .

من بين الذين كانوا يعملون في المطبعة « شجا نلال غاندي » أحد أبناء أعمامى . فأدليت إليه بمقترحي في نفس الوقت الذي ناقشت فيه مستر « وست » . وكان له زوج وأولاد . ولكنه تعود منذ صغره أن يعمل معى ويطيعنى ، لثقتة بى . فوافق من غير أن يناقش أو يسأل سؤالا . وظل فى كنفى منذ ذلك الحين . وكان معنا رجل ميكانيكى هو « غوفندسوامى » فقبل المقترح أيضاً . أما الباقون فلم يقبلوا المقترح ولكنهم صارحونى بأنهم يذهبون معى إلى حيث أذهب .

وأذكر أنى لم أحتج الى أكثر من يومين لأفرغ من هذا الترتيب مع العمال . وفى الحال أعلنت عن شراء قطعة أرض تقع قريباً من احدى محطات سكة الحديد بالقرب من دوربان . فوصلنى عرض يتعلق بمزرعة تدعى « العنقاء » - phoenix - وذهبت وبصحبتي مستر « وست » لنعاينها ، وفى أسبوع اشترت عشرين « أكرأ » من الارض ، تحتوى على ينبوع جميل وقليل من شجر البرتقال والمانجو . وكان بجوارها مساحة تبلغ ثمانين « أكرأ » فيها عدد أكبر من أشجار الثمار وبيت ريفى



متخرب . فاشترينا هذه المساحة أيضاً ، ودفعنا في الاثنين ثمنا ألفاً من الجنيهات الانجليزية .

وكان « بارسى رستومجى » عونى وساعدى فى كل ما يماثل هذه المشاريع . ففتن بهذا العمل . ووضع تحت تصرفى أنقاض مظلة حديدية كبيرة وغيرها من مواد البناء . وساعدنى بعض التجارين الهنود الذين عملوا معى فى حرب البوير على اقامة مكان للطبعة .

وبدأت أعمل كى أحمل أولئك الذين قدموا معى من الهند من الأقارب والأصدقاء ليعملوا فى جنوبى افريقية ، وكانوا مشغولين بأعمال مختلفة . على أنهم هبطوا تلك البلاد ليبحثوا عن الثروة ، فكان من أشق الأعمال أن أستغويهم ، ولكن البعض وافق على الذهاب معى . وليس لى أن أسجل هنا من أسمائهم إلا اسم « ماجنلال غاندى » فانه وحده بقى معى ، فى حين عاد الباقون إلى أعمالهم الأولى . أما « ماجنلال » فقد ترك عمله ليلقى بدلوه مع دلوى ، وبكفايته وتضحيته واستماتته فى سبيل العمل ، يستحق أن يوضع فى الصف الأول مع الذين عاونونى فى هذه التجارب الخلقية العنيفة ، فضلاً عن أنه كان صانعاً يدوياً من أمهر الصناع . وهو من هذه الناحية يجب أن يسجل اسمه فى رأس القائمة .

كونت مستعمرة العنقاء سنة ١٩٠٤ وعلى الرغم من العقبات الشديدة فان « الرأى الهندى » مازالت تصدر عن هذه المستعمرة حتى الآن .

ولم يكن من الهين أن يصدر أول عدد من الجريدة عن مستعمرة العنقاء ، واذا لم أكن قد اتخذت احتياطين بعينيهما، لتعذر اصدار العدد الأول هناك ، ولتركنا أمره بتاتا . فلم يكن لدى من رغبة في أن تكون لدينا آلة لإدارة المطبعة ، وفكرت أن ادارتها باليد أكثر ملاءمة مع البيئة الجديدة ، كما عزمت على أن يكون كل العمل الزراعي يدوياً . ولكن خشية أن يكون هذا الأمر غير ممكن التنفيذ ، نقلنا معنا آلة لإدارة المطبعة ، تدار بالبتروول . غير أني اقترحت على مستر « وست » أن نحطاط فنصطحب شيئاً يمكن أن يدير المطبعة باليد في حالة ما اذا تعطلت الآلة عن العمل . فاشترى عجلة يمكن بها أن تدار المطبعة بقوة السواعد .

ولن أنسى ما حميت أول ليلة . فقد ربطنا الصحف المصفوفة بالحروف على نحاسة المطبعة ، ولكن الآلة تعطلت عن الدوران . فاستدعينا من دوربان مهندساً ليصلح من شأنها . فعمل ومستر « وست » كل ما استطاعا ، ولكن بغير جدوى . وتولانا القلق جميعاً . فحضر الى مستر « وست » أخيراً وعيناه مغرورقتان بالدمع وقال لي - « ان الآلة سوف لاتدور ، وأخشى أن تتعطل الصحيفة عن الصدور في ميعادها » .

فأجبتة : « اذا كان الأمر كذلك فلا حيلة لنا . وكذلك لافائدة من ذرف الدموع . ولكن الفائدة في أن نعمل كل ما يستطيع بشر أن

يعمله . فهل فكرت في عجلة اليد ؟ » .

.. « ولكن أين الرجال الذين يديرونها ؟ وليس فينا الكفاية للقيام بأعبائها . اننا نحتاج الى أربع رجال يتناوبون عليها ، ورجالنا متعبون حتى الاعياء » .

ولم تكن أعمال البناء في المستعمرة قد تمت بعد ، وكان النجارون لا يزالون معنا . ورأيتهم نياماً على الأرض في حجرة المطبعة . فقلت له مشيراً اليهم ، « ألا يمكن أن ننتفع بهؤلاء النجارين ؟ انه ينبغي أن نقضى الليل في العمل . وأظن أن هذه الوسيلة لا تزال في متناولنا » فأجابني ، « أما أنا فلا أجسر على أن أوقظ النجارين ، في حين أن رجالنا يكاد يصرعهم الانهالك » .

فأيقظت النجارين وطلبت معونتهم . فلم يحتاجوا الى ضغط ، وقالوا . « اذا لم نكن على استعداد لأن نؤدي ما نستطيع في وقت الحاجة وطلب العون ، فأية فائدة فينا ؟ انه عمل ليس شاقاً » . أما رجالنا فكانوا على استعداد للعمل .

ولقد ظهر الفرح على أسارير مستر « وست » ، وبدأ يغنى أغنية يحبها عندما بدأنا في العمل . فناوبت النجارين ، وأخذ كل من الموجودين دوره على التوالي ، وظللنا نعمل حتى الساعة السابعة من الصباح . وكان لا يزال أمامنا عمل كثير ، فقلت لمستر « وست » انه من المستحسن

أن نوظف المهندس ليرى ان كان من الممكن أن تدور الآلة، فاذا استطاع أن يديرها أمكننا أن نفرغ من عملنا في الميعاد المناسب .  
وأيقظه مستر « وست » ، فذهب تَوَّأً الى حجرة الآلة . وسرعان ما دارت الآلة بمجرد أن جربت التجربة الأولى . وتعلت أصوات الفرع من جوانب المطبعة . ولكني تساءلت ، كيف حدث هذا ؟ كيف ان كل ما صرفنا من جهد ذهب عبثاً وكيف تدور الآلة في هذا الصباح كأن لم يكن بها خلل ما ؟ فأجبنى مستر « وست » - من الصعب أن تعرف السبب . ان الآلات قد تسلك بعض الأحيان مثل سلوكنا ، فتحتاج إلى الراحة .

واني لا شعر بحزن عميق كلما تذكرت أنى أسست مستعمرة العنقاء ولكن لم أستطع المقام فيها غير قليل . وكانت فكرتى الأساسية أن أصنى أعمالى القضائية تدرجا وأقيم بعد تصفيتها فى العنقاء فأحصل على معاشى بقوة ساعدى وعرق جبينى وأجنى سعادة العمل بإسعاد العنقاء وأهلها . ولكن لم يشأ القدر أن يكون هذا . فقد دلتنى تجاريتى على أن الانسان يفكر فى حين أن الله يدبر أموره . ولكنى وجدت بجانب هذا أنه حيثما كان الغرض هو البحث عن الحق ، فلا أهمية اذن ولا تفكير فى أن تفشل المشروعات التى يفكر فيها المرء ، لأن النتيجة

مهما كانت ، فلن تكون شراً ، بل وغالب ما تكون أفضل مما نتوقع .  
وهكذا كان . فان المتجه الذي اتجهت فيه العناية ، والحوادث التي  
وقعت بعد تأسيسها لم تكن شراً على اطلاق القول .

ومن أجل أن نجعل كل مقيم في مستعمرة العناية يحصل على قوته  
بقوة ساعده ، قسمنا الأرض الواقعة حول بناء المطبعة أقساماً كلاً منها  
ثلاث « أكرات » . ووقع نصيبى على قسم منها . وفي كل قسم منها  
بنينا بيتاً من الخشب قائماً على أعواد من الحديد . وكانت رغبتنا أن نقيم  
أكواخاً من لبنات الطين أو بيوتاً من اللبنة المحروقة ، ولكن  
اتضح لنا أن المشروع كثير النفقة بما لا يتوازن مع مواردنا ، فضلاً  
عن أن كل انسان كان يرغب في أن يستقر في مكانه في أقرب وقت ممكن .  
ولما عدت الى جوها نسبرج أخبرت « بولاك » بكل ما فعلت ،  
وبكل الانقلابات التي تناوبت على أفكارى ومتجهاتى . فكان سروره  
عظيماً عندما عرف أن الكتاب الذى أقرضنى اياه كان له هذه النتائج  
البعيدة . وسألنى في شوق - « أليس من الممكن أن أشارك في هذا  
المشروع الجديد » فأجبتة قائلاً - « بدون شك . انك تستطيع اذا  
أردت أن تشارك في المستعمرة » فأجابنى - « انى على استعداد تام ،  
اذا تفضلت وقبلتني » - واشترك معنا .

ولقد أسرنى بقوة عزمته . وأندر رئيسه بأن لديه شهراً واحداً



= ١٩٥ =

سوف يترك بعده العمل . ووصل بعدها الى العنقاء في الميعاد الذي  
حدده . ولقد أسر قلوب الجميع بالفته وحسن معاشرته ، وسرعان ما  
أصبح عضواً محبوباً في أسرة العنقاء .

ان البساطة عنصر أصيل في طبيعته . ولذا وجد أن الحياة في العنقاء  
ليست شيئاً جديداً عليه ، فسبح فيها سبح السمك في الماء .



## الفصل الثاني عشر

### ثورة الزولو

لم يمض زمن طويل على هذه الحوادث ، حتى تناقلت الجرائد خبر ثورة قام بها « الزولو » في ناتال . ولم أكن أحمل أية ضغينة ضد الزولو ، فانهم لم يضرُوا هندا مقيا بجنوبي افريقية ، رغماً عن أنه كانت تساورني شكوك كثيرة في أمر هذه الثورة . وكنت اذ ذاك أعتقد أن الامبراطوية البريطانية لم توجد فوق ظهر هذه الأرض إلا للعمل على خير الانسانية . ولقد حال شعورى المطلق بالولاء لها عن أن أتمنى أى ضرر يلحق بالامبراطورية . ولذا لم تكن أحقية الزولو في الثورة أو عدم أحقيتهم مما يؤثر في حكمى القاطع في الامر . وكان في ناتال قوة من المتطوعين معبدة للدفاع ، وكان من حق السلطات أن تضم اليها من تشاء للعمل تحت لوائها . وقرأت أن هذه القوة عبئت بالفعل للقيام بقمع الثورة . ولما كنت أعتبر نفسى من رعايا حكومة ناتال ، وصلتى بها وثيقة قائمة على العطف عليها وحب انخير لها ، كتبت إلى الحاكم العام معبراً عن استعدادى إذا كانت هناك أية ضرورة لأن أكون فرقة اسعاف هندية . فأرسل إلى على الفور كتابا بالقبول . ومن حسن

الحظ انى كنت قد اتخذت كل الترتيبات الضرورية قبل أن أرسل خطابى اليه . وكنت قد عزمت ، إذا قبل عرضى ، أن أترك بيتى فى جوها نسبرج فيوچر « بولاك » بيتاً أصغر وتذهب زوجى الى مستعمرة العنقاء . وكنت على الدوام سعيداً بأن أتلقى من زوجى كل عون ومساعدة فلم تخطىء القاعدة هذه المرة أيضاً ، ولم أتذكر أنها وقفت فى وجهى وحالت دون ارادتى فى مثل هذه الأحوال طيلة حياتى . وبمجرد أن وصلنى كتاب الحاكم ، ذهبت الى دوربان وطلبت مساعدة رجال من الهنود . ولم يكن هناك من حاجة إلى عدد كبير ، وكنا فى النهاية أربعة وعشرين رجلاً منهم أربعة من الكجراتيين غيرى . أما الباقون فكانوا أجراء من جنوبى افريقية انتهت عقودهم ، ماعدا واحداً كان من الباتيين الأحرار .

ولقد أراد طبيب الفرقة التى ذهبت لاختضاع الثورة أن يرفع من قدرى وأن يهون على مهمتى فعينى طبقاً للتقاليد فى رتبة حربية مؤقتة ، وعين ثلاثة من الآخرين انتخبتهم فى رتب أقل من رتبى . ولما وصلت ميدان الثورة لم أجد هناك أى دلالة تدل على أن هناك ثورة بمعنى الكلمة . ولم أر أى أثر للمقاومة . أما الذى جعل الاضطرابات تتطور إلى ما يسمى ثورة ، فيرجع إلى أن زعيماً من زعماء الزولو نصح الى اتباعه بالامتناع عن دفع ضريبة جديدة فرضتها الحكومة ، واعتدى على جاوئش من الجيش مضى الى منطقته ليجبها . ومهما يكن من الأمر ،

فان عواطفى كانت من الزولو ، واغتبطت عندما وصلت الى رئاسة هيئة الجيش وأخبرت أن عملنا الأساسى سينحصر فى تمريض الجرحى من رجال الزولو . ولقد رحب بنا الضابط الطبيب المعهود له بالمستشفى الحربى . وقال لنا ان الأوروبيين يرفضون أن يقدموا على تمريض جرحى السود ، وان جراحهم أخذت تتعفن من الاهمال وعدم العناية ، وأنه يكاد يفقد صبره على تلك الحال ، بل أضاف إلى ذلك أنه يعتقد أن مقدمنا نجدة إلهية لانقاذ هؤلاء الساكنين ، وسرعان ما زودنا بالأربطة والمطهرات وغيرها واصطحبنا إلى المستشفى المؤقت . وابتهج الزوليون بمرآنا . غير أن الجنود البيض كانوا يطلون علينا من ثنايا القضبان الحديدية التى فصلنا عنهم ويفروننا بأن لا نعى بجراح الثوار ، فلما نرفض ، يصبون على الزولو أنواع السباب والشتم . واستطعت بعد قليل ان اختلط بهؤلاء الجنود ، فكفوا عن التدخل فى شؤونا وأقلعوا عن خطهم . ان الجرحى الذين عهد الينا بتمريضهم لم يجرحوا فى ساحة حرب . وكان جزء منهم فى الحقيقة أسرى قبض عليهم لمجرد الاشتباه فى سلوكهم . ولكن الجنرال أمر بجلدهم فجلدوا وأحدث الجلد فى أجسامهم جراحاً بليغة ، أخذت تتعفن من عدم العناية والاهمال . أما الآخرون فكانوا من الزولو الموالين للحكومة جرحوا خطأ فى أثناء اطلاق النار على الثوار ، ولذا أعطوا عصائب يعصبون بها جراحهم . وفضلا عن عملي هذا عهد الى تركيب بعض العقاقير وصرف الأدوية للجنود البيض . وكان هذا

العمل سهلاً هيناً على ، لأنى كنت قد مرنت عليه سنة كاملة فى المستشفى الصغير الذى أسسه دكتور « بوز » . واختلطت من طريق عملى هذا بكثير من الأورويين . وكنا نعمل فى فرقة يطلب منها سرعة الانتقال من مكان الى مكان . وقد صدرت اليها التعليمات بأن نتوجه حيثما نخبّر بأن هنالك وجهاً للخطر . وكنا نتنقل فى الغالب فرساناً لأمشاة . وبمجرد أن يتحرك مخيمنا من مكانه يلزمنا أن نتقدم راجلين ومعنا النقلات نحملها على أكتافنا . وحدث مرتين أو ثلاث مرات ان اضطررنا أن نمشى على أقدامنا أربعين ميلاً فى اليوم . ولكن حيثما ذهبنا ، هيانا الله لعمل انسانى تقوم به وتنجزه . وكنا نحمل الى المخيم فى تقالاتنا جرحى الزولو الموالين الذين كانوا يجرحون خطأ ونعنى بجراحهم ونمرضهم ولقد كانت ثورة الزولو مليئة بالتجارب الجديدة فضلاً عن انها زودتني بمادة واسعة للتفكير . فان حرب البوير ، على حدتها ، لم تظهرنى على شىء من فظائع الحروب يقدر ما أظهرتني ثورة الزولو . ان هذه الثورة لم تكن حرباً بالمعنى المفهوم ، بل كانت صيداً مادته الأرواح البشرية . ولم يكن هذا رأى وحدى ، بل كان رأى الكثيرين من الانجليز الذى صدف أن احادثهم . ولئن يقرع أذنيك صبيحة كل يوم دوى الطلقات التى ينثرها الجنود على المحلات الآمنة فتنفجر وتنشر الموت والألم ، وأن تعيش فى وسط الذين ينتثر على مسيرهم الموت ، لامتحان قاس للأعصاب ، بل تجربة من أشنع ماتجرب فى حياتك . ولكنى ازدرت



الجرعة المريرة بصبر، وعلى الأخص عندما اقتصر عمل فرقتي على تمرير  
جرحي الزولو . ولولم نعن بهم لما عنى بهم أحد . فكان عملي هذا مما  
يربح ضميري ويرضى وجداني .

ولكن كان هناك ما هو أكثر من هذا مما يحمل على التفكير  
والتأمل . وكانت بقعة قليلة السكان نادرة العمران . وبين التلال وفي  
خلال الوديان والأغوار ، كانت تنتشر حظائر الزولو الودعاء الذين يقال  
فيهم « متوحشون » . وكلما كنت أمشي مصحوباً بجرحي أو منفرداً  
بنفسي في تلك الوحدة الهادئة ، أقع فريسة فكر عميق .

أخذت أتدبر متأملاً ذلك المبدأ الديني الذي ندعوه « براهما شاريا »  
Brahmcharya ومحصله مراعاة العفة وضبط الشهوات ، وما يمكن أن  
يقوم عليه من المضمونات ، واستقرت معتقداتي في غور أعمق من  
أغوار نفسي . ولم أكن قد حققت بعد مقدار الحاجة الى ضبط الشهوات  
والطهارة في سبيل العمل على تحقيق الذات ، ولكن ظهر لي بجلاء ان  
الذي يريد أن يخدم الانسانية بكل مافي روحه من قوة ، لا يمكن أن يحقق  
غرضه بغير هذا . وثبت عندي في ذلك الحين ان لدى فرصاً كثيرة  
أخرى أستطيع أن أؤدي فيها خدمات من هذا النوع ، واني ولا شك  
سوف أجد نفسي عاجزاً عن تأديتها اذا أنا ظلت مغموراً في شهوات  
هذه الحياة ومسراتها وفي اعقاب الأطفال والقيام على تربيتهم . وعلى  
الجملة ثبت في يقيني أني لا أستطيع أن اعيش للناحيتين : ناحية الشهوة،

وناحية الروح . على اننى ما كنت لأقدم على أن أقذف بنفسى فى آتون  
هذه المعركة النفسية الحامية لو ان زوجتى كانت ترتقب طفلاً جديداً .  
فمن غير أن تركز الى قواعد « البراهما شاريا » تكون خدمة مصالح  
الأسرة غير متفقة مع مراعاة صالح الجماعة . أما اذا وعينا قواعدهما ، فان  
مصالح الطرفين يمكن التوفيق بينها . وبعد أن فكرت فى كل هذا شعرت  
بقلق منشؤه الرغبة فى أن أعاهد نفسى على هذا عهداً نهائياً . وكان عزمى  
على ان أعقد هذا العهد مصدراً للابتهاج على صورة ما . وكذلك وجد  
التصور مجالاً للترسل والامتداد ، ففتح أمامى أبواباً للعمل النافع  
لا تنتهى غاياته

فما وصلت مستعمرة العنقاء فاتحت شاجنلال وما جنلال ومستر  
وست فى موضوع البراهما شاريا ، كما فاتحت غيرهم فأحبوا الفكرة  
وأبدوا قبولهم لضرورة اخذ العهد . ولكنهم لم يتوانوا عن أن يظهروا  
الصعوبات التى تتطلبها القيام بهذه المهمة . على أن بعضهم أخذ ينفذ  
بصلاية قواعد « البراهما شاريا » ، ونجح بعضهم على ما أعرف . وكنت  
قد وقعت مع الواقعين ، وقطعت على نفسى عهداً على أن ارعى قواعد  
« البراهما شاريا » وانفذها مدى الحياة . والواقع انى لم اكن قد عرفت  
مقدار ما يتطلب القيام بهذا العمل من قوة وصبر لما فيه من سعة الأفق  
والعظمة التى تتضاءل امامها النفوس البشرية . وما أزال حتى اليوم  
وصعب القيام بهذا العمل تصادفنى فى طريقى وتقف امامى وجهاً لوجه .

على أن قيمة العهد الذي قطعتة كانت تزداد مع الزمن قدراً ومكانة من  
نفسى ، حتى لقد آمنت بأن الحياة بدون « البراهما شاريا » تكون تافهة  
ولا طعم لها ، بل وتكون أقرب الى الحيوانية . فان السوائم لا تعرف  
بطبعها معنى لضبط النفس . أما الانسان فهو انسان لأنه يستطيع أن  
يضبط نفسه . وكل ما ظهر لى من كتبنا الدينية انه افراط ومغالاة فى  
امتداح « البراهما شاريا » ، يظهر لى الآن على الضد مما كنت أرى من  
قبل ، انه صحيح وقائم على التجارب الحقة ، وهذا الأمر يزداد عندى  
وضوحاً يوماً بعد يوم .

رأيت ان البراهما شاريا ، بما فيها من تلك القوة الشاملة والفاعلية  
التامة ، لا يمكن أن تكون مراعاتها عملاً سهلاً هيناً ، وانها ليست  
شيئاً يتعلق بالجسم وحده والاحتكام فيه . حقيقة ان البراهما شاريا  
تبدأ بالاحتكام فى الجسم وتقييده ، ولكنها لا تنهى عند ذلك . ذلك  
لأن اكتمالها يقتضى حتماً الحيولة بين الانسان وبين الأفكار السيئة . فان  
« البراهما شاريا » اذا كان مؤمناً ، لا يمكن ان تساوره « الأحلام » فى  
ان يشبع نهمة الجسم ، وامامه قبل الوصول الى هذه الغاية ، سفر طويل  
لا بد من أن يقطعه اليها .

أما عن نفسى فلا بد من أن أقول ان مراعاة البراهما شاريا فى تقييد  
الجسم وحده كانت صعبة قاسية . اما اليوم فانى أستطيع أن أقول بحق  
انى ناج من هذا . ولكن امامى أن اصل الى الغاية التى اقدر عندها

ان أحتكم في فسكى ، وهذا أمر جوهرى ولا أقصد بهذا انه تعوزنى  
العزيمة أو القوة أو الارادة . كلا . ولكن لأنى ما زال فى حيرة من أمر  
ذلك النبع الخفى الذى تغزونى من طريقه الأفكار السيئة . وما أشك  
فى أن الانسان لديه المفتاح الذى يعلق به الباب الذى تلجه وتنفذ منه الى  
عقله الأفكار غير المرغوب فيها . ولكن لكل انسان ان يفتش عن  
ذلك المفتاح ويجده من غير أن يستمد العون من غيره . ولقد ترك لنا  
القديسون والعرافون تجاريهم . ولكنهم مع الأسف لم يتركوا لنا  
وصفات محققة معصومة عن الزلل نصل من طريقها الى هذه الغاية . ذلك  
لأن الكمال والحرية انما يأتيان من طريق واحد ، هو طريق العناية  
الأزلية ، ولذا ترك لنا الذين أفنوا أعمارهم فى البحث وراء الله متوناً  
مقدسة مثل كتاب « راما ناما » Ramanama ملئت بوصف ما لاقوا فى  
الحياة من خشونة ، وما زاولوا فيها من تقشف وتصوف . ومن غير أن  
نسلم بأنفسنا الى عنايته القدسية ، فان الأحتكام الكامل فى أفكارنا  
وتقييدها لن يكون كاملاً . وهذا هو المبدأ الأساسى الذى تضمنته كل  
الكتب المقدسة . وانى لاحقق صدقه فى كل لحظة من لحظات حياتى  
التي اجهد فيها نفسى وراء الفوز « بالبراهما شاريا »

-- ولقد أخذت الحوادث فى جوها نسبرج وجهة جعلتنى اتجه نحو  
تطهير نفسى تمهيداً للعمل فى سبيل الستيا جراها <sup>(١)</sup> Satyagraha

(١) معناها قوة الحق وقوة الروح وهو الاسم الذى أطلقه مهاتما غاندى على المقاومة السلبية

وانى لأرى الآن بوضوح ان كل الحوادث الجوهرية التى وقعت فى حياتى  
والتي ترتبت على هذا العهد ، انما كانت تعدنى لأن أقطعه على نفسى  
وروحى . فان المبدأ الذى دعوته « ستيا جراها » كان له وجود فعلى  
من قبل أن يوضع له هذا الاسم . وفى الحق ان هذا المبدأ عندما « ولد »  
لم أكن أستطيع أن أقول « ماهو » . فقد كنا نستعمل فى اللغة  
« الكجراتية » الاصطلاح الانجلىزى « المقاومة السلبية »  
Passive Resistance لنعبر عنه أو لنصفه . وبينما كنت فى جمعية من  
الأوروبيين رأيت أن هذا الاصطلاح ضيق الحدود ولا يدل على حقيقة  
المبدأ دلالة صحيحة . فقد فرض انه سلاح الضعيف المغلوب على أمره ،  
وأنه قد يكون مدخولاً بالكراهية ، أو انه فى النهاية قد يلجأ الى أعمال  
العنف . ولذا حلت كل هذه المدخولات وأبنت عن حقيقة الحركة التى  
يقوم بها الهنود . فكان من الضروري مع هذا أن ينحت الهنود كلمة  
تدل دلالة واضحة جلية على حقيقة المعركة التى يخوضون غمارها .

غير انى لم أستطع أن أقع على كلمة تطلق اسماً علماً على حقيقة المبدأ ،  
ولذلك لجأت الى الاعلان على صفحات « الرأى الهندى » وحددت  
جائزة ينالها القارىء الذى يقترح أقوم اصطلاح . وفى النهاية فاز  
« ماجنلال غاندى » بنحت كلمة « ستيا جراها » وهى تتركب فى  
الهندية من مقطعين « سات : حق » و « اجراها : صلابة » وصاغها  
هكذا Sadagraha ونال الجائزة . غير انى حباً فى أن أجعلها أئين وأجلى



غيرتها الى Satyagraha « ستيا جراها » ، فدخلت في اللغة الكجرانية لتدل على حقيقة الحركة التي يخوضها الهنود . أما تاريخ الستيا جراها فهو عبارة عن تاريخ حياتي في جنوب افريقية ، وعلى الأخص في تجاربي الشاقة في التزام الصدق في تلك القارة النائية .

...

لقد نجت زوجي ثلاث مرات من الموت بعد أن تصاب بمرض عضال . في المرات الثلاث كان شفاؤها راجعاً الى أدوية منزلية عادية . وعند ما مرضت المرة الأولى كنا نخوض احدى معارك الستيا جراها ، أو كنا على وشك أن نخوض احداها . وكانت تصاب بنوبات من النزيف . ونصحني أحد أصدقائي من الأطباء باجراء عملية جراحية ، وافقت هي على اجرائها بعد تردد قليل . وكنت تراها مهزولة نحيلة ، وكان الدكتور مضطراً لأن يجرى العملية بغير تخدير . ولكن العملية نجحت ، رغم انها تألمت كثيراً . ولكن الدهش انها احتملتها بشجاعة نادرة المثال . وقام الدكتور وزوجه على خدمتها فصرفا نحوها جهداً ممدوحاً وانتباها انسانياً . ووقع هذا في دوربان ، وتفضل الدكتور فأجاز لي أن أذهب الى جوها نسبرج وأن لا أكون في قلق على المريضة

وفي خلال أيام قلائل وصلني خطاب جاء فيه ان « كسترباي » أصبحت اسوأ مما كانت ، وانها ضعيفة لا تستطيع الجلوس في فراشها ، وانها اصيبت مرة بالاغماء وفقدت الحواس ، وكان الدكتور على علم بأنه

لا يجوز له ان يعطيها خمرأ أو لهما من غير موافقتي . فخطبني تليفونيا من جوها نسبرج لاوافق على أن تعطى مرق العجل . فأجبتة بأني لا أستطيع أن أعطى تصريحاً كهذا ، ولكنها اذا كانت في حالة تستطيع معها ان تعبر عما تريد ، فمن الواجب أن يؤخذ رأيها ، وانها حرة في أن تفعل كيف تريد . فقاطعتني الدكتور قائلاً :

- « ولكن ارفض ان أستطلع رأى المريضة في الأمر . ان الواجب يدعوك للحضور بنفسك . فاذا لم تتركني حرأ في أن أصف ما أشاء من أصناف الأغذية ، فاني لن اتحمل مسؤولية شفاء زوجك . »  
فركبت القطار الى دوربان في نفس اليوم ، وقابلت الدكتور فأخبرني بهدوئه المعهود قائلاً « انى أعطيت زوجك مرق العجل في الوقت الذى كلمتك فيه تليفونيا » فاجبته :

- « انى اعد هذا يا حضرة الدكتور غشاً » . فأجابني « انى لا أرى أى وجه للنش في أن أصف داوء أو غذاء لمريض . وفي الحقيقة نعتبر نحن معاشر الأطباء أنه من الفضيلة أن نعش مرضانا أو أقاربهم في سبيل أن ننقذ حياة بشرية » .  
ففسرني الألم ، ولكنى ظلمت هادئاً . وكان الطبيب رجلاً خيراً وصديقاً شخصياً لى . وأصبح له ولزوجه في عنق قيد من الجميل الذى لا ينسى ، ولكنى لم أك مستعداً لأن أقبل الخضوع لآرائه الطبية . فقلت له .

- « خبرني يا دكتور ماذا تقترح أن نعمل الآن . اني لا أستطيع أن  
أصرح بحال أن تعطى زوجي لحما أو مرق العجل ، واو أدى ذلك الى  
موتها ، ما لم تقبل هي أن تتعاطى هذه الأشياء » . فكان جوابه  
- « أنت حر في أن تظل على فلسفتك . ولكني أخبرك أنك  
مادمت تعهد إلى بعلاج زوجك ، فلا بد من أن يكون لي الخيار المطلق  
في أن أعطيها ما أشاء . أما إذا كنت لا توافق على هذا ، فاني أسألك  
أسفاً أن تأخذها معك . فاني لا أستطيع أن أراها تموت تحت  
سقي » .

- « هل تعنى بهذا أنه يجب على أن أتقلها الآن ؟ »  
- « ومتى سألتك أن تنقلها ؟ اني انما أريد أن أترك حراً . فاذا  
فعلت ، فاني وزوجي سوف نعمل لها كل ما في استطاعتنا من الممكنات ،  
ويمكنك أن تذهب لمباشرة عمالك من غير أن يكون لديك أقل شاغل من  
ناحيته . ولكنك اذا كنت لا تستطيع أن تفهم هذا الشيء البسيط ،  
فانك تضطرنى لأن أسألك أن تنقل زوجك من بيتي » .

وأظن أن أحد أبنائي كان معي ، فوافق على رأيي كل الموافقة ، وقال  
بأن « كسترباي » لا يجب أن تعطى مرق العجل بأى حال من  
الأحوال . وبعد ذلك تكلمت مع زوجي . وفي الحق انها كانت  
ضعيفة ضعفاً يتعذر معه أخذ رأيها في هذا الموضوع . ولكني رأيت أن  
من واجبي ، وان كان مؤلماً ، أن أفعل هذا . وأخبرتها عن كل ما كان

بينى وبين الدكتور . فأجابتنى جواباً قاطعاً قائلة :

- « انى لن أتعاطى مرق العجل . ان من أندر الأشياء فى هذه  
الدنيا أن يولد المرء فى هذه الحياة مكتمل الانسانية . وانى لأفضل أن  
أموت بين ذراعيك ، من أن أدنس جسمى بمثل هذه الدنابات » .  
فتوسلت إليها ، ثم أخبرتها أنها ليست مجبرة على أن تتبع رأى  
ومذهبي . ورويت لها أمثالا اجزأتها من هندوكيين يأكلون اللحم  
ويتعاطون الخمر كدواء . ولكنها ظلت صلبة ولم تلتن فقالت -  
« لا ، أتوسل اليك أن تنقلنى من هذا المكان فى الحال » .

فاغتبطت . وعزمت على أن أنقلها ، ولكن بشيء من الانفعال .  
ثم أخبرت الدكتور عن عزمها . فقال لى !

- « كم أنت صلب أيها الرجل . كان من الواجب عليك أن تمجهم  
عن أن تناقشها فى الأمر وهى على هذه الحال . وانى لاصارحك بأن  
زوجك ليست فى حالة تسمح لها بالانتقال . انها لا تستطيع الوقوف  
على رجليها لحظة واحدة . وانى لن أعجب اذا سمعت أنها ماتت فى  
الطريق . ولكن إذا كنت لاتزال عازماً على هذا ، فأنت حر فى أن تفعل  
ما تشاء . وأزيد على هذا أنك اذا لم تعطها مرق العجل ، فانى لن أخاطر  
بأن أقبلها فى بيتى يوماً واحداً » .

على هذا صممنا على أن ننقلها وترك بيت الدكتور تواء . وكانت المطر  
ينزل رذاذاً ، والمحطة بعيدة بعض الشيء . وكان علينا أن نأخذ القطار

من دوربان الى مستعمرة العنقاء ، فاذا نزلنا من المحطة القريبة منها ، بقي علينا أن نقطع ميلين ونصفا. ولا شك في أنى كنت أخطر مخاطرة عظيمة وأقذف بنفسى فى مأزق حرج ، ولكنى كنت كثير الثقة بالله ، فمضيت أتم واجبى . فأرسلت رسولا الى المستعمرة ليتقدمنا ومعه رسالة الى مستر « وست » لينتظرنا فى المحطة ومعه « همك » - سرير من شبك - وزجاجة من اللبن الساخن وأخرى من الماء الحار وستة رجال ليحملوا زوجى . واستأجرت « عربية يد » لاستطيع أن أنقلها فى أول قطار يغادر دوربان ، وأركبها القطار وهى على تلك الحال وسافرنا .

ولم تكن « كسترباى » فى احتياج لمن يشجعها . بل على الضد أخذت تسكن من روعى قائلة « لن يحدث لى أى حادث ، فلا تهتم » وكانت كأنها قفص من الجلد والعظام، ولم تكن قد جرعت شيئا من المغذيات لعدة أيام . وورصيف المحطة طويل ، وكان من المتعذر أن تدخل العربية داخل المحطة لتنقل المريضة فكان علينا أن نسير مسافة طويلة لنصل الى عربية القطار . فحملتها بين ذراعى حتى أجلستها داخل العربية . ومن المحطة حملناها على « الهمك » وهناك بدأت تسترد قواها بالعلاج المائى

- Hydrathic Treatment -

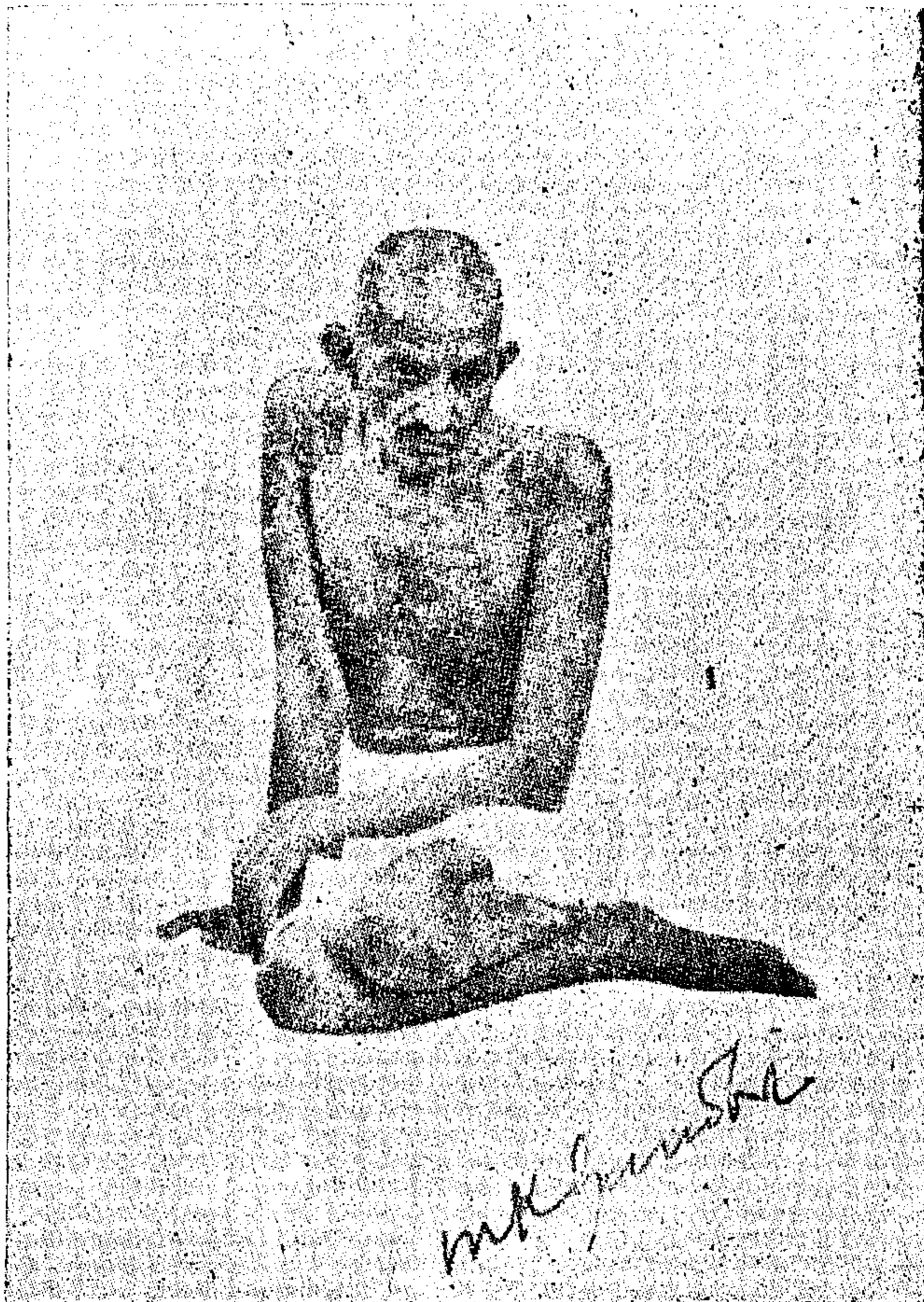
بعد مضى يومين أو ثلاثة من هبوطنا مستعمرة العنقاء زارنا « سوامى » - Swami - من رجال الدين . وكان قد سمع بعنادنا فى

( ١٤٠ - ١٤١ )



رفض نصيحة الدكتور ، فحضر اشفاقا علينا ليغرينا بأن نسمع نصيحة الطبيب . وكان ابناى الثانى والثالث ، مانيلال وردماس حاضرين لما زارنا ذلك الرجل . وأخذ يغرينا بأنه لا ضرر من الوجبة الدينية اذا تعاطينا اللحم، مستنداً إلى نصوص دينية اقتطعها من شريعة « مانو » وهى أقدم الشرائع الهندية . فكرهت أن أتمشى معه فى هذه المناقشة فى حضرة زوجى، ولكنى تركته يقول ما يريد أمامها احتراماً له . وكنت أعرف الآيات التى ذكرها عن « مانو » ولم أكن فى حاجة لأن تعاد على سمى لكى أقتنع بجواز أكل اللحم . بل كنت أعرف أكثر مما يعرف من أن هنالك مدرسة دينية تعتقد أن هذه الأقوال مكذوبة . وحتى بفرض أنها غير مكذوبة ، فانى قد أخذت نفسى بالحياة النباتية بصرف النظر عن النصوص الدينية ، كما أنت ايمان « كسترباى » كان ثابتاً لا يتزعزع . على أن النصوص الدينية كانت لغزاً لا تعرفه ، ولكن تقاليد أسلافها كانت كافية عندها لأن تحمل من قلبها فى منزلة الايمان . وأقسم الولدان بعقيدة أبيهما أن اجازة أكل اللحم لن تكون . وفى ذات اللحظة أجابته كسترباى قائلة :

« سيدى السوامى . مهما يكن فى أقوالك من حق ، فان ذلك لن يحملنى على أن أطلب الشفاء بأكل اللحم . وانى لأتوسل اليك أن لاتزعجنى بأكثر من هذا . ولك أن تناقش فى الأمر مع زوجى وولدى، أما أنا فقد صممت وانتهيت » .



مهاثما غاندى



وكنت قد قرأت في بعض الكتب التي تعالج الحياة النباتية ان  
الملح ليس عنصراً أساسياً في غذاء الانسان، وانه على الضد من ذلك تفيد  
الأغذية الخالية من الملح أكثر مما تفيد الأغذية التي يضاف اليها الملح .  
ومن هنا استنتجت كيف أن أحد البرهشاريين قد استفاد من الأغذية  
الخالية من الملح . وقرأت كذلك أن ضعاف الأجسام يجب أن يتفادوا  
تعاطي البقول، وكنت من الغرمين بها، وحدث اذ ذاك أن كسرتباى بعد  
أن أجريت لها العملية استراحت قليلا ولكن التزيف عاودها ، وظهر  
المرض في مظهر خبيث حاد، ولم يفد فيه العلاج المائي وحده . ولم تكن  
واثقة في أنواع العلاج التي أستعملها ، ولكنها لم تكن تعارضني في  
شيء . ولم تسألني أن أستعين بالمساعدة الخارجية . فلما فشلت كل أنواع  
العلاج ، سألتها أن تتفادى أكل الملح والبقول . فلم تقبل بادىء الأمر ،  
على الرغم من توسلاتي اليها مستنداً على أقوال الثقة في هذا الموضوع .  
ولما بلغ منها الضيق ، جابهتني بأني أنا شخصياً لا أستطيع أن أقلع عن  
تعاطي هذه الأشياء لو طلب مني أن أقلع عنها . فتأملت وسررت في آن  
واحد . سررت لأنى أعطيت الفرصة التي أظهر لها فيها حبي لها وعطفي  
عليها ، فقلت لها .

« انك مخطئة - فاني اذا كنت مريضاً ونصحني الطبيب بأن  
أفادى هذه الاشياء أو غيرها في أغذيتي ، فاني لا أتردد في أن أعمل  
بمشورته . ولكن اليك . فاني من غير أى مشورة طبية سأقلع عن

أكل الملح والبقول سنة كاملة ، سواء أفعلت أنت ذلك أم لم تفعل .  
فتولتها هزة عنيفة وقالت في حزن عميق - « سامحني ، غفر الله لك .  
فقد كان من الواجب عليّ أن لا أتحداك وأنا على علم بمن أنت . واني  
أعدك بأن أقلع عن تعاطي هذه الأشياء . ولكن بحق السماء أن تحلل  
نفسك من هذا العهد . ان هذا كثير لا أستطيع احتماله » فأجبتها  
- « ان في اقلعك عن تعاطي هذه الأشياء خيرا لك ، ولا شك  
عندي مطلقا من أنك سوف تستفيدين من ذلك وتحسن صحتك . أما  
أنا فاني لن أحل نفسي من عهد قطعته عليها جادا لا هازلا . ومن  
المؤكد اني سوف أستفيد بتنفيذه لأن كل القيود التي يقيد بها المرء  
نفسه مهما كانت بواعثها ، مما يعود عليه بالخير . ولذا أسألك أن تتركيني  
وشأني . ان هذا سوف يكون امتحانا لنفسي ، وتشجيعا أدبيا لك على  
أن تنفذ عزمك . » فتركتني وشأني قائلة  
- « انك عنيد جدا . انك ان تصني لأحد » . وفاضت عيناها  
بدمع غزير .

اني أريد أن أعد هذا الحادث كمثل على قوة الستياجراها ، وهو بحق  
من أحلى الذكريات التي أذكرها في حياتي .  
بعد هذا بدأت كسترباي تسترد صحتها بسرعة . ولا أستطيع أن  
أقول أ كان هذا راجعا إلى الأغذية الخالية من الملح والبقول ، أم  
الى التغيرات الأخرى التي تترتب على مثل هذا العمل ، أو كان سببه

شدة مراسى فى متابعة قواعد محدودة أتبعها فى حياتى ، أم إلى تأثير الصدمة العقلية التى استدعتها الحادثة . والواقع أنها أخذت تستعيد صحتها بسرعة ، ووقف الزيف، وكسبت أنا شهرة أخرى بأنى طبيب روحانى .

أما أنا فشعرت بأن حالتى أحسن باتباع النهج الجديد . ولا أتذكر أنى رغبت فى الأشياء التى عاهدت نفسى على تركها . ومرت السنة فوجدت أن حواسى أشد خضوعا لارادتى مما كانت . وكانت التجربة سبباً فى أن يزداد ميلى الى ضبط النفس فمضيت أراعى ذلك النهج مدة طويلة بعد عودتى إلى الهند .

ولقد فرضت علاج الاقلاع عن الملح والبقول على كثير ممن كانوا يعملون معى فى جنوبى افريقية فأتج العلاج نتائج باهرة . أما من الوجهة الطبية فالرأى ينقسم ، ولكن أديباً فأنى مقتنع بأن كل انكاز للذات مفيد للروح . ان الغذاء الذى يعكف عليه الرجل الذى يضبط نفسه يجب أن يختلف عن الغذاء الذى يعكف عليه الرجل الذى ينشد الملذات . فهما يختلفان فى هذا اختلافهما فى بقية طرق الحياة .

ان الذين يتطلعون الى « البرهشاريا » غالباً ما يهزمون ويفقدون القدرة على الوصول الى غايتهم ، باتخاذ طريق فى الحياة لا يعكف عليه الا المكبون على الملذات



## الفصل الثالث عشر

### تثقيف الروح

كان تثقيف الأولاد الروحي مهمة أشق بكثير من تربيتهم الجسمية وتثقيفهم العقلي . وقلمما كنت أُلجأ الى الكتب الدينية لابلغ الى ما أرى اليه من هذا التثقيف . وبالضرورة كنت أعتقد أن كل تلميذ لابد من أن يلم بعناصر دينه وأن يكون على معرفة بكتبه المقدسة . وعلى هذا أخذت أعد مثل هذه المعرفة والقنها لهم على قدر ما أستطيع . غير اني كنت أعتقد أن هذا جزء من التثقيف العقلي . وكنت قبل أن أشغل نفسي بتعليم الأطفال في مزرعة تولستوى - بالقرب من جوها نسبرج وعلى غرار مستعمرة القنعاء - قد تحققت أن تثقيف الروح شيء مستقل بذاته . ومن أجل أن تقوى الروح ، عليك أن تبني الأخلاق وأن تكون لديك معرفة بالله وأن تعمل على تحقيق ذاتك . بل اوقن بأن ذلك أمر جوهري في تربية الأطفال . وأن كل ضروب التربية والتعليم من غير تثقيف الروح لغو بل عدم ، ان لم يكن ضررها أكبر من نفعها وكيف اذن وعلى أية قاعدة القن الصغار هذا التثقيف الروحي ؟ أخذت أقرأ لهم فصولا من كتب في الثقافة الأدبية . ولكن كان هذا بعيدا عن

ان يرضيني . ولما بدأت صلتى بهم تشتد وتقوى ، وجدت أن تثقيف الروح لن يكون من طريق الكتب ، وكما أن التربة الجسمية لا تكون الا من طريق مراعاة الجسم ، وكما ان التثقيف العقلي لا يكون الا بالمراعاة العقلية ، كذلك التهذيب الروحي لن يكون الا بالمراعاة الروحية : وهذا يتوقف أكثره على حياة المعلم وأخلاقه . وانه لمن السخافة أن أكون كذوباً ثم أحاول أن اعلم الأولاد الصدق . ومعلم جبان لن ينجح في أن يعلم الأولاد الشجاعة والاقدام ، ورجل بعيد عن القدرة على ضبط النفس ، لن يتمكن من أن يغرس في تلاميذه تقدير فضيلة ضبط النفس . فبدالى أن أكون للأطفال ذكوراً واناثاً درسا عمليا ومثالا حيا ينفذ ما يريد أن يغرس فيهم من الفضائل . ومن هنا انقلبت الآية فأصبح الأطفال لى معلمين علموني ضرورة أن أعيش خيراً مستقياً ، ولو من أجل أن أضرب لهم المثل الأعلى . وقد أقول ان مراعاة النظام والقيود التي قيدت بها نفسي في مزرعة تولستوى ، ترجع في الغالب الى حكم هؤلاء الأطفال الذين كنت أقوم على تثقيفهم .

كان أحدهم وحشى الطبع ولا يخفض لنظام ، كثير الكذب والخصام . وغلب عليه طبعه مرة فاتفجر وتبذل . وغضبت واهتاجت أعصابي . ولم أكن قد تعودت على أن أفرض عقاباً على تلاميذي ، ولكن هذه المرة امتلكنى الغضب . غير انى حاولت مع هذا أن اناقشه وأتفاهم معه ، فكان عنيداً ، وزاد تبذله بأن حاول أن يحتال على ويخدعنى . فلم

أطلق على هذا صبراً وأمسكت بمسطرة كانت قريبة منى وضربته على ذراعه . بيد أنى انتفضت عندما ضربته ، وانى لعل يقين من أنه لاحظ اضطرابى . ولا شك فى أن هذا الحادث كان جديداً عليهم أجمعين . فصاح الولد وأخذ يسألنى الصفح والمغفرة ، ولا ريبه فى انه لم يصح لان الضربة آلمته الى هذا الحد ، بل كان قادراً على أن يكيل لى من نفس ما كلت له وأزيد ، فقد كان ولداً مستوى الجسم قوى الاعصاب فى السابعة عشرة من عمره . ولكن الحقيقة انه صاح مقدراً قيمة الألم الذى شعرت به ، لأنى اضطررت الى اللجوء الى هذه الوسيلة . ولم يعد هذا الولد بعد ذلك الى عنادى وعدم طاعتى . وما أزال حتى الآن أستغفر عن هذا العنف الذى اضطررت اليه مرغماً . وانى لأخشى أن أكون قد كشفت له فى ذلك اليوم عن وحشيتى الكامنة ، لاعن روحى الشفافة الودية .

كنت على الدوام من الذين يعارضون فى العقاب البدنى . وأتذكر مرة واحدة اضطررت فيها أن أعاقب أحد أبنائى عقاباً جسدياً . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم لم أستطع أن أستبين ما اذا كنت محقاً أو مخطئاً فى استعمال العصا . ومن الراجح ان ذلك كان مسلكاً غير قويم ، لأنى وقعت عقاب العصا تحت تأثير الغضب والرغبة فى انزال العقاب ، ولو أن ذلك العقاب كان مجرد تعبير عن ضيق صدرى وغمى ، اذا لاعتبرت انه أمر مبرر . ولكن الباعث فى الحال التى ذكرتها كان مزيجاً من

الاثنين . من الغضب والاسى معاً . وحفزنى هذا الحادث الى التفكير  
وعلمنى طريقاً أمثل من هذا فى تقويم الأطفال . ولست أعرف الى أى  
حد تجدى هذه الطريقة المتكررة فى الحادث الذى رويته . فان ذلك  
الفتى سرعان مانسى الحادث تماماً ، ولا أظن أن سلوكه تحسن تحسناً  
ظاهراً . غير ان الحادث جعلنى أفهم على وجه أكمل ماهو واجب المعلم  
ازاء تلاميذه . ولقد تكررت بعد ذلك الحوادث التى أظهر فيها الفتيان  
سوء السلوك ، ولكنى لم أجد قط إلى العقاب البدنى . ولقد تحققت  
أثناء محاولتى أن أثبت فى الأولاد والبنات مبادئ الثقافة الروحية ،  
انى استطعت أن أفهم شيئاً بعد شىء قوة الروح وأثرها الاسمى .

كان فى مزرعة تولستوى ان وجه مستر كالنباخ نظرى إلى مشكلة لم  
أكن قد فكرت فيها من قبل . فقد سبق لى أن قلت ان بعض الفتيان  
فى المزرعة كانوا سيئى السلوك بعيدين عن مراعاة النظام والقواعد ،  
وكان من بينهم كسالى وبلداء . ومع هؤلاء أخذ يختلط أولادى الثلاثة  
كل يوم ، كما يختلط غيرهم من الأولاد الذين هم على شاكلتهم . وهذا جعل  
مستر كالنباخ فى قلق . ولكن اتبناه انصرف الى انه من عدم الكياسة  
ان أجعل أولادى يختلطون مع هؤلاء الفتيان . وقال لى يوماً :

« ان طريقتك فى أن تجعل أولادك يختلطون مع هؤلاء الفتيان لا  
أوافق عليها . ان أولادك سوف تنحط أخلاقهم من طريق هذه العشرة  
السيئة » . ولا أذكر ان هذا الاشكال الذى وجهنى إليه مستر

كالنباخ قد أقلقني حينذاك ، ولكنى أذكر ما قلت :  
« كيف أستطيع أن أفرق بين أولادى وبين هؤلاء الكسالى السيئى  
السلوك ؟ انى أعتبر نفسى مسؤولا بدرجة واحدة عن الجميع . وهؤلاء  
الفتيان لم يحضروا إلى هنا إلا لأنى دعوتهم للحضور . والحق الذى لا  
أخفيه عليك انهم وأولياء أمورهم يعتقدون انهم بحضورهم الى هنا قد  
ألزمونى بواجبات ومسئوليات . وأنا وأنت نعرف ، أو كنا نعرف ، انهم  
بحضورهم الى هنا سوف يحدثون لنا بعض المتاعب . كان يلزمنى أن  
يحضر هؤلاء الفتيان الى هنا ، وعلى هذا يجب على أولادى أن  
يخالطوهم ويعيشوا معهم . ومن المحقق أنك لا تريدنى أن أغرس فى روع  
أولادى انهم مفضلون على غيرهم . ولئن تغرس فى عقولهم فكرة انهم  
أفضل من غيرهم ، فان معناه أنك تقودهم فى طريق الغواية . واشتراكهم مع  
بقية الأولاد يعودهم النظام ، فضلا عن انهم سوف يقتدرون من هذه  
الطريق أن يميزوا لأنفسهم بين الخير والشر ، وبين الصالح والطالح .  
ولماذا لا نعتقد انه اذا كانت فيهم ناحية من الخير فسوف تترك أثرها  
الثابت فى غيرهم من الصبيان ؟ ومهما يكن من الأمر ، فانى لا أستطيع  
أن أتفادى اختلاط أولادى بهم ، واذا كان فى هذا بعض المخاطرة ،  
فواجبنا أن نصمد لها . »

فهز مستر كالنباخ رأسه . ولكن النتيجة لم تكن سيئة على ما رأيت  
فيا بعد . فان أولادى لم يصبحوا أسوأ مما كانوا . فضلا عن أنى رأيت



أنهم جنوا ثمرة ما . رأيت أنه إذا كان قد غرس فيهم الغرور شيئاً من شعورهم بالأفضلية فإن هذا قد محى أثره ، وتعلموا أن يختلطوا مع كل الأولاد من غير مراعاة لميولهم أو نزعاتهم . رأيت أنهم مرتوا وتعودوا النظام . وهذه التجربة وأشبابها علمتني أنه إذا نشأ أولاد خيرون مع أولاد شريرين واختلطوا بهم ، فإن الخيرين لن يفقدوا شيئاً من نزعتهم ، على شرط أن تقوم التجربة تحت أعين آبائهم وأولياء أمورهم .

ولا يستتبع ذلك ضرورة أن الأولاد الذين ينشأون مختلطين يكون اختلاطهم حافظاً لهم من الغواية أو عدوى الأخلق . والحق أنه عندما يختلط الصبيان والبنات على اختلاف نشأتهم ويتعلمون في صعيد واحد ، فإن الآباء والعلمين يواجهون من تلك الحال تجربة من أقسى التجارب . لأن الواجب يقضى عليهم أن يكونوا دائماً على حذر وانتباه .

أخذت أتبين شيئاً بعد شيء مقدار الصعوبات التي تواجه الإنسان إذ يعمد أن يربي ويعلم صبياناً وبنات معاً على طريقة مثلى . فاذا كنت ذلك الرجل الذي يعهد إليه بتنشئتهم أو أنى كنت من أولياء أمورهم ، اذن لا أخذت أمتحن قلوبهم ، ولساهمت معهم في المسرات والأحزان ولساعدتهم في حل المشكلات التي تعرض لهم ، ولا تبغيت معهم السبيل الأقوم في أن أستشف آمالهم الفتية وأشاركم فيها . حدث عندما كنت في جوها نسبرج أن وصلتني أخبار سقوط اثنين من أعضاء المدرسة

سقوطاً أديباً . وان أخباراً تصلني عن سقوط رجال يمارسون  
« الستياجراها » وهم يجوبون معركتها لن تصدمني أو ترعجني . ولكن  
هذا الخبر انقض على رأسي انقضا صاعقة غير منتظرة . وفي نفس  
اليوم أخذت القطار إلى العنقاء . وصمم مستر كالبناخ على أن يرافقتي  
فقد لاحظ اضطرابي وحزني . ولم يشأ أن يتركني أذهب بمفردى لأنه  
هو الذي حمل إلى تلك الأخبار التي احتاجتني وأحزنتني . وبينما أنا في  
الطريق استنارت بصيرتي فرسمت الخطة التي أتبعها . شعرت بأنه أما أن  
يكون المعلم أو يكون ولي الأمر ، مسؤولاً إلى درجة ما عن سقوط هذا  
التلميذ . وفي الحال تحددت مسؤوليتي ازاء هذا الحادث تحديداً ووضح  
لي كأنه الصبح الأبلج . وكانت زوجتي قد حذرتني ، ولكن لما كان  
طبعي يميل إلى التسليم ويأنف من المحاذرة ، لم أحفل بتحذيرها . وكذلك  
شعرت بأن اللذين ارتكبا هذه الخطيئة قد يحققان شيئاً من حزني وألمى  
ومقدار ما في عملهما من شناعة اذا أنا فرضت على نفسي عقاباً أديباً  
أستغفر لهما به عن ذنبيهما . وسرعان ما نفذت . فنذرت صوم تسعة  
أيام وعهداً بأن لا أتعاطى الا وجبة واحدة أربعة أشهر ونصفاً .  
واجتهد مستر كالبناخ في أن يجعلني أقنع عن عزمي ، ولكن ذهبت  
توسلاته سدى . وفي النهاية سلم بتنفيذ هذه الكفارة ، ولكنه لم يسلم  
بها الا ليشاركني فيها . فلم أستطع أن أقاوم ارادته الحية وعطفه الجار .  
بعد أن عقدت عزمي هذا شعرت بأن عبثاً ثقيلاً أزيح عن عقلي ،

وأحسست بأني راض مستريح الضمير الى حد بعيد ، ولطف عضبي على المجرمين ، وحل محله احساس بالعطف والشفقة عليهما . وعلى هذه الحالة النفسية وصلت مستعمرة القنعاء . وقمت بابحاث أخرى وفحصت الأمر وعرفت بعض التفاصيل التي كنت في حاجة الى معرفتها . غير ان كفارتي آلت كل انسان ، ولكنها طهرت الجو وصفته من الأكدار . وأخذ كل انسان يشعر بمقدار البشاعة التي تنطوي عليها الخطيئة ، كما ان الرابطة التي كانت تربطني بالأولاد وبالبنات أصبحت أقوى وأصل . ولقد وقع بعد ذلك بقليل حادث له اتصال بهذه المناسبة ، أرغمني على أن اكفر عنه بصوم دام أربعة عشر يوماً ، فكانت النتيجة أعظم بكثير مما كنت أنتظر .

وليس من غرضي أن أستنتج من هذه الحوادث أنه على المعلم أن يفرض على نفسه صوماً لمدة تطول أم تقصر تكفيراً عن ذنوب تلاميذه . ولكنني أحكم بأن هنالك بعض حوادث تستدعي اللجوء الى هذا الدواء القاسي العنيف . ان هذا النهج ينبيء بدياً بنفوذ البصيرة وقوة الروح . وحيثما يحدث أن يفقد الحب والعطف بين المعلم والتلميذ ، أو ان لآتمس خطيئة التلميذ أعماق المعلم النفسية ، أو حينما يفقد الاحترام بينهما ، فاني أعتقد ان الصوم لا يكون له من محل ، وربما كان ضرراً بالغاً . وعلى الرغم من أن تساورني الشكوك في ما يحتمل أن يكون من نتائج الصوم في مثل هذه الحالات ، فاني لأشك في أن المعلم انما يحمل مسؤولية

كبرى تافاء الخطايا التي يقع فيها تلاميذه .  
ان تنفيذنا لأول كفارة لم يكن صعباً علينا . ولم أشعر بأني في حاجة  
لأن أعطل شيئاً من أعمالى العادية ، ولى أن أذكر أنى كنت فى ذلك  
الوقت أعيش على الفواكه الصرفة . أما الصيام الثانى الذى فرضته  
كفارة على نفسى، فقد شعرت خلاله بكثير من التعب فى نصفه الأخير .  
والسبب فى هذا أنى لم أكن قد فقّهت على صورة بينة قيمة  
« الراماناما » وأثرها ، فكانت قدرتى على احتمال المشقات أقل مما هى  
الآن . وفوق ذلك فانى لم أكن أعرف الطريقة العملية التى يجب أن  
تتبع فى الصوم وعلى الأخص ضرورة تعاطى كميات كبيرة من الماء ،  
مهما شعر الانسان مع تعاطيها من الغثيان وسوء الطعم . ولم أشرب  
أثناء صيامى الثانى الا قليلا من الماء، فكان كره الطعم، وكنت أشعر  
مع تعاطيه بغثيان . وبدأ مريئى يجف وأحس فيه بضعف ظاهر ، وفى  
خلال الأيام الاخيرة لم أستطع الكلام الا بصوت خافت جداً . وعلى  
الرغم من هذا كنت أؤدى أعمالى بطريق الاملاء عندما أحتاج إلى  
كتابة شىء . فلما اعتدت أن يقرأ لى بانتظام مقاطع من « الراماناما »  
وغيرها من الكتب المقدسة ، بدأت أشعر بأن عندى من القوة  
ما يكفى أن أناقش وأبدي رأى فى كل المسائل المستعجلة .  
لقد وقعت لى فى حياتى حوادث كثيرة جعلتني أحتك بكثير من  
الناس وبعدهد عديد من الجماعات ، فلم أشعر فى خلال كل التجارب التى

وقعتلى معهم أنى أشعر بأقل فارق بينهم سواء أ كانوا أقارب أم أباعد،  
من قومي أم أجنب ، بيضاً أو من ذوى الألوان ، هندوكيين أم من  
غيرهم من الطوائف ذوى العقائد الاخرى ، مسامين أو فارسين أو  
نصارى أو يهود . وأقول موقناً بأن قلبى لم يتسع يوماً ما فى حياتى  
للشعور بمثل هذه الفروق. على انى لا أدعى أن هذه فضيلة خاصة بى، لانها  
كانت جزءاً من طبعى وقسماً من فطرتى ، ولم تكن نتيجة مراعاة عكفت  
عليها أو غرض سعيت اليه ، على الضد مما كان شأنى فى مراعاة « الالهسا »  
( عدم العنف ) والبراهما شاريا ( العزوبة ) وغيرها من الفضائل العليا .  
فان هذه فضائل مرنت عليها واكتسبتها اكتساباً

ولما كنت أشتغل بالمحاماة ، كان كتبه مكتبى يقيمون معى ، ومن  
بينهم هندوكيون ونصارى . وانى لا ذكر انى كنت أعاملهم دائماً كما لو  
كانوا من أهلى وذوى قرابتى ، بل كنت أتصرف معهم كما لو كانوا من  
أسرتى ، وكثيراً ما كنت أختلف وأعارك زوجى اذا هى حاولت أن  
تقف فى طريق معاملتى اياهم على هذا الاعتبار . وكان أحدهم نصرانياً

منحدرا من سلالة من الانجاس Panchawa

كانت حجرات المنزل مشيدة على الطريقة الغربية ، وليس لها منافذ  
الى الخارج مباشرة . وكانت كل حجرة مهيأة بآنية الغسيل والأدوات  
بالاخرى . وعلى الرغم من أنى كنت أعهد بنظافة هذه الأشياء الى خادم،  
كنت دائماً الاحظها بنفسى أو تلاحظها زوجى . وكان الكتبه يقومون



بتنظيف أدواتهم بأنفسهم لأنهم كانوا يعتبرون البيت بيتهم . ولكن  
الكاتب النصرانى كان جديداً في العمل، وكان من واجبنا القيام بملاحظة  
حجرته . وكانت زوجى تلاحظ حجرات الآخرين ، غير أنها كانت  
ترى أن مدى قيامها بمثل هذه الواجبات تقف عند الحد الذى تكلف  
فيه بملاحظة أدوات شخص من الأنجاس، فاختلفنا . ولم تكن تحتل  
أن ترانى أعنى بتنظيفها ، فى حين أنها تأنف أن تقوم هى بهذا العمل .  
وانى ما أزال أذكر حتى اليوم صورتها وهى تحجدنى بنظراتها، وقد  
احمرت عيناها من الغضب وتساقطت منها الدموع ، وقد أخذت  
تهبط السلم وفى يدها الطسوت . ولكنى كنت زوجاً قاسياً فى ذلك  
الوقت ، وكنت أعتبر أنى معلمها ومثقفها ، فأخذت أوذيتها وأولها من  
طريق حبى لها . ولا شك فى أنى كنت بعيداً عن أن أقنع بأن أراها  
تحمل الطسوت فى يديها . بل كنت أريد أن تقوم بهذا العمل مغتبطة  
مسرورة . فقلت لها رافعاً صوتى - « انى لا أستطيع أن أرى مثل هذه  
الترهات فى منزلى » .

ولقد اخترقت هذه الكلمات قلبها كما لو كانت سهماً دامياً، فأجابتنى  
فى غضب - « دع بيتك لك اذن واركنى أذهب » . فنسيت فى تلك  
البرهة نفسى، وجفت من روحى احساسات العطف والشفقة، وأمسكت  
بيدها وسحبت المرأة المسكينة نحو الباب الخارجى الذى كان يقع قبالة

السلم ، وعالجت فتحه لأقنّف بها إلى الخارج . وكانت الدموع تنهمر من عينيها غزيرة كثيرة ، والتفتت إلى قائلة - « ألا تشعر بنجبل ؟ هل لزام عليك أن تنسى نفسك الى هذا الحد ؟ إلى أين أذهب ؟ ليس لي أب ولا أم ولا أقارب في هذا الثغر . ولأني زوجتك ينخيل إليك أن عليّ أن أحتمل اهاناتك ، وردائك . فشب الى نفسك بحق السماء واغلق الباب . ووفر علينا أن نظهر أمام الناس بهذا المظهر » .

فتظاهرت بالشجاعة ، ولكن النجبل كان قد ملكني وغلبنى ، فأقفلت الباب . واذا كانت زوجي لم تستطع تركي ، فاني لم أكن لأستطيع تركها . ولقد كان لنا كثير من المشاحنات ، غير أنها كانت تنتهي بسلام . ولا أنكر أن زوجي بما كانت تظهر من القدرة على الاحتمال ومعالجة الكاره ، كانت دائماً تنتصر عليّ .

اني اليوم في مركز أستطيع فيه أن أروي هذه الحادثة بشيء من التفصيل ، لأنها انما وقعت في عهد تحللت أنا من قيوده تماماً ، وخرجت من حماته لحسن حظي . اني لم أعد ذلك الزوج الأعمى المتشامخ ، ولم أعد معلمها ومثقفها ، وفي استطاعتها اليوم أن تسقيني بكأس أشد مرارة من الكأس الذي سقيتها به . لقد أصبحنا صديقين مجريين ، فلا ينظر أحدنا لصاحبه باعتباره موضعاً للشهوة . لقد خدمتني ومرضتني أثناء مرضي باخلاص تام ، من غير أن تفكر في أن أ كافئها بشيء تلقاء اخلاصها .

وليس لأحد أن يستخلص من كل الرواية التي أرويها عن ذكريات  
أعتقد أنها مقدسة، أننا زوجين متماثلين أو أن بيننا توافق في الصفات التي  
تعود كلا منا في الحياة . على أن زوجي لا تعرف ان كان لها في الحياة  
غايات عليا غير الغايات التي أتطلع اليها . غير أن بعض أعمالي حتى اليوم  
لا تحوز موافقتها ورضاهها . وبرغم هذا فإننا قلما تتناقش فيها ، لأنني  
لا أرى خيراً في أن تتناقش . ذلك لأنهم لم تتعلم . فلا أبواها عنيا بذلك  
ولا أنا عنيت به عند ما كان الواجب يدعوني الى ذلك . ولكن المرحم  
العلوية زودتها بصفة عليا تشترك معها فيها كل زوجة هندوكية . فإنها  
سواءً بارادتها أم رغما عنها ، وسواءً أبوعيا أو بعقلها الباطن ، كانت  
تتبع خطواتي ، ولم تقف يوماً واحداً في وجهي لتحول بيني وبين اتباع  
خطة في الحياة أضبط فيها نفسي الضبط الذي أريد . ولذلك ترى أنه على  
الرغم من أن بيننا فرقا كبيراً من حيث العقلية ، فاني كنت أشعر  
دائماً أن حياتنا حياة قناعة ورضاً وسعادة وضرب الى الامام

## الفصل الرابع عشر

### الستيا جراها في ناتال

وقعت حادثة اضطررنا معها الى تطبيق مبدأ الستيا جراها في ناتال عقب مغادرة مستر « جوكهال » - Gokhale - لجنوب افريقية (١) . وظن « جوكهال » ان ضريبة الثلاثة جنيهات سوف تلغى في بحر سنة وان القانون بالغائها سوف يعرض على برلمان اتحاد جنوب افريقية في الدورة المقبلة . ولكن على الضد من ذلك صرح جنرال « سمطس » من فوق منصة البرلمان ان حكومة الاتحاد لاتستطيع ان تتقدم بقانون يرمى الى الغاء هذه الضريبة مادام الأوروبيون في جنوبي إفريقيا يعارضون في الغائها . ولم يكن في هذا القول ظل من الحقيقة . ذلك لأن الأعضاء الذين كانوا يمثلون ناتال لم يكن لديهم من القوة ما يكفي للتأثير في الأعضاء

---

(١) مستر « جوكهال » محام وزعيم هندي حضر الى جنوب افريقية لىفاوض الحكومة في رفع ضريبة جائرة فرضت على كل هندي من الأجراء ينتهي عقده ويصبح حراً في عمله وقدرها ثلاثة جنيهات على كل شخص رجل أو امرأة أو طفل . وكان الغرض من هذه الضريبة أن يضطروا للعودة الى العمل بالعقود ، وفي هذه الحالة ترفع عنهم الضريبة . وقد غادر « جوكهال » جنوب افريقية وهو يعتقد ان هذه الضريبة ستلغى .

الذين يمثلون أربع الولايات معاً . ومن ناحية أخرى كان الواجب يدعو جنرال « سمطس » أن يتقدم بمشروع القانون عن الوزارة الى البرلمان ويترك الأمر تجرى به الظروف بما يقدر لها . ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وزودنا في الوقت نفسه بفرصة كنا نترقبها تضمنت كل الأسباب المغربية على أن نعلن على الحكومة « الحرب » . ولقد اعتمدنا في اعلان الحرب على سببين . الأول أننا اذا فرض وأعلنت الحكومة خلال المعركة عهداً جديداً ثم أخذت تراوغ لسجبه ، فاننا لانحسر شيئاً بأن نتابع الجلاذ حتى ننال بغيتنا بالغاء القانون . والثاني : ان تحلل الحكومة من عهد قطعته لزعيم مثل « جوكهال » هبط جنوب افريقية بصفته ممثلاً للهند ، لا يعتبر اهانة شخصية له فقط ، بل يعتبر سباً علنياً للهند جمعاء وسخرية بها ، ولذا لا يمكن أن نغضى عنه ونهمله .

وأصبح من المستحيل علينا أن نغضى عن اهانة تلحق بوطننا ، ولذا دب فينا الشعور بأن على الذين يقومون بحركة الستيا جراها أن يدخلوا ضريبة ثلاثة الجنيهات في برنامجهم . وما دامت هذه الضريبة قد دخلت ضمن الأغراض التي نسعى اليها من وراء المعركة ، فان الاجراء ذوى العقود لا بد ان ينضوا تحت لواء « الستيا جراهيين » ويشركوا في الحركة بقلوبهم . ولا ينسى القارىء ان هذه الفئة ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن الاشتراك في الجهاد . ولا شك في ان هذا التوسع الذي أصاب سياستنا قد زاد المسؤولية التي نشعر بها من جهة ،



وفتح أمامنا ميداناً جديداً نحصل فيه على متطوعين يؤمنون بمبدئنا من جهة أخرى .

وحتى ذلك الحين لم تكن كلمة « الستيا جراها » من الأشياء التي تجري على السنة الأجراء ذوى العقود ، كما انهم لم يكونوا قد تعلموا كيف ينفذونها من طريق عملي أو يشتركون فيها . ولما كان أكثرهم أميين ، لم يطلعوا على ما كان ينشر في جريدة «الرأى الهندي» أو غيرها من الصحف . غير اني مع هذا وجدت ان هؤلاء المساكين كانوا يرقبون المعركة عن كثب ، وكانوا يفهمون طرفاً منها ، في حين أن بعضهم كثيراً ما أبدى أسفه لعدم قدرته على الاشتراك فيها والانتظام في صفوفها . ولكن لما كسر وزراء حكومة الاتحاد كلمتهم ونقضوا عهدهم ، ودخات ضريبة ثلاثة الجنيهات ضمن برنامجنا ، خيل الى أن الجميع سوف ينضون تحت لوائنا .

وكتبت الى «جوكهال» انبئه بنجر التكووص عن العهد الذي عاهده عليه وزراء حكومة الاتحاد ، فكان ألمه بالغاً وأسفه شديداً . ولكني عرفته بأن يطمئن للحالة وأن لا يقلق علينا ، وأكدت له اننا سوف نحارب حتى الموت واننا سوف ننتزع من حكومة الترنسفال قانوناً بالغاء الضريبة . وعلى هذا اثبتت عن عزمي الذي كنت عزمته على الرجوع الى الهند في خلال عام ، وأصبح من المستحيل على أن أعرف متى أعود اليها . وكان « جوكهال » رجل حقائق لا رجل نظريات . فكتب الى

لكي أطلعه على أقصى وأقل ما يمكن أن نجد من رجالنا في جيش السلام، مع كشف مفصل بأسمائهم . وعلى قدر ما أستطيع أن أتذكر الآن أرسلت إليه كشفاً يتضمن خمسة وستين أو ستة وستين اسماً كالحمد الأقصى وستة عشر كالحمد الأدنى ، وأخبرته انني لن أبتظر أية مساعدة تأتي من ناحية الهند للقيام بمساعدة مثل هذا العدد الضئيل .

وبينما كنا نعد المعدات اللازمة لنقوم بالمعركة ، وقع حادث جديد زاد في آلامنا وأمض نفوسنا ، ولكنه فتح باب العمل حتى للنساء كي يشتركن في العمل ويخضن معنا المعركة ، على ان بعض المقدمات منهن كن قد وعدن بالاشتراك في الحرب ، حتى ان الستيا جراهيين عندما سجنوا لانهم مارسوا بيع سلعهم من غير أن يكون معهم ترخيص ، عبر نساؤهم عن رغبتهن في أن يحدون حذو الرجال . ولكننا لم نوافق على أن نرسل النساء الى السجون في بلاد أجنبية .

ومن غير أن يستبين أحد منا أي شيء ، كان الله يعد لنا أسباب الانتصار ، فدفع الاوروبيين الى الظلم حتى ظهر جلياً واضحاً ، وحدث ما لم يدر في روع أحد أن يحدث .

وفد على جنوب افريقية عدد عديد من الرجال المتزوجين من الهند ، بينما تزوج بعض الهنود في جنوب افريقية . وليس في الهند قانون يحتم تسجيل الزواج العادي ، ويسعناض عن تسجيل عقود الزواج بالاحتفالات الدينية التي تعطى العقد صبغته القانونية . فالواجب اذن يقضى بأن تحترم

هذه العادة في جنوب إفريقيا . وبالرغم من أنها عادة محترمة فان الهنود نزلوا جنوب افريقية منذ أربعين سنة ( قبل سنة ١٩١٣ ) وشرعية عقود الزواج التي عقدها طوال هذه المدة لم تكن موضع مناقشة أو حوار يوماً من الأيام . ولكن حدث في ذلك الوقت أن نظرت قضية أمام القاضي « سيرل » Searle رئيس محكمة مقاطعة الكاب العليا ، وأصدر فيها . حكماً بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩١٣ قضى فيه بأن كل زواج عقد في جنوب افريقية يكون خارجاً عن حدود الزواج الشرعي ، ما لم يكن قد عقد على مقتضى المراسيم النصرانية وسجل أمام مسجل عقود الزواج .

ولقد قضى هذا الحكم المزعج بجرة قلم واحدة على كل زواج عقد في جنوب افريقية على مقتضى المراسيم الهندوكية والاسلامية والزرادشتية . وأصبح كل الزوجات الهنديات بمقتضى هذا الحكم لسن زوجات شرعيات لأزواج شرعيين ، ونزلوا الى مرتبة الجوارى والاماء ، بينما فقد أولادهم الحق في أن يرثوا ما يملك آباؤهم ، فأصبحنا رجالا ونساء في موقف حرج لا يمكن احتمال ما يترتب عليه من النتائج ، وحزت هذه السخرية في قلوب الهنود فهاجوا وغضبوا .

وجرياً على عادتي كتبت للحكومة لاعرف رأيها في الأمر ، وهل هي توافق على الحكم الذي أصدره القاضي « سيرل » ، وعماً اذا كانت مستعدة ، في حالة ما اذا اعتبر تفسير القاضي صحيحاً ، أن تمحور

القانون حتى يعترف بشرعية عقود الزواج الهندية التي عقدت حسب العادات الدينية التي يعتنقها المتزوجان في كل حالة من الحالات والتي تعتبر في الهند مشروعة معترفاً بها . وكانت الحكومة اذ ذاك في حالة نفسية يصعب عليها فيها ان تصفى وان تصيخ بسمها للشكوى ، أو ان تستبين طريق الرشاد فتجيب ما طلب منها .

فعدت جمعية « الستياجراها » اجتماعاً لتتظر هل تستأنف ضد الحكم الذي أصدره القاضي « سيرل » ، ولكن انتهت المناقشة بأنه يستحيل علينا أن نستأنف قانوناً في مثل هذه الحال . لأن الاستئناف لا يقبل في مثل هذه الحال إلا من طريقين . فاما أن تستأنف الهيئة الحاكمة اذا فضلت ذلك ، واما أن يستأنف الهنود أنفسهم ، اذا عاونتهم الحكومة علناً وأوعزت إلى المدعى العمومي أن يقوم بعمل الاستئناف . وفي احدى هاتين الحالتين يقبل الاستئناف قانوناً . أما ان نستأنف من غير أن نشق بأن أحد الطريقين ممهد ، فمعنى هذا أننا نقبل الاعتراف بعدم شرعية عقود الزواج المعقودة بين الهنود . واذن وجب أن نلجأ الى عمليات الستياجراها ، حتى ولو قمنا بعمل الاستئناف ورفض فعلاً . وفي هذه الحال يحسن أن لا نلجأ الى الاستئناف لنمحو به مثل هذه الالهانة الكبرى .

وساورتنا أزمة شديدة ، اذ شعرنا بأنه يستحيل علينا أن نتتظر يوماً أو ساعة معينة . وأضحى الصبر مستحيلاً ازاء هذه السبة الشديدة التي

وجهت الى شرف نساءنا . وعلى هذا عزمنا على أن نقوم بعمل  
« الستياجراها » وبعناد من غير أن نأبه لعدد الذين يخوضون المعركة منا  
كبر أم صغر . وهنا لم تفكر في أن نمنع النساء عن الاشتراك في المعركة ،  
بل صممنا على أن ندعوهن كي يشاركن الرجال في العمل . وبدأنا  
بدعوة الاخوات اللاتي يعشن في مزرعة تولستوى ، فوجدت أنهن  
مغتبطات بخوض غمار هذه الحرب . غير أني فضلت أن أبين لهن  
المخاطر التي قد يتعرضن لها من جراء اشتراكهن في مثل هذا  
العمل ؛ وأظهرت لهن أن عليهن أن يفرضن على أنفسهن ضوابط خاصة  
من حيث الغذاء والملبس وبقية الضرورات الأخرى وعلى الأخص  
الكامليات . وحذرتهن من أن يفرض عليهن شغلا شاقاً في السجن ،  
فيغسلن ملابس أو يشتمن السجنان . ولكنهن كن بإسلاط ولم  
يداخلهن خوف من مثل هذه التحذيرات . وكانت احداهن على وشك  
الوضع ، وكانت ست أخريات يحملن أطفالا على أذرعتهن . ولكنهن  
كن جميعاً صامدات للحرب والعراك مغتبطات بالاشتراك في الجهاد ،  
فلم أرد أن أقف حائلا دون رغبتهن . وكن جميعاً من « التاميل » -

Tamilians

على أن من السهل أن يدخل الانسان السجن جانياً معتدياً ، ولكنه  
من أصعب الأشياء أن يسجن المرء رغم أنه برىء . والمجرم إذا خشى  
القبض عليه هرباً ، فيتعقبه رجال الشرطة ليقبضوا عليه . ولكنهم



انما يقبضون على الرجل البرى الذى يسمى لأن يقبض عليه حراً مختاراً،  
فى الوقت الذى لا يجدون فيه مناصاً من القبض عليه . ولم تفلح أول  
محاولة فمن بها . وانحصرت محاولتهن فى اجتياز حدود الترنسفال عند  
بلدة تدعى « فرينيجنج » - Vereeniging - من غير تصريح باجتياز  
التخوم . ثم عمدن إلى بيع السلع من غير رخصة ، ولكن البوليس لم  
يشأ أن يتعرض لهن . وأصبحن فى مشكلة كيف يقبض عليهن ؟ ولم  
يكن لدينا من الرجال عدد كاف على استعداد لأن يدخلوا السجن ،  
والذين كان عندهم هذا الاستعداد كانوا فى حيرة من أمر الطريق الذى  
يتبعونه ليدخلوه .

عندما وصلت الأمور إلى هذا الحد عزمنا على تنفيذ خطة كنا  
استبقيناها لحين الحاجة إليها ، فنجحت وحقت رغباتنا . وكنت قد  
فكرت فى أن أضحي بكل المقيمين بمستعمرة العنقاء فى الوقت الذى  
تشتد فيه الحاجة إلى مثل هذا العمل . وكانت هذه الوسيلة آخر ما أقدم  
من قربان لآله الحق والعدل . والمقيمون فى العنقاء كانوا جميعاً من ذوى  
قرباى ومن الذين عاونونى فى العمل . واستقرت الفكرة على أن نرسل  
بهم جميعاً إلى السجن ما عدا القليل منهم ليقوموا بشؤون « الراى  
الهندي » والذين يعنون بالأولاد الذين هم دون السادسة عشرة من  
العمر . وكانت هذه هى التضحية الكبرى التى أستطيع أن أقدمها فى ذلك  
الوقت . ولقد ذكرت أسماء ستة عشر شخصاً لمستر « جوكهال »

باعتبار أن هذا العدد هو أقل عدد يمكن الاعتماد عليه في العراق المنتظر ،  
وكانوا جميعاً من مؤسسي مستعمرة العنقاء . أما الخطة فكانت تنحصر  
في أن يجتاز هؤلاء حدود الترنسفال فيقبض عليهم لأنهم اجتازوا  
التخوم من غير ترخيص رسمي .

كان اجتياز حدود الترنسفال اعتداء . وكذلك كان اجتياز حدود  
الناتال من الترنسفال اعتداء أيضاً . فإذا قبض على الأخوات وهن  
يجتازن حدود الناتال ، فحسن . أما إذا لم يقبض عليهن فكان عليهن  
أن يتقدمن حتى يصلن الى نيوكاسل مركز مناجم الفحم في ناتال  
ويعسكن هنالك ، ويأخذن في تحريض الأجراء ذوى العقود على أن  
يقوموا باعتصاب عام . وكن يتكلمن بلغة « التاميل » ، ومنهن من  
يتكلمن بالهندوستانية ولكن بغير اتقان . بيد أن أكثر الأجراء  
الذين يعملون في مناجم الفحم من مقاطعة مدارس وكلهم يعرف لغة  
« التاميل » أو « التيلوغو » ، كما كانت البقية من سكان شمالي الهند .  
فإذا اعتصب الأجراء اجابة لدعوة الأخوات ، فإن الحكومة اذذاك  
تكون مضطرة لأن تقبض عليهن ومعهن الأجراء الذين من الجائر أن  
تزداد حماسهم وتلتهب حميتهم . هذه كانت المناورة التي فكرت فيها  
وشرحتها لآخوات مزرعة تولستوى من الترنسفال .

وذهبت الى مستعمرة العنقاء وكلمت نزلها في الأمر وشرحت لهم  
تصميمي . وكان أول ما فعلت أني أخذت أتفاوض مع الآخوات

المقيات في المستعمرة . وكنت أعرف أن فكرة ارسال النساء الى السجن فيها مخاطرة وما زق حرجة كل الحرج . وكان أكثر المقيات في العنقاء يتكلمن اللغة الكجراتية ، ولم يكن لديهن مالدى أخوات الترنسفال من المراتة والتجاريب . فاذا نكصن في وقت العمل أو اذا لم يستطعن تحمل أعباء السجن ، فرما طلبت منهن أن يعتذرن . فاذا فعلن ذلك ، فانهن بذلك لا يطعننى طعنة شديدة لا غير ، بل انهن يحدثن بذلك أقصى المضار للحركة نفسها . وعلى هذا عزمتم على أن لا أفضى بالأمر لزوجى ، لأنها لم تكن تستطيع أن تقول « لا » فرفض أى اقتراح أعرضه عليها ، واذا قالت « نعم » فانى لا أستطيع أن أزن القيمة الحقيقية التى تختفى وراء موافقتها . هذا وانى أعتقد أن واجب الزوج فى مثل هذه الظروف انما ينحصر فى أن يترك زوجه حرة فى أن تتخذ الطريق التى تختارها متحملة فى ذلك المسؤولية كلها ، وأن لا يمتعض اذا هى لم تختار أن تشاركه فى أية سبيل يريد أن يلقى بنفسه فيها . فتكلمت مع بقية الأخوات ، فوافقن مسرورات على مقترحاتى ، وأظهرن استعدادهن للذهاب الى السجن ، بل أكدن لى انهن على استعداد لأن يقضين بقية أيامهن فى السجن وليكن بعد ذلك ما يكون . ولقد سمعتنى زوجى أتكلم معهن فبادرتنى قائلة

« انى لحزينة لأنك لم تفاتحنى بهذا الأمر . فأية نقيصة رأيتها

فى حتى تتصور أنى غير قادرة على احتمال مكاره السجن ؟ انى أريد أن

أنهج نفس هذا النهج الذي تدعو اليه الاخريات . فأجبتها : -  
« انك تعلمين انى آخر شخص يفكر فى أن يجعلك تتألمين . وليست  
المسألة تنحصر فى انى لا أثق بك . وانى لا أكون مسروراً جداً اذا أنت  
ذهبت الى السجن ، على أن لا يظهر بحال من الأحوال أن ذهابك اليه  
كان باغواء منى . وفى مثل هذه الأمور يجب على كل انسان أن لا يعتمد  
الا على قوته وشجاعته الشخصية . فاذا سألتك أن تشركى فى الحركة ،  
فربما تتقدمين للاشتراك طواعية لطلبى . وعلى هذا اذا بدأت تنتفضين  
فى قاعة المحكمة أو اذا أزعجتك مصاعب السجن ، عجزت عن أن  
أعزو الخطأ اليك ، ولك أن تتصورى كيف يكون حالى ، وكيف يكون  
موقفى . كيف أستطيع أن أستر على ضعفك أو كيف أستطيع أن أرى  
وجه الناس ؟ ان مخاوف كهذه هى التى حالت دون أن أسألك أن تذهبي  
مختارة الى السجن » . فقالت

- « ليس لك من شأن بى . فانى اذا لم أستطع أن أتحمّل مكاره السجن  
فانى أستطيع أن أسترّد حرّيتى باعتذار بسيط من غير أية مسئولية عليك .  
ومادمت أنت تستطيع أن تتحمّل السجن وكذلك اولادى ، فلماذا لا  
أحتمله أنا ؟ انى ملزمة أن أشرك فى المعركة » .

- « واذن فأنا ملزم أن أدعوك اليها . أنت تعرفين أحوالى وكذلك  
تعرفين مزاجى وحتى هذه اللحظة لك أن تعيدى النظر فى الأمر وتتمعنى  
فيه طويلاً ، فاذا انتهيت بعد التفكير والتأمل الطويل الى أنك لا تشتركين

في الحركة ، فانك حرة في أن تنسجني . ولك أن تفهمي أنه ليس من موجب للخجل اذا أنت اثنتيت عن عزمك الآن » . فأجابت « ليس عندي ما أفكر فيه ، اني مصممة تماماً »

وكذلك اثنتيت الى بقية نزلاء العنقاء وأوحيت اليهم أن لكل منهم أو منهن أن يصل الى النتيجة التي يرغب فيها بكامل الحرية ، ومن غير أن يتأثر بحكم غيره . ولقد كررت عليهم هذا الوحي منتحياً طرقات شتى ونبهتهم اليه وحذرتهم من أن ينكص أحدهم أو بعضهم في منتصف الطريق طالت المعركة أم قصرت ، وسواء عمرت مستعمرة العنقاء أم خربت ، وسواء احتفظ الكل رجالاً ونساء بضحة جيدة أم حطت عليهم الأمراض في السجن . فوطن الجميع أنفسهم على العمل وأظهروا الاستعداد التام . وكان الرجل الوحيد الذي شارك في العمل من غير نزلاء مستعمرة العنقاء رجلاً يدعى « رستوجي جيفانجي جور كهودو » وكان من الضروري أن لا أخفي عنه شيئاً من مجمل هذا ، ولكن « كا كاجي » كما كان يدعى ، لم يكن ذلك الرجل الذي يهتز أمام مثل هذه الأشياء فقد زار السجن من قبل وشدد في أنه يزوره مرة أخرى . وبدأت الغزوة .

كان على الغزاة أن يذهبوا الى السجن بمجرد اجتياز التخوم ودخول أرض الترنسفال من غير أن يكون لديهم ترخيص بذلك ، ولم نشعر



أحدًا بتحرك هذا الركب، وكتمنا الخبر عن الصحف، وكنا قد زودنا  
الغازيات بنصيحة محصلها ان لا يعطين أسماءهن حتى لو طلب منهن رجال  
الشرطة ذلك، ويقن لهم انهن لا يظهرن شخصياتهن الا أمام المحكمة .  
وكان رجال الشرطة عارفين بمثل هذه الظروف . فبعد أن عكف  
الهنود على اتباع خطة البحث عن طريقة يقبض عليهم بها ، كانوا  
يتمنعون عادة عن اعطاء أسمائهم لمجرد التسلية واللهو ، وبذلك لم يجد  
البوليس شيئاً جديداً في غازيات العنقاء ، فقبض عليهن جرياً على عادته  
وقدمن للمحاكمة وحكم عليهن بالسجن ثلاثة أشهر مع الشغل . وكان  
ذلك في يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٣ .

والآن بقى على الأخوات اللاتي لم يفلحن في الترنسفال أن يدخلن  
ناتال ، ودخلن بالفعل ، ولكن لم يقبض عليهن . فيمن شطر  
تيوكاسل وبدأن عملهن اتباعاً للتعليمات التي أخذنها . وهناك انتشر  
تأثيرهن انتشار النار في الهشيم . فان الرواية التي روينها للعمال عن الظلم  
الفادح الذي توقعه عليهم ضريبة الثلاثة الجنيهات هزتهم من الأعمال  
وحفزتهم للعمل ، فأضربوا . ووصلتني الأخبار بطريق البرق ، فارتبكت  
بقدر ما سررت . وماذا كان على أن أعمل ؟ فاني لم أكن أتوقع مثل  
هذه الضحوة العظيمة ، لأستعد لها ، ولم يكن لدى الرجال ولا الاموال  
التي أستطيع بها أن أواجه حالة كهذه . ولكني حددت واجبي تحديداً

= ٢٤١ =

تماماً . فشعرت بأنه يجب على أن أذهب الى نيوكاسل وأفعل كل ما أستطيع . فسافرت إليها في الحال  
أما الحكومة فلم تستطع أن تترك أخوات الترنسفال الباسلات متمتعات بحريتهن ليفعلن ما يردن ، وليزاولن نشاطهن في الدعاية .  
فحوكمن وحكم عليهن بنفس ما حكم به على أخواتهن الأوليات ، وسجن مع غازيات مستعمرة العنقاء .



---

من كتاب لندن تأليف أحمد عطية الله تعرف كل شئ عن لندن والانجليز

( م - ١٦ )

## الفصل الخامس عشر

### المقاومون السليون

لقد هزت هذه الحوادث قلوب الهنود من الأعماق . ولم تقتصر هذه الهزة على جنوبي افريقية ، بل تعدتها الى الهند . ولقد ظل سير « فيروز شاه مهتا » حتى ذلك الحين غير مهم بقضيتنا العامة . وفي سنة ١٩٠١ نصحنى بشدة أن لا أهبط جنوبي افريقية ، واقتصرت حجته على أنه من المتعذر أن يعمل الانسان أى عمل يخدم به الهنود المقيمين فى الخارج، مادامت الهند مستعبدة ولم تحقق حريتها ، كما أنه لم يتأثر بحركة «الستياجراها» فى أدوارها البدائية الأولى . ولكن دخول النساء الى السجن حركة وهزه الى الدرجة التى لم تبلغها أية حادثة أخرى . ولقد أشار الى هذا فى خطابه الذى ألقاه فى قاعة محاضرات بومباى، فقال بأنه كما ذكر أن نساء الهنود يرقدن فى سجون جنوبي افريقية ، يغلى دمه فى عروقه .

كانت الشجاعة التى أبدأها النساء مما لا تعبر عنه الكلمات التعبير الصحيح . وكن قد سجن فى سجن « مارتربرج » ، حيث بولغ فى ازعاجهن والكيد لمن بمختلف الصور . فأعطيت اليهن أسوأ الأطعمة، وعهد

اليهن بغسل الملابس . ولم يسمح لهم باحضار طعام من الخارج اللهم الا في أواخر مدة الحبس . وكانت احداهن قد قطعت على نفسها عهداً دينياً بأن لا تتغذى الا بغذاء خاص . وبعد جهد جهيد ومحاولات كثيرة سمح لها رجال السجن بأن تتناول ذلك الغذاء ، ولكن المادة التي كانت تقدم لها منه كانت مما تعافه النفس ويأخذها من منظرها الغثيان . فلما أفرج عنها خرجت من السجن أشبه بهيكل عظمي ، حتى اننا لم ننقذ حياتها الا بجهد شديد . وأفرج عن أخرى وهي مصابة بحمى شديدة لم نستطع انقاذها منها فماتت بعد الافراج عنها بأيام .

وأنى لى أن أنسى « فلياما » ؟ - Villiama - هي فتاة من جوها نسبرج لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، ولقد رأيتها وهي طريحة الفراش . وكانت طويلة القامة ، فكان منظر جسمها الأعجف الهزيل ، مما يشق المرأى ويصهر القلوب الرحيمة . سألتها :

- « أتندمين يا فلياما على أنك دخلت السجن » ؟ فأجابتنى فوراً  
- « أأندم ! انى لعلى استعداد الآن وفي هذه اللحظة أن أعود اليه

لوقبض على . »

- « وماذا لو ينتهى الأمر بموتك » ؟

- « انى لا أهتم بهذا . ومن ذا الذى لا يجب أن يموت فى سبيل

وطنه » ؟

وبعد بضعة أيام من هذا الحوار لم تصبح فلياما الا حديثاً يروى :

ولكنها خلفت لنا باسمها الخالد ميراثاً أدياً عظيماً. وعقد الهنود اجتماعات في أماكن مختلفة ليعبروا بها عن حزنهم عليها ولتقبل بعضهم من بعض العزاء فيها ، وبدأ الهنود يفكرون في إقامة قاعة يسمونها قاعة « فلياما » ليخلدوا بذلك ذكرى التضحية الكبرى التي قدمتها اليهم إحدى بنات الهند . واني لأقول أسفاً ان هذه الفكرة لم تحقق الى الآن . فقد أعترض تنفيذها صعب كثيرة . لان وحدة الجالية الهندية هنالك مزقتها الاختلافات الداخلية ، وترك المشتغلون بالقضية الميدان الواحد تلو الآخر ولكن مما يسليني انه سواء أشيدت قاعة من اللبنات أم لم تشيد ، فان الخدمة التي قامت بها « فلياما » خالدة ولن تزول . لقد أقامت هيكلها الأبدى بعمل يديها . وان اسم « فلياما » سيظل مذكورا في تاريخ حركة الستياجراها في جنوبي افريقية ما بقى للهند اسم يذكر فوق الكرة الأرضية .

ان التضحية التي قدمتها أوليائكن الاخوات لتضحية خالصة بعيدة عن التأثير بالأغراض ، لأنهن كن جاهلات كل ما يترتب على الاجراءات القضائية . وكثيرات منهن لم يكن ليدركن معنى للوطن ، بل كانت وطنيتهن قائمة على مجرد الايمان . وبعضهن كن غير مثقفات ولا يستطعن قراءة الصحف . ولكنهن كن يدركن أن ضربة مميتة قد وجهت الى شرف الهنود ، وان ذهابهن إلى السجن ليس الا صرخة عالية يعبرن بها عن آلامهن ومواجعهن ، بل صلاة يرسلنها من أعماق قلوبهن لمن هو مطلع



على الأفتدة . فكانت هذه التضحية اسمى وأنقى التضحيات . وان الصلاة التي تصدر من القلب لن تضلَّ طريقها الى الله . كما أن التضحية لن تثمر الا بقدر ماتكون صافية نقية . ان الله ليطلب من العبد أن يتورع ويتبتل . انه ليتقبل عطاء الثا كاة ، دانقاً كان أو سحتوتاً بغبطة ، مادامت تهبه ورعة متبتلة ، أى مادامت تهبه غير مدفوعة عليه بفرض ذاتى ، فيرده عليها أضعافاً مضاعفة . لقد وهب « سوداما » (١)

Sudama - الساذج حفنة من الأرز ، ولكن عطيته الضئيلة قد كفت الناس أعواماً من الشدة والعوز والموت جوعاً . لهذا أعتقد أن سجن الكثيرين ربما كان عملاً فائلاً وبلا نتيجة ، ولكن تضحية صافية نقية تقوم بها نفس تجردت من الأغراض ، لن تذهب سدى . ولن يستطيع أحد أن يقول تضحية من من الهنود الذين قاموا بالحركة في جنوب افريقية ، كانت أكثر تقبلاً عند الله ، فحملت الثمرة الأخيرة . ولكننا نعلم علم اليقين أن تضحية « فلياما » قد آتت أكلها . وكذلك كانت التضحيات التي قدمها بقية الأخوات .

لقد ذهبت أرواح لاعداد لها في الماضي ، وتذهب الآن أرواح أخرى ، وستذهب غير هذه وتلك في المستقبل ، خدمة للوطن والانسانية ، ولكن طبيعة الأشياء لن تجعلنا نعرف أيها كانت نقية صافية . ولكن

(١) « سوداما » في الأساطير وهب السد « كريشنا » ثلاث حفنات من الأرز كانت كل ما يملك . ولكنه استعاضها أضعافاً .

ليطمئن الستياجراهيون . فلو أن نفساً واحدة من بين نفوسهم كانت صافية شفافة كالبلور ، لكفى ذلك لأن يوصلهم الى الغرض الأخير الذي رموا اليه . ان العالم انما يقوم على أساس « الساتيا » - Satya - أي الحق . أما « الأساتيا » - Asatya - ومعناها الباطل ، فإنها تؤدي أيضا معنى « العدم » . وكذلك تؤدي كلمة « ساتيا » معنى « ماهو كائن » . فاذا انتصر الباطل الذي هو « عدم » فترة ما ، فان انتصاره الموقوت ليس مما يعنيننا . أما الحق الذي يفيد « ما هو كائن » فانه لن يعدم ولن يزول . وفي هذا مجمل ما نعى بكلمة « ستياجراها » ، محدودة غير مفصلة .

لقد كان لسجن النساء فعل السحر في العمال الذين كانوا يعملون في المناجم بالقرب من « نيو كاسل » . فألقوا بمعاولهم وأدواتهم وأخذوا يفدون على المدينة زرافات متعاقبة . وعندما وصلتني هذه الأخبار غادرت مستعمرة العنقاء الى نيو كاسل .

لم يكن لهؤلاء العمال بيوت يملكونها . لأن أصحاب المناجم كانوا يهيئون لهم المساكن ويوزدونهم بالنور الذي ينير لهم الطرق والماء الذي يحتاجون اليه . فكانوا بهدافى حالة افتقار دائم لمن يعولونهم . ومن قبل قال « تولاسيداس » - Tulasidas - ان الشخص المفتقر الى غيره ، لن يرى السعادة حتى في الأحلام .

ولقد أبدى لي المعتصبون كثيراً من الشكاوى . فقال بعضهم ان

أصحاب المناجم قد حرموهم من النور والماء ، وذ كر آخرون ان أمتعتهم ألفت في عرض الطريق وأصبحوا بلا مأوى . وتقدم الى رجل من الباثين - pathian - يدعى «سيد ابراهيم» وكشف لي عن ظهره وقال لي « انظر كيف أوسعوني جلدأ . واني لم أترك العلوج يفلتون من يدي الا خضوعاً لأوامرك . فاني پائی . وأنت تعرف أن الباثين لم يتعودوا أن يضربوا ، بل تعودوا أن يكونوا البادئين » . فأجبتة

- « حسناً يا أخى . انى أعتبر مثل هذا السلوك منتهى الشجاعة . ولسوف تنتصر لو كثر بيننا أمثالك » .

بهذه الكلمات هنأته وشكرته . ولكن قام في روعى أن الاعتصاب لن يستمر إذا عومل كل المعتصبين كما عومل هذا الأخ . واذا تركنا مسألة الجلد جانباً ، فان الشكوى من قطع تيار الضوء والماء وغير ذلك من المميزات التي كان يزود بها المؤاجرون عما لهم ، لم يكن لها من موضع . ولكن سواء أ كان هنالك أى مبرر للشكوى أم لم يكن لدينا أى حق في أن نشكو ، فان المعتصبين لم يكن في وسعهم أن يثبتوا في موقفهم ، وأصبح من واجبي أن أفكر في مخرج ينقذنا من هذه الشدة ، والا فانه يصبح من الاوفق أن يعترف المعتصبون بأنهم هزموا ، فيرجعون الى العمل تواء ، من أن يرجعوا اليه بعد أن يظلوا زمناً ينفقونه في الترقب الممل والانتظار المضنى . غير أنى لم أكن قد وضعت في خطى تصميما يحملنى على الانهزام . ولهذا حدثت أن المخرج الوحيد انما يكون في

أن يترك المعتصبون محلات مؤاجريهم ويخلوها ، وأن يهيموا على وجوههم كما لو كانوا مهاجرين .

ولم يكن المعتصبون يعدون بالعثرات ، بل بالمئات . وربما زاد عددهم وتضاعف فصاروا آلافا . فكيف اذن أستطيع أن أهيب المأوى والمأكل لمثل هذا العدد العديد الذى أخذ يتزايد ويتضاعف ؟ ولم أكن على استعداد لأن أهيب بالهند لتمد إلى يد المساعدة المالية . فان سيل الذهب الذى تدفق من الوطن لم يكن قد بدأ ينساب بعد . والتجار الهنود كانوا فى رعب ووجل ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يساعدونى جهرة ، لما كان لهم من صلات مالية بأصحاب مناجم الفحم وغيرهم من الأوروبيين . وكانت عادتى أن أمر بهم كلما هبطت نيوكاسل . ولكنى فى هذه المرة أردت أن أوقفهم فى موقف حرج ، فنزلنا فى مكان آخر .

لم يكن عندى من المعدات ما يمكنى من أن آوى المعتصبين . فكانت السماء غطاءهم . ولكن ساعدنا حسن الحظ بأن كان الجو معتدلا ، ليس بالمطر ولا بالزمهرير . غير أنى مع هذا كنت مقتنعا بأن فئة التجار لن تحجم عن أن تزودنا بالميرة . وبالفعل أرسل الينا تجار نيوكاسل أوانى الطبخ وأكياس الأرز . وأرسل الينا كثير من الأرز « والداال » (١)

« Dal » من أماكن أخرى ، وأمطرنا بوابل من الخضر والتوابل

(١) الداال Dal بقل قريب الشبه بالعدس

وغيرها من الحاجيات . وفاقت المساعدات الحد الذي كنت أنتظره .  
ولم يكن جميع المعتصبيين على استعداد لأن يدخلوا السجن ، ولكنهم  
كانوا يشعرون شعوراً مشتركاً بالعطف على قضيتهم ، كما كانوا مجمعين على  
أن يقوم كل منهم بما يستطيع والى الحد الذى تنتهى عنده قدرته . أما  
الذين لم يكن فى قدرتهم أن يمدوا الحركة بأى شىء فانهم تطوعوا لأن  
يندسوا بين العمال بصفقتهم عمالاً ليكبر العدد ويتضخم . وكنت فى  
حاجة الى كثير من المتطوعين البارزين الأذكياء ليقوموا بمهنة ارشاد  
هؤلاء المترددين غير المثقفين ، فلم أنتظرهم طويلاً . وكانت نجدتهم فى  
مثل موقفى مما لا يقدر بأى ثمن ، أو يوزن بأى وزن . ولقد قبض على كثير  
منهم وزجوا فى السجن ، وعلى الجملة أقول بأن كلا منهم أدى واجبه  
كاملاً ، فهد ذلك سبيل الانتصار وعبد طريق الفوز .

وتدفق علينا سيل من الرجال فكنا نقبل باغتباط انضمامهم الى صفوفنا  
غير أن مهمتنا أصبحت شاقة ان لم تكن مستحيلة ، اذ رأينا أنه من المتعذر  
علينا أن نحلمهم فى مكان واحد ، وأن نعى بهم فى وقت بطالتهم . ومما  
زادنا رهبة ، أنهم جميعاً كانوا جاهلين بقواعد الصحة الأولية . وكان  
بعضهم من أضياف السجن حلوا بها للسرقة أو القتل أو الفسوق .  
ولا شك فى أنه من العبث أن يضع الانسان نفسه فى موضع الحكم  
الذى يقضى على المعتصبيين من حيث السلوك والأخلاق . وأمن من  
هذا فى العبث ، أن يحاول الانسان أن يفرق فى مثل هذه الحالة بين



الشيء والذئب، بل حصرت كل همى فى أن أقود الاعتصاب، وأوجهه إلى الناحية التى يرجى منها النفع . وهى مهمة بعيدة كل البعد عن أن تمتاز بمجهود توجه نحو الإصلاح . غير أنى على الرغم من هذا شعرت أنه من واجبى أن ألاحظ أن أصول الآداب لا بد من أن تظل مرعية فى المخيم ، من غير أن أنظر فى سوابق كل من المعتصبين .

وأخذت أفكر فى حل أنخلص به من هذه الورطة . فتبادر الى أن أقود هذا الجيش العرم الى الترنسفال وأسلم به فى أمان الى السجن كما فعلت من قبل بسكان مستعمرة العنقاء . وتقوم الترنسفال تبعد عن نيوكاسل ثلاثاً وستين ميلاً . والقريتان الواقعتان على تخوم ناتال والترنسفال هما شارلستون فى الأولى وفلكسرست - Volkstrust - فى الثانية . وفى النهاية صممنا على أن نسير على الأقدام . واستشرت العمال المعتصبين فى ذلك الأمر . وكان معهم زوجاتهم وأولادهم ، فتردد البعض فى قبول مقترحتى . ولكن لم يكن أمامى من سبيل إلا أن أقسو قليلاً ، فأعلن أن هؤلاء أحرار فى أن يعودوا الى العمل فى المناجم . فلم يشأ واحد منهم أن ينتهز هذه الفرصة . لهذا قررنا أن الذين هم مصابون بمرض فى أطرافهم يعوقهم عن متابعة السير مسافات طويلة ، يرسلون بالقطر الحديدية ، فى حين أن كل الأقوياء القادرين على السير على القدم، أعلنوا أنهم مستعدون للذهاب مشياً إلى شارلستون . وكانت المسافة تستغرق يومين سيراً معتدلاً . ولم نكد نصل الى نهاية السير

ونبلغ غرضنا ، حتى بدا الابتهاج على الجميع . أما الأوروبيون في نيو كاسل فقد توقعوا انتشار الطاعون ، وأخذهم الاشفاق والوجل ، فكانوا على استعداد لأن يتخذوا من الاجراءات كل ما من شأنه أن يحول دون وقوع مثل هذه الكارثة .

ولقد قابلت أصحاب المناجم في دوربان ورأيت أنهم متأثرون بعض الشيء من جراء الاعتصاب . ولكني لم أكن أنتظر أية نتيجة كبيرة من وراء الاجتماع بهم . غير أنه يجب أن نذكر أن المؤمن بمبدأ الستياجراها لا يجب أن يعرف للتجرد أو الاستسلام حداً . من واجبه أن لا يترك فرصة يمكن أن تنهز للتفاهم من غير أن يغتمها ، بدون أن يفكر في أن ينظر اليه أى انسان باعتباره جباناً أو أن الشجاعة تعوزه . فان الرجل المؤمن الحائر لتلك القوة الكبرى التي يبعثها الايمان ، لن يضيره من شيء أن ينظر اليه الغير نظرة امتهان . انه لا يقيم لشيء وزنا اللهم الا قوته الذاتية . لهذا يجب أن يكون محتشماً مع الجميع وبذلك يندر ذلك البذر الذي لن يكون له من جنى الا أن تتجه الفكرة الى قداسة قضيته . ولهذا تقبلت دعوة أصحاب المناجم بأحسن القبول ، فلما قابلتهم رأيت أن الجو مشبع بكثير من الحرارة والشهوة الجامحة التي تبعثها مثل هذه المواقف . فبدلاً من أن يسمعي مندوبهم فأشرح له الموقف ، أخذ يستجوبني . ولكني أجبته أجوبة تلائم مقتضى الحال :  
- « انه في مقدورك أن تنهى الاعتصاب » . فكان جوابي

— « اننا لسنا بموظفين » .

— « في استطاعتكم أن تعملوا كثيراً من العمل المنتج ، ولو انكم غير موظفين . وفي قدرتكم أن تقتحموا المعركة لصالح العمال . فاذا سألتكم الحكومة أن ترفع ضريبة ثلاثة الجنيهات ، فليست أظن انها ترفض الغاءها . كما ان في وسعكم أن تثيروا الرأي العام الأوروبي فيما يختص بمسألتكم . »

— « ولكن ما شأن ضريبة الثلاثة الجنيهات بالاعتصاب؟ فانه اذا كان للمعتصبين مايشكون منه تلقاء أصحاب المناجم ، فهذا من واجبيكم أن تعملوا على تسويته على وجه مقبول . وليست أجد من سلاح يمكن أن يلجأ اليه العمال سوى الاعتصاب . وضريبة الجنيهات الثلاثة لم تسن الا خدمة لأصحاب المناجم الذين يريدون أن يشتغل لهم العمال، ولكن لا كعمال أحرار، بل كعبيد . فاذا أضرب العمال ليتوصلوا الى الغاء هذه الضريبة ، فليست أرى في هذا العمل مايمكن أن يعتبر تحدياً أو ظلاماً لأصحاب المناجم »

ولا أذكر بقية المناقشة الآن . ولكنني فهمت أن أصحاب المناجم قد فهموا جيداً ضعف موقفهم ، فأخذوا يفاوضون الحكومة . ولقد رأيت خلال سياحتي الى دوربان والعودة منها أن الاعتصاب وما وسم به من مظاهر السلام والمسالمة كان له أكبر الأثر في مراقبي سكة الحديد وغيره . وسافرت في الدرجة الثالثة كما هي عادتي ، فقدم الى المراقب

وغيره من الموظفين وألقوا على كثيراً من الأسئلة المتعلقة بالاعتصاب وتمنوا إلى النجاح . ولقد أبدى هؤلاء الموظفون عجبهم واعجابهم من أن مثل هؤلاء الفقراء الجهلاء غير المثقفين، قد احتملوا مثل هذه الشدائد في سبيل أن ينجحوا ويفوزوا بغرضهم . ولاشك في أن الحزم والشجاعة صفتان لا بد من أن تتركا أثرهما الثابت حتى في الأعداء والمنافسين

وعدت إلى نيوكاسل . وكان العمال لا يزالون يفدون زرافات من كل مكان . وما ونيت في أن أشرح كل الموقف لجيش العمال المعتصبين ، قائلاً في النهاية إنهم ما يزالون أحراراً في أن يعودوا إلى العمل إذا أرادوا . وابنت لهم عن التهديدات التي كان يهددهم بها أصحاب المناجم ، وصورت لهم المآزق التي قد يضطرون إلى اجتيازها في المستقبل ، وأظهرت لهم مصاعب السجن وويلاته . ومع كل هذا فإنهم لم ينكصوا على أعقابهم ، بل أجابوني بغير ما خوف أو وجل بأني لن أشغل نفسي بهم لأنهم اعتادوا الشدائد ومرنوا على الويلات .

لم يبق إذ ذاك لدينا من شيء إلا أن نبدأ الزحف . وأعطينا للعمال الإشارة بأنهم سوف يبدأون السير في الصباح الباكر من اليوم القادم ( ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣ ) وقرأنا عليهم التعليمات التي يجب أن تراعى لدى السير . وليس من الهينات أن ننظم جمعاً مكوناً من خمسة آلاف أو ستة آلاف رجل . ولم يكن في استطاعتنا أن أزودهم بأكثر من رطل ونصف من الخبز وأوقية من السكر لكل جندي خلال المسير ،

وإذا سهل على أن احصل على شيء آخر من التجار الهنود في الطريق، فاني لأبخل به عليهم . ولكن اذا لم يتيسر ذلك فعليهم أن يرضوا بما قسم لهم . ولقد كانت تجاربي في حرب البوير وثورة الزولو أكبر عون لي على معالجة الحالة . فأمرت بأن لا يحمل أحد من «الغزاة» من الملابس أكثر مما هو ضروري ، وأن لا يمس أحد أمتعة غيره خلال الطريق . كما نهيت عليهم أن يهتموا بصبر واناة ما يمكن أن يوجهه اليهم الاوروبيون من الالهانات أو السباب، وأن يعيشوا في سلام حتى ولو ضربوا أو جلدوا . فاذا أريد القبض عليهم فليسلموا أنفسهم بغير مقاومة، ولقد أمنت لهم كل هذه التعليلات بجلاء ، ثم أعلنت عليهم أسماء الذين يخلقونني في قيادتهم اذا قبض عليّ . ولا شك في أنهم فهموا ماقلت فهماً جيداً ، فوصلنا شارلستون بسلام . وهناك أمدنا التجار بكثير من المعونة . ففصحوا لنا بيوتهم لنشغلها ، وسمحوا لنا أن نظهي الطعام في صحن الجامع . وكانت الميرة لا بد من أن تنتهي بانتهاء المسير الى حيث قصدنا ، وكنا في حاجة الى أوان للطبخ ، فلم يتوان التجار في أن يمدونا بها . وكان معنا مخزون كبير من الأرز وغيره من الحاجيات التي سارع التجار بامدادنا بها .

كانت شارلستون في ذلك الوقت عبارة عن قرية صغيرة لا يزيد تعدادها على ألف نسمة . فلم نسمح لغير النساء والأطفال أن يحتلوا المنازل . ولذا خيم الباقون في العراء . ولقد تمر بي كثير من الذكريات السعيدة



وقليل من الذكريات المؤلمة ، وقعت حوادثها خلال اقامتنا بقريّة شارلستون . أما الذكريات السعيدة فتتعلق بمصلحة الصحة والموظف المنوط به أمر الصحة في ذلك المركز وكان يدعى دكتور « برسكو » Dr. Briscoe فانه على الرغم من أنه أخذته الحيرة من تضاعف عدد السكان فجأة تضاعفاً مزعجاً ، سارع الى ملاقاتي ، وبدلاً من أن يتخذ أى اجراء عاجل ، اقترح على بعض المقترحات وعرض على المساعدة . ولا شك في أن الأوروبيين ذوى عناية بنظافة الماء والطرق والاحتفاظ بالأدوات الصحية في أحسن حال من الأناقة . على الضد منا، فاننا قلما نعى بهذا الأمر . لهذا رجاني مستر « برسكو » أن أمنع القاء المياه القدرة في الطرقات وان احول بين رجالنا وبين تقدير المكان الذي يحتلونه أو القاء الكناسة والفضلات حيثما اتفق . وكان من الصعب على ان أحمل الهنود على مراعاة هذه الأوامر وتنفيذها ، ولكن المهاجرين والزملاء الذين رافقوني لدى بدء الاعتصاب هونوا على كثيراً من هذه المصاعب ولقد بان لي في كثير من المواقف أن العمل يسهل وينتج أحسن النتائج، اذا انصرف الخادم الى الخدمة بجد وكد من غير أن يحاول أن يملئ ارادته على الذين يخدمون معه . فاذا أقدم على العمل بنفسه ، فلا بد من أن يتبعه الباقون . فلم تخطيء تجربتي لدى التطبيق في هذه الفرصة . فاني وزملائي لم نتأخر هنيهة على الاكباب عن الكنس ونقل الكناسة والفضلات وما يشابه ذلك من الأعمال . فكانت النتيجة ان اشترك الكل

في العمل بحماسة وحرارة . وكان « كلنباخ » قد سبقنا الى شارلستون ،  
وكذلك مس « شلسن » التي لن أستطيع ان أوفي صفاتها في الاكباب على  
العمل والدقة والأمانة حقها من الوصف والمدح . ومن الهنود المعروفين  
الذين عملوا بكل حماسة وأمدونا بكل ما يمكن من المساعدات، المرحومان  
مستر « نايدو » والبرت كرسنوفر .

كما فكرت فيما أبدى الرجال من الصبر والاحتمال في هذه المشقة،  
تملكني شعور عميق بقدرته الله الشاملة . وكنت بين الطهارة رئيساً عليهم .  
وقد يحدث ان يضاف على بقل « الدال » كثير من الماء، كما يحدث ان لا يتم  
نضجه في الطهي . وكثير ما كان الارز والخضروات تقدم غير مطبوخة  
طبخاً كافياً . ولم أر في أطراف الكرة الأرضية التي زرتها لقيت من  
الناس يستسيخ ازدراد مثل هذا الطعام بمثل ما شاهدت لدى المعتصين  
من شهية . فقد رأيت في سجون جنوب افريقية انه كثيرا ما يفقد  
الذين نسهم بأنهم متعلمون صبرهم، اذا قدم اليهم طعام أقل من اللازم،  
أو طعام سيء الطهي أو تأخر تقديمه اليهم .

كان من بين الأخوات اخت من دوربان تدعى « باي فاطمة محتب »  
لم تستطع ان تتحمل معاشره اخواتها التاميليات عند ما سجن في  
نيوكاسل . ولهذا ذهبت الى فولكسرست ليقبض عليها وتسجن بها مع  
أمها « حنيفة باي » وابنها الذي لم يكن يتجاوز السابعة من عمره .  
وقبض على الأم والبنت ولكن الحكومة لم تشأ ان تقبض على الابن .

ودعيت « فاطمة باي » لتؤخذ بصحتها في المكان المعين لذلك ، ولكنها رفضت أن تخضع لمثل هذه الأهانة فحكم عليها وعلى أمها بالسجن ثلاثة أشهر .

وكان اعتصاب العمال في ذلك الوقت قد بلغ أشده . وكان الرجال والنساء حينذاك آخذين في الزحف بين مقر المناجم وبين شارلستون . وكان من بينهم امرأتان ومعها أولادهما فمات أحدهم من التعرض للطقس ، وسقط واحد غيره من بين ذراعي أمه عند ما كانت تجتاز مجرى نهر ومات غريقاً . ولكن الأمينين الباسلتيين رفضتا ان تنكصا ، وتابعتا المسير . بل لقد قالت احدهما « ليس لنا ان نحزن على الموتى الذين لن يعودوا الينا مهما حزنا . ان الواجب يدعونا إلى العمل من أجل الاحياء » . ولقد وقعت بين الفقراء والمعوزين على أمثال هذه الصور النادرة من الشجاعة الهادئة والايان الثابت والنظر الشامل لحقائق الحياة .

ولقد قام الرجال والنساء في مركزهم الدقيق بقرية شارلسون بما يفرضه عليهم الواجب وروح التضحية . فان الذي حملنا على أن نهبط هذا المكان مهاجرين لم تكن روحاً سامية . هذا على الرغم من أننا كنا في سلام روحي نشعر به من أعماق نفوسنا . ولقد علقنا اعلانات كبيرة في كثير من الأماكن كتبنا عليها « لا سلام هنا » . ولكن لا شك

أنه في مثل هذا الجو يمكن لمثل « ميراباي »<sup>(١)</sup> - Mirabai - أن تأخذ كأس السم إلى فمها وتجرب ما فيه فرحة راضية ، وأن يذهب سقراط هادئاً إلى أحضان الموت في سجنه السحيق المنفرد ، ويوجه إلى أصدقائه والينا في شخصهم ذلك اللوم المقنع الذي ضمنه مذهب ان الذي ينشد السلام يجب أن يبحث عنه في نواحي نفسه . وبمثل هذا السلام الذي نما في نفوس الستياجرايين عاشوا في مخيمهم غير آبهين بما سوف يأتي به الغد .

وكتبت إلى الحكومة أنبئها بأنه ليس من غرضنا أن ندخل الترنسفال بقصد الإقامة ، بل ندخلها احتجاجاً على أن ينقض الوزير عهده ، وتظاهراً صارخاً على يأسنا من أن نسترد احترامنا الذي فقدناه . ولا شك في أن الحكومة كانت توفر علينا كثيراً من المتاعب إذا هي تفضلت وقبضت علينا حيث كنا ، أي في شارلستون . ولم تكن حركتنا بالسر الذي لا يباح به . بل كنا نأنف من أن يدخل أحدنا أرض الترنسفال تسلاً وفي خفية . ولكننا لم يكن في وسعنا أن نحتمل مسؤولية ما يأتي أي شخص من عمل قد يروقه ، لأنه كان علينا أن ننظم آلافاً من الناس الذين لا نعرفهم شخصياً ، ولم يكن في وسعنا أن نفرض عليهم من شيء اللهم إلا الدعوة للمحبة والصفاء . ولقد أكدت للحكومة في النهاية

١ ميراباي ملكة وقديسة لها أغنية دينية يحبها أهل الهند .

أنها اذا ألغت ضريبة الجنيهات الثلاثة ينتهى الاعتصاب ويعود العمال  
ذوو العقود الى العمل ، لأننا سوف لا ندعوهم الى الجلاذ فى سبيل  
التغلب على بقية الأشياء التى نرفع أصواتنا بالشكوى منها .

كان موقفنا حينذاك غير مفهوم جيداً ، ولم نكن نعرف متى تقدم  
الحكومة على القبض علينا . وكان علينا أن لا نتنظر فى مثل هذه الأزمة  
الشديدة جواباً من الحكومة الا بعد مضي بضعة أيام . لهذا صممنا  
على أن تغادر شارلستون وندخل الترنسفال توأ ، اذا لم تقبض الحكومة  
علينا . فاذا لم يلق القبض علينا خلال الطريق ، بقى علينا أن نمضى فى  
المسير فنقطع فى اليوم أربعة وعشرين ميلاً ونستمر على ذلك ثمانية أيام  
لنصل الى مزرعة تولستوى وأن نظل هنالك حتى تنتهى المعركة ، وفى  
خلال الاقامة بالمزرعة يعمل العمال فى فلحها ليقوموا بأودهم ، وكان مستر  
كلنباخ قد أكمل كل المعدات الضرورية . وكانت الفكرة أن نشيد  
أكواخاً من الطين يصنعها المهاجرون بأنفسهم . وكانت الصعوبة  
الوحيدة التى تعترض هذا العمل ، ان فضل الأمطار كان قد أظلمنا إبانة ، ومن  
الضرورى أن يكون لكل انسان ملجأً يحمى به اتقاء الأمطار .  
ولكن مستر كلنباخ كان يتوقع فى شجاعة ، أنه سوف يحل هذا المشكل  
بصورة من الصور .

وفولكبرست قرية قدر شارلستون مرتين . وأيدى صاحب مخبز  
أوروبى بها رغبته فى أن يتعاقد معنا على أن يزودنا بما يلزمنا من الخبز ،



ولم ينتهز صاحب الخبز هذه الفرصة ليأخذ منا ثمناً للخبز أعلا من الثمن السائد في السوق ، كما أنه أخذ يصنع الخبز من أجود صنف من الدقيق . وكان الخباز يرسل الخبز في الوقت المناسب بطريق سكة الحديد فأخذ عمالها وكلهم من الأوروبيين يقومون بواجبهم نحونا، فكانت الارساليات تصلنا كاملة، وعنوا كل عناية بنقلها وخصوصاً ببعض التسهيلات . فقد كانوا يعرفون أن قلوبنا لا تنطوي على عداة أو ضغينة ، وأنه ليس من قصدنا أن نلحق ضرراً بمخلوق ، وأن غايتنا هي الوصول الى حقوقنا من طريق ما نعاني من آلام وما نحتمل من مشقات . ولذا كان الجو الذي أحاطنا نقياً خالصاً من الشوائب، واستمر نقياً طوال أيام جهادنا . وما السبب في هذا الا أن الحب الكامن في النفس الانسانية قد نشط وأخذ يظهر أثره . فكان الكل يشعر بأنهم اخوان مهما اختلفت النحل بين نصارى ويهود وهندوكيين ومسلمين أو غير ذلك .

ولما خيم الظلام سكنت الأصوات واستقرت الأرواح ، وكنت على وشك أن آوى الى مضجعي عندما سمعت جلبة . ورأيت أوروبياً يتقدم نحونا وفي يده مصباح . ففهمت معنى ذلك ، ولكن لم يكن عندي من النهام ما أوصى به قبل القبض على .

« لدى أمر بالقبض عليك . أريد أن ألقى عليك القبض » .

فأجبت الضابط:

= ٢٦١ =

- « الى أين سوف تذهب بي . »

- « الى أقرب محطة لسكة الحديد الآن ، ثم الى فولكسرست  
عند ما يصل أول قطار مسافر اليها . »

- « سأذهب معك من غير أن أخبر أي انسان ، ولكن على أن  
أترك بعض التعليقات مع أحد الزملاء . »



## الفصل السادس عشر

### السجن والانتصار

أيقظت مستر « نايدو » الذي كان نائماً بالقرب مني ، وأخبرته بخبر القبض على ورجوته أن لا يذيع الأمر بين المهاجرين قبل أن يتنفس الصبح . وان عليهم عندما يبين النهار أن يتحركوا للمسير ، على أن يبدأوا به قبل بزوغ الشمس . وعندما يحين وقت الاستراحة ليتناولوا وجبتهم ، له أن يذيع بينهم خبر القبض على . وأبحت له فوق ذلك أن يلقي بهذا الخبر لأي انسان يسأله عنى ، فيما لو قبض على المهاجرين ، والا فالواجب عليهم أن يتابعوا السير طبقاً للبرنامج الموضوع . ولم يداخل نايدو أى شك أو خوف على الاطلاق . فأملت عليه تعليماتى بما يتبعه فيما لو قبض عليه هو أيضاً . وكان مستر كلنباخ فى فولكسرست فى ذلك الحين . ورافقت ضابط البوليس وسافرنا الى فولكسرست . غير ان النائب العمومى أبى أن يستمر القبض على اذ لم تكن قد وصلته الأسباب التى يبنى عليها أمر القبض ، وعلى هذا أجل النظر فى أمرى وأطلق سراحى بعد وضع كفالة قدرها خمسين جنياً . وكان مستر كلنباخ قد أعد مركبة لى وسافر معى فى الحال لنعود الى مشاركة المهاجرين

في زحفهم . وأراد مراسل جريدة « ترنسفال ليدر » أن يرافقنا . فأخذناه معنا في العربة ، فنشر في ذلك الحين وصفاً دقيقاً للجمالة ووصف سياحتنا ومقابلتنا مع المهاجرين الذين تلقوني بمظاهر الحماسة وأبدوا أشد الفرح بعودتي . واستمر زحفنا . ولكن لم يرق للحكومة أن تتركني حراً . ولذا صدرت الأوامر بإعادة القبض على ، وقبض على فعلاً في ستندرتون في الثامن من الشهر . ولقد زودنا بتجار ستندرتون بيضعة علب من مربى المشمش ، فاجتاج توزيعها على المهاجرين وقتاً أزيد مما يحتاج توزيع بقية المأكولات

ولقد سألت المهاجرين أن يتابعوا السير ، ثم فارقتهم صحبة الحاكم الذي ألقى على القبض بنفسه . وبمجرد أن وصلت قاعة الجلسة في المحكمة وجدت أن بعض زملائي كان قد قبض عليهم . وجدت منهم خمسة هم : نايدو ، وبيهاريلال مهاراج ، وراماين سنها ، وراجونا راسو ، ورحيم خان . ولم ترغب الحكومة في أن يؤدي قبضها الى سجننا معاً ، كما إنهما لم ترد أن يحمل الزملاء رسالاتي عندما يطلق سراحهم الى الخارج . ولهذا صممت السلطات على أن تفصل بين ثلاثنا ، أنا وكنباخ وبولاك ، فرحلتنا من فولكسرسست ، وأرسلت بي إلى مكان لا يمكن أن ألتقي فيه بأحد من بني جلدتي .

لهذا أرسلت الى سجن « بلونفونتين » . ولم يكن بهذه البلدة أكثر من خمسين هندياً يشتغلون جميعاً خديماً في الفنادق : وكنت السجنين

الهندي الوحيد ، في حين كان باقي ضيوف السجن من الاوروبيين والعبيد . ولم تأخذني هزة من جراء هذه العزلة ، بل تقبلتها كنعمة أنعمت علي الحكومة بها ، فقد وفرت علي أن اوقظ سمعي ونظري لازاقت تصرفات بقية السجناء ، وفرحت لان سنحت لي فرصة التزود بتجاريب جديدة ، وفضلا عن هذا فانه لم تمر بي اوقات أستطيع أن أتفرغ فيها للدرس ، وعلى الأخص منذ سنة ١٨٩٣ ، فكانت هذه الفرصة أحسن الفرص التي أنفقها في الدرس والا كباب عليه سنة كاملة . وقد تمتع في سجن بلونفوتين بأ كبر قسط من الانفراد كنت أتوق اليه . ولا شك في أنه كان حولي كثير مما يقلقني ويمضني ، ولكنه كان مما يمكن احتماله . ونشأت بيني وبين طبيب السجن صداقة . وكان السجن لا يستطيع أن يفكر الا في أن يظهر سلطانه وجبروته ، في حين كان الطبيب تواقاً لأن يتمتع المسجونون بحقوقهم التي ينحولهم إياها قانون السجن . وكنت من ذلك الوقت أعتدي على الفواكه صرفاً ، فلا أتناول الا الموز والطماطم والجذور الخضراء وزيت الزيتون . ولم يكن لي مفر من الموت جوعاً . اذا قدم الى شيء من هذه الأشياء في حالة فساد أو كان منه صنف غير جيد . لهذا عني الطبيب كل عناية بانتقائها ، وأضاف اليها اللوز والجوز العادي والجوز البرازيلي لتكون من ضمن الأصناف التي تقدم الي . ولم يكن في حجرة السجن التي خصصت لي طريق كاف للتهوية . فعمل الطبيب أقصى جهده في أن تظل الحجرة



مفتوحة الباب ، ولكن لم يفز من ذلك بطائل ، وهدده السجن بالاستقالة اذا هو حمل على أن يترك باب الحجره غير موصل . على انه لم يكن رجلا شريراً ، ولكنه كان يريد أن يتبع نظاماً واحداً لا يخالفه ولا يشذ عنه في حالة من الحالات ومهما كانت الظروف

وكان مستر كلنباخ قد حمل الى سجن بريتوريا ، وبولاك إلى سجن جرمستون . ولكن الحكومة كانت تستطيع أن تتق كل هذه المتاعب . لأن مثل رحالها في هذه الحال كان كمثل مسز بارتنجتون في الأقصوة ، عند ما أرادت أن توقف مد المحيط الخضم بالكنسة التي كانت تحملها . ذلك لأن العمال في ناتال كانوا قد استيقظوا من غفوتهم ، وأصبح من المتعذر على اية قوة في الأرض أن تثنيهم عن عزمهم .

ان الصائغ يمتحن ذهبه على المحك ، فان لم يستبن مقدار مافيه من النقاء أحماه ودقه بالطرقة ، حتى اذا كان فيه شيء من المعادن الاخرى أو الأوساخ انفصل عنه وبقى الذهب الخالص . ولا شك عندي في أن الهنود مروا في جنوب افريقية بمثل هذه التجربة . فانهم صهروا ودقوا بالمطارق الثقيلة ، ثم دمغوا بطابع الذهب الصافي ، بعد أن مروا بهذه التجاريب القاسية صابرين مصابرين . فقد شحن المهاجرون في قطر سكة الحديد لا ليتزهوا ، بل ليتطهروا بالنار ، ويتعمدوا بها . فان الحكومة لم تمن خلال تسفيرهم مشحونين شحن البضائع والسلع حتى بأمر طعامهم ، وبمجرد ان وصلوا ناتال وجهت اليهم التهمة وحكم عليهم وسجنوا . على

اننا كنا ننتظر هذا العمل ونرغب فيه . غير ان الحكومة كان عليها ان تتحمل نفقات كبيرة فتظهر في الوقت ذاته كأنها لعبة في يد الهنود اذا هي استمرت تعنى في سجونها بمثل هذا العدد الهائل من العمال . ناهيك بأن أصحاب المناجم كان عليهم ان يعطوا العمل في مناجمهم خلال المدة التي يقضيها العمال في السجن . ولا شك في ان الحال اذا ظل سائر اعلى هذا المنوال فترة ما من الزمن ، فان الحكومة تكون مضطرة الى الغاء ضريبة ثلاثة الجنيهات . لهذا فكرت الحكومة في طريقة مبتكرة . فحوت منطقة المناجم بالاسلاك الشائكة وأعلنت ان هذه المنطقة أصبحت من ملحقات سجن دندى ونيوكاسل ، وعينت المستخدمين الأوربيين لدى أصحاب المناجم مراقبين عليهم . وبهذه الوسيلة استطاعوا أن يضعوا انوف العمال في الرغام على الضد من ارادتهم ، وبدأت المناجم تزدحم بالعمال في الحال . على أن هنالك فرقا بين خادم وعبد . فان الأول اذا ترك عمله لم يكن في استطاعتك ان ترغمه على شيء الا من طريق التحاكم واستصدار حكم عليه . ولكن الثاني يمكن أن تعيده الى العمل بالقوة . وبهذا اعيد العمال الى العمل ولكن بصفتهم عبيداً من غير قيد ولا شرط .

وكان هذا العمل في جانب الحكومة أكثر مما ننتظر منه . ولكن العمال كانوا بسلاء فأبوا أن يعملوا في المناجم . وانتهى الأمر الى أن يجلدوا بقسوة ووحشية . وكان رقباؤهم الوحشيو الطباع قد استعانوا بالسلطة التي خولتهم الحكومة فأخذوا يسيطرونها على العمال ويؤدونها اليهم ركلا

بالأرجل وصفعاً بالأكف وسبياً بالألسنة ، الى غير ذلك من ضروب  
القسوة والاهانة التي لم تسجل عليهم . ولكن على الرغم من هذا كله  
ظل العمال المساكين مستمسكين بموقفهم ، غير آبهين بما يقع عليهم من  
صنوف العذاب .

وأرسلنا الى الهند اشارات برقية ضمناها خبر هذه الاعتداءات  
وخصصنا بها الزعيم «جوكهال» الذي اهتم بالأمر واتصل بنا ، حتى أنه  
كان يستعلم عن الأخبار اذا أخرجناها عنه يوماً واحداً . وأخذ «جوكهال»  
ينشر الأخبار رغم أنه كان ملازماً فراشه لمرض شديد ألم به . ولكنه  
على الرغم من مرضه أصر على أن يلحظ بنفسه أحوال الهند في جنوبي  
افريقية ويعنى بها حتى لقد شغل بها ليل نهار . ولقد اهتزت جميع أنحاء  
الهند في تلك الآونة واستيقظت فأصبحت مسائل جنوبي افريقية  
حديث المجالس وشغل الساعة .

في ذلك الحين ألقى اللورد هاردنج خطابه المشهور في مدراس ،  
ذلك الخطاب الذي أزعج الأوروبيين في جنوبي افريقية وفي انجلترا على  
السواء . ولم يكن من عادة حكام الهند أن يوجهوا انتقاداتهم الى  
التصرفات التي تأتيها الحكومات الأخرى في أنحاء الامبراطورية ،  
ولكن اللورد هاردنج لم يكتف بأن يوجه نقداً مقنعاً لحكومة الاتحاد  
الافريقي فقط ، بل دافع دفاعاً مجيداً عن تصرفات الستياجراهيين  
وخطتهم السلمية ، وأيد عصيانهم المدني لقانون وحشى جاثر . وعلى

الرغم من أن خطاب اللورد هاردنج قد لاقى كثيراً من التعليقات العادية في إنجلترا ، فإنه لم يحاول أن يعتذر أو يعدل موقفه ، بل على الضد من ذلك صرح للكثيرين بأنه مقتنع بصحة الموقف الذي اضطر أن يقفه . ولا شك في أن حزم اللورد هاردنج في خطته هذه قد أحدث أثراً ظهرت نتائجه في كل مكان .

ولتترك الآن أولئك العمال البواسل التعماء مأسورين داخل حدود منطقة المناجم هنية ، لتتكم قليلاً عن حقيقة الموقف في أطراف أخرى من بلاد ناتال . فان منطقة المناجم تقع في الشمال الغربي من تلك البلاد ، ولكن الهنود كانوا يعملون في البقاع المجاورة للشواطئ في الشمال والغرب . وكنت متصلاً قبل حدوث الاعتصاب بالهنود الذين يعملون على الشاطئ الشمالي ، لأن كثيراً منهم اشترك معي في حرب البوير . ولكني لم أكن قد اتصلت بالعمال الذين يعملون في منطقة الشاطئ الجنوبي اتصالي بالأولين ، ولم يكن لي هناك من الزملاء الا العدد اليسير ، ولقد باع كثير منهم أثاث منزله مقدراً أن المعركة سوف يطول أمدها وانه سوف يحتاج للزاد الذي ربما يضمن به عليه أهل جلدته من الأغنياء . ولما ذهبت الى السجن حذرت زملائي في العمل من أن ينصحوا لغير المعتصبين من العمال أن يعانون اضرابهم عن العمل ، لأنني قدرت أننا نستطيع أن نتصر حتى لو اقتصر الاعتصاب على عمال المناجم ، ولأن عمال الهنود لو أضرَبوا جميعاً - وعددهم لا يقل عن ستين ألف نسمة -

لأصبح من المستحيل تدبير أمورهم من كل الوجوه . ناهيك بأنه لم يكن لدينا من الوسائل ما يمكننا من أن نصحب عدداً كبيراً كهذا خلال الهجرة . لم يكن لدينا الرجال الذين يرشدونهم ، ولا المال الذي نطعمهم به . وفضلاً عن هذا فإن عدداً كبيراً كهذا لا يمكن أن نضمن معه الاحتفاظ بالنهج السلمى الذى كنا ننشده . ولكن اذا فتحت الهواويس التى تحبس الماء ، فلا مناص اذن من حدوث الطوفان المجتاح . فأضرب العمال فى جميع الأنحاء من تلقاء أنفسهم وتطوع كثيرون لينظروا فى أمورهم ويدبروا موقفهم

وهنا بدأت الحكومة تنفذ سياسة الدم والنار . فأخذت تمنع العمال عن الاعتصاب بمحض القوة . فتصدى البوليس الحربى الراكب للعمال ليحملهم على الرجوع الى العمل . وكان أقل اضطراب بين العمال كاف لأن يجاب عليه برصاص البنادق . وحدث أن قاومت فئة من العمال القوة التى أرادت أن تحملهم على الرجوع الى العمل ، وقذف بعضهم الحجارة على رجال البوليس ، فأطلقت عليهم نيران البنادق فقتل منهم البعض ، وجرح كثيرون . ولكن العمال مع هذا رفضوا أن يخضعوا . وكذلك لم يتمكن المتطوعون من أن يمنعوا اعتصاباً كبيراً بالقرب من « فريولام » الا بعد جهد جهيد . ومع هذا أبى كل المعتصبين أن يعودوا الى العمل . حتى بلغ بعضهم الأمر أن يختفوا عن الأعين رهبة ، وفضلوا أن يبقوا مختفين على أن يعودوا الى العمل .



ولا بد لي من أروى وقائع حادثة لا أجد دون ذكرها مندوحة .  
فقد ترك كثير من العمال أعمالهم بالقرب من «فريولام» وأبوا أن يعودوا  
إليها رغم الجهد الذي بذله رجال السلطة معهم . وكان الجنرال «لوكن»  
Lukin في ميدان الاعتصاب ومعه جنوده ، وكان على وشك أن يأمر  
رجاله بإطلاق النار ، عندما تقدم إليه هندي باسل هبط تلك المدينة من  
دوربان هو سواريجي ابن «بارسي رستوجي» ، ولم يكن يتجاوز الثامنة  
عشرة من عمره وأمسك بأعنة الجواد الذي كان يمتطيه الجنرال وقال له .  
« لا يجب عليك أن تأمر بإطلاق النار . وعلى أن اقنع أبناء وطني بأن  
يعودوا الى العمل » فأكبر الجنرال شجاعة هذا الشاب ، وسمح له أن  
يجرب طريقة التفاهم الحي في فترة حدها له . ففاوض سواريجي  
العمال وأقنعهم فعادوا الى العمل . ولقد حال هذا الشاب بعمله هذا دون  
قتل الكثيرين بحضور ذهنه وبيسالته وشفقته

وأصبحت الحياة في مزرعة المنقاء حرجة شديدة . ورغم ذلك قام  
كل بواجبه ، حتى ان الأولاد عهد اليهم بمهمات خطيرة فأدوها بشجاعة  
وقبض في ذلك الحين على مستر «وست» على الرغم من أنه لم يكن هنالك  
أي سبب يبرر القبض عليه . وكانت خطتنا التي رسمناها أن يعمل مستر  
وست وماجنلال غاندي جهدهما أن يتفاديا القبض عليهما . وعلى هذا  
عمل وست على أن لا يعطى الحكومة أية فرصة تبرر بها القبض عليه .  
ولكن الحكومة كانت بعيدة عن أن تنظر في الأسباب التي ترك

للقائمين بحركة الستياجراها بعض الرضى عن حالتهم ، ولم تدرىث في القبض على أى شخص يمكن أن يكون في تركه حراً تأثير على أعصاب رجالها ، غير منتظرة قيام الأسباب التي تجعل القبض على ذلك الشخص مبرراً بوجه من الوجوه . وأصبحت شهوة أصحاب السلطة في القبض على الأشخاص كافية لأن تلقى بمن شاءت في غيابات السجون بسبب .  
وبغير سبب .

ولما أن أبرقنا الى « جوكهال » ننبئه بخبر القبض على مستر وست ، فكر في أن يرسل الى جنوبي افريقية بضعة من أقدر رجال الهند ليعالجوا الحالة . وفي اجتماع عقد في « لاهور » لتأييد الستياجرايين في جنوبي افريقية ، أعلن مستر « أندروز » أنه يتنازل عن كل ما يملك من النقود تأييداً لحركتهم ومساعدتهم . ومنذ ذلك الحين رمقه « جوكهال » بعين الاجلال والاكبار . فلما وصله خبر القبض على « وست » أبرق الى « أندروز » يسأله ان كان على استعداد لأن يذهب الى جنوبي افريقية ، فلم يتردد أندروز لحظة في قبول مقترحه . وأبدى صديق جيم من أصدقائه يدعى مستر « بيرسون » رغبته في أن يصاحبه ، وترك الصديقان الهند الى جنوبي افريقية على ظهر أول بانخرة قصدت بلاد حكومة الاتحاد .

ولكن المعركة كانت اذ ذاك في أواخر أدوارها ، فان حكومة الاتحاد اعجزت عن أن تحتفظ بالآلاف من الرجال والنساء في سجونها . وأصبح

الحاكم العام في حالة نفسية لا تحمل ذلك الحدث العظيم، وأخذت أنظار العالم تتجه نحو الجنرال « سمطس » ترى كيف يتصرف في الأمر . ولقد عملت حكومة الاتحاد نفس ما عمله أية حكومة أخرى تقف في مثل موقفها . ولم تكن هنالك من حاجة للقيام بعمل تحقيق ، فان الخطأ الذي أدى الى هذه الحالة كان معروفاً ظاهراً ، واتفقت كل الآراء على أن الواجب يدعو الى اصلاح هذا الخطأ . وكذلك رأى الجنرال « سمطس » أن هنالك ظلماً يجب أن يرفع . ولكنه كان في موقف أشبه بموقف ثعبان ازدرد فأراً، فلا هو يستطيع أن يبتلعه، ولا هو يستطيع أن يلفظه . فانه كان قد قطع للأوروبيين في جنوبي افريقية عهداً بأن لا يلغى ضريبة الثلاثة الجنيهات ولا أن يقوم بعمل أى اصلاح ينتفع به الهنود . ولكنه بدأ يشعر بضرورة الغاء هذه الضريبة ، وأن يلجأ الى تشريع يعالج الحالة ببعض الاصلاحات . ونحن نرى دائماً أن الحكومات اذا أخرج مركزها وتقصبت حجتها أمام الرأي العام، تلجأ دائماً الى تعيين لجان تقوم بتحقيق شكلي ، لأن كل ماسوف توصي به من الاصلاحات يكون مقررراً بالفعل في الأذهان قبل أن تعرضه على الحكومة وعلى الناس . والسائد في مثل هذه الأحوال أن الحكومة تقبل دائماً ما توصي به مثل هذه اللجان ، وبهذه الوسيلة تقتنع الحكومات ، فتقبل التوصيات التي تقرها لجان التحقيق ، فتقر بذلك العدل الذي كانت ترفض من قبل الا أن يستقوى عليه الظلم والجبروت . ولذا عين جنرال

« سمطس » لجنة من ثلاثة ، أعلن الهنود بأنهم لن يشقوا بها مادام أن الحكومة امتنعت عن تلبية بعض طلبات كانوا قد تقدموا بها للحكومة كأساس للتفاهم . ومنها أن المسجونين من الستياجراهيين يجب أن ينحلي سبيلهم في الحال ، وأن يمثل الهنود في اللجنة عضو على الأقل . ولقد قبلت اللجنة الى حد ما قبول طرف من الطلب الأول ، فأوصت الحكومة أن تخلي سبيل كلنباخ وبولاك وأنا ، بحجة « أن بذلك يمكن أن يسهل طريق التحقيق في مطالب الهنود بقدر المستطاع » . وأن يكون اطلاق سراحنا بغير قيد ولا شرط . وقبلت الحكومة هذا المقترح وأخلت سبيلنا بعد سجن دام ستة أسابيع . ولذلك أفرج عن مستر وست وكان قد قبض عليه من قبل ، لأن الحكومة لم تكن لديها من تهمة توجهها اليه .

ولقد وقع هذا كله قبل أن يصل مستر اندروز ومستر بيرسون ، فتلقيتهما في دوربان . وكما كانت دهشتهما كبيرة عندما رأيتني ، لأنهما كانا يجهلان ما وقع من الحوادث التي تتالت خلال سياحتهما . وكانت هذه أول مرة ألتقي فيها بهذين الانجليزيين اللذين أقدر فيهما البسالة والقدرة الفائقة .

لما أفرج عن ثلاثتنا أخذنا العجب والامتعاض . فاننا لم نكن نعرف شيئاً من الحوادث التي وقعت . وهبطت علينا أخبار تعيين اللجنة

كشيم جديد له دهشة وجدة ، ولكننا رأينا أننا لا نستطيع أن نتعاون معها على أية صورة من الصور ، وأول ما بدا لنا في الأمر هو أن الهنود يجب أن يعطوا حق تعيين ممثل واحد على الأقل ليشرح مظالمهم للجنة . فلما وصلنا نحن الثلاثة الى دوربان حررنا خطابا الى جنرال « سمطس » مؤرخا في ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٣ جاء فيه :

« نحن نرحب بتعيين لجنة التحقيق . ولكننا نعترض بشدة على تعيين مستر اسلن ومستر ايلي عضوين بها . وليس بيننا وبينهما أي عداة شخصي ، فأنهما رجلان لهما شهرتهما ولا تنكر مقدرتهما . ولكن لما كان كلاهما قد أعلن في مواقف كثيرة عداةهما للهنود ، فقد يحتمل أن يقعا في شيء ينال الهنود منه ظلم من غير أن يكونا شاعرين بأنهما يظلمانهم . والانسان قلما يستطيع أن يغير مزاجه تغييراً كلياً . وانه لما يضاد قانون الطبيعة أن نقرض أن هذين السيدين يمكن أن ينقلبا الى ضد ما كانا دفعة واحدة . ولكننا مع ذلك لا نطلب أن يخرجنا من اللجنة . بل نطلب أن يضم اليها في اللجنة رجال عرفوا باستقلالهم في الرأي وعدم تحيزهم ، نذكر منهم سير جيمس روز إنز والنيل و . ب . شريتر كلاهما معروف بعدله ووجهه للانصاف . وطلبنا الثاني ، ينحصر في أن يطلق سراح الستياجراهيين جميعا ، فاذا لم يحدث هذا ، فانه يصعب علينا أن نبقى خارج السجن اذ ليس هناك أي مبرر يحيز بقاء الستياجراهيين في السجن الى الآن ؛ وثالثاً اذا طلب منا أن نبحث عن الاستعلامات



الضرورية للتحقيق ، وجب علينا أن نذهب الى المناجم والمعامل التي يعمل بها العمال المتعاقدون لنتم عملنا . فاذا لم تجب هذه الطلبات ، فاننا نأسف أن نصارحكم بأننا سوف نبحث عن وسائل أخرى تؤدي بنا إلى السجن .»

ولما سمع « جوكهال » أننا نتأهب لزحف آخر أ برق الينا برقية مطولة قال فيها أننا إذا خطونا هذه الخطوة أوقفنا لورد هاردنج وأوقفناه في موقف حرج ، ونصحنا بشدة أن نعدل عن هذا الزحف ، ونعاون اللجنة بأن نعرض عليها البيانات التي تسهل مهمتها .

ولقد وقعنا بذلك في معضلة كبرى . فإن الهنود كانوا قد تعاهدوا على مقاطعة اللجنة اذا لم ينضم إليها أفراد يرضيهم أن يكونوا بين رجالها . وقد يمتعض لورد هاردنج أو يتألم جوكهال من تصرفنا ، ولكن كيف نرجع عن عهد قطعناه ، وكيف ننكض عن خطوة خطوناها ؟ وتقدم الينا مستر أندروز يتبهننا الى صحة مستر « جوكهال » المتهدمة ، ويبين لنا عن مقدار ما يؤثر فيه عملنا اذا صدمناه تلك الضدمة القوية بأن نستمر في خطتنا . والحقيقة ان هذه الاعتبارات لم تغب عن ذهني أبداً . فبعدنا اجتماعاً من الزعماء وخرجنا من البحث بقرار أن مقاطعة اللجنة يجب أن تستمر مهما كانت النتائج اذا لم تسمع الحكومة باضافة أعضاء آخرين الى هيأتها . وبهذا القرار أرسلنا برقية مطولة الى « جوكهال » وافق عليها مستر أندروز وقد جاء فيها :

« اننا نعرف مقدار ألك الذى تتحملة فى سبيلنا ، وعلى هذا كنا نرغب فى أن تتبع مشورتك ولو ضحينا فى سبيلها أكبر تضحية . كما أننا نعترف بأن لورد هاردنج قد أمدنا بمساعدة لا تقدر قيمتها ، ونود أن نكون جديرين بأن نحظى بمثلها حتى النهاية . ولكننا مع هذا نرغب فى أن تقف على حقيقة مركزنا . وينحصر الأمر فى أن ألوفا من الرجال قد قطعوا على أنفسهم عهداً لا يمكن أن يرجعوا عنه فى حين أن المعركة التى خضنا غمارها من المبدأ إلى النهاية قد قامت على قاعدة احترام العهد التى كنا نقطعها . ولا شك فى أن الكثيرين منا كانوا ولا شك يتركون الميدان لولا قوة العهد التى كنا تتعاهد عليها . كما أن الروابط الأدبية لا شبة تنحل تواء إذا نكص آلاف من الرجال دفعة واحدة عن موقف يوقفوه وكلمة أجمعوا عليها . على أن العهد التى تعاهدنا عليها ، لم نجمع عليها إلا بعد أن قتلنا الموقف بحثاً وتأملاً ، ووجدنا أن تمسكنا بعهدنا لا ينافى أى شرعة من شرائع الآداب المرعية . ولا يخفى أن الجالية الهندية لها الحق المطلق فى أن تقاطع اللجنة من غير أن يوجه لها أى لوم . والذى نرغب فيه رغبة أكيدة هو أن تكون نصيحتك لنا أن لا نرجع عن عهد كهذا يجمع بين ارادة الآلاف من الرجال وأن تقف جميعاً موقف الوحدة التامة مهما ترتب على موقفنا من النتائج . وأنا نلرجو أن تطلع لورد هاردنج على هذه البرقية . وأملنا أن لا تقف من

جرائها في موقف ضعيف . اننا بدأنا هذه المعركة متخذين من الله شاهداً  
ومرشداً .

ولقد أثرت هذه البرقية في صحة « جوكهال » أسوأ تأثير . ولكنه  
ظل يساعدنا ويمدنا ياً أكثر مما أمدنا به من التأيد والحماسة . وأبرق الى  
لورد هاردنج يشرح له حقيقة الموقف . فلم يرفض بذلك أن ينفذ عنا  
ويلقى بنا في خضم المعترك ، بل ثبت على تأييدنا ووافق على وجهة نظرنا  
وكذلك كان شأن لورد هاردنج معنا . فانه ثبت على تأييدنا .

وذهبت إلى بريتوريا مصطحباً مستر أندروز . ولقد وقع في هذه الآونة  
بالذات اعتصاب قام به عمال سكة الحديد الأوروبيون مما جعل الحكومة  
تشعر شعوراً تاماً بحرج موقفها . ودعيت الى أن ابدأ الزحف بجنودى  
الهنود في تلك الفرصة السانحة ، وبذلك أساعد المعتصبين في عمال سكة  
الحديد ، وأربح المعركة بأن أملى على الحكومة شروطى . ولكنى بادرت  
بأن أعلن أن الهنود لا يساعدون بهذا العمل عمال سكة الحديد ، لأنهم  
لم يعتصبوا ليربكوا الحكومة ، وان خوضهم المعركة ليقترحوا ميدانها  
انما يرمى الى غرض غير هذا . وانه اذا كان ولا بد من أن نبدأ الزحف ،  
فاننا لن نبدأ به الا بعد أن ينتهى اعتصاب عمال سكة الحديد . ولقد  
أحدث هذا القرار أثراً عميقاً في النفوس ، ونقله روتر الى انجلترا .  
فأبرق الينا لورد « أمبثيل » يهنئنا على هذا القرار . وصارحنى أحد  
مساعدى جنرال سمطس قائلاً - « إننى لأحب أهل وطنك ، ولا يهمنى

أن أمد اليهم يد المساعدة بحال من الأحوال . ولكن كيف أستطيع أن  
اتصرف ازاء ماتعمل ؟ انك تساعدنا في وقت الحاجة . فكيف تفكر  
في أن تقبض عليك أو تأسرك . اننى أود لو أنك تنزع الى أعمال العنف  
كما يفعل عمال سكة الحديد ، وبذلك تؤدي لنا أكبر خدمة بأن تفتح لنا  
طريق التصرف معك . ولكنك تمحض على ترك العنف وتوصى بعدم  
فعل الشر حتى بالاعداء . انك تنشذ الانتصار من طريق المشقة  
والاحتمال وتعذيب النفس ، وتراعى في خطتك حدود الآداب المرعية  
والبسالة . وهذا مايقفنا موقف العاجز مكتوف اليدين « - وكذلك  
عبر جنرال سمطس عما يشابه هذا من العواطف .

ولم تكن هذه هى الحادثة الأولى التى عبر فيها أناس من مضاديننا  
عن عواطفهم العميقة تلقاء مايبدي الستياجراهيون من ضروب البسالة  
النادرة . فانه عند ماأضرب العمال الهنود فى منطقة الشواطىء الشمالية ،  
تعرض المزارعون فى جبل « إدجكومب » الى خسارة فادحة اذا لم ينقل  
القصب الذى قطع إلى العامل ليعصر حالا . فرجع ألف ومائتا هندی الى  
العمل ، ولم يرجعوا الى اخوانهم المضربين الا بعد أن قاموا بهذا الواجب .  
واذكرا أيضا أنه عند ماأضرب العمال الهنود فى بلدية دروبان ، أرجعنا العمال  
الذين كان يعهد اليهم بالعمل فى المجارى الصحية والمرضين فى المستشفيات .  
فلم يرفضوا الرجوع الى أعمالهم . ولا شك فى أن الأعمال الصحية اذا  
تعطلت ، واذا لم يعرض أحد اولئك المرضى الساكنين الذين كانت تنص

بهم المستشفيات ، فان المدينة كانت تبتاحها الأمراض ، ويحرم المرضى من المساعدات الضرورية . ولم يقبل مؤمن بمبدأ الستياجراها أن يكون سبباً في مثل هذا أو يتحمل مسؤولية مثل هذه الكارثة . ولذا استثنينا العمال الذين يعملون في مثل هذه المهام . فانه على الستياجراها أن ينظر في كل خطوة يخطوها موقف عدوه ومركزه . وكنت أستطيع أن ألاحظ ان كل عمل من أمثال هذه الأعمال الباسلة كان يترك أثره غير الظاهر في القلوب ويرفع من قدر الهنود ويهيء الجو للتفاهم على قاعدة معقولة . ولقد تهيأ الجو للتفاهم بالفعل . وكان سير بنيامين « روبرتسون » الذي أرسله « لورد هاردنج » في سفينة خاصة على وشك الوصول الى جنوب افريقية في ذات الوقت الذي ذهبت فيه مع اندروز الى بريتوريا . ولكننا لم ننتظر مقدمه وسافرنا ، لأنه كان علينا أن نصل الى بريتوريا في اليوم الذي حده جنرال سمطس . ولم يكن هناك سبب حقيقي يدعونا الى انتظاره ، لأن النتيجة التي نرغب فيها ، لا سبيل اليها الا بقوة ايماننا .

ووصلت ومعى اندرو الى بريتوريا . ولكن كان على بمفردى أن أفوض جنرال سمطس . وكان الجنرال في ذلك الحين مشغولا باعتصاب عمال سكة الحديد ، وقد كانت اعتصابا ذا مظاهر خطيرة ، حتى لقد اضطرت حكومة الاتحاد أن تعلن الأحكام العرفية . فان العمال الأوروبيين لم يقتصروا في مطالبهم على زيادة الاجور ، بل بدؤوا يعتدون



على السلطات محاولين أن يقبضوا على عنان الأمور دون الحكومة .  
وكانت أولى مفاوضاتي مع جنرال سمطس قصيرة ، ولكني رأيت منها  
أن الجنرال لم يمتط فيها نفس الأشهب الذي كان يمتطيه من قبل ، عند  
مابدأنا بالزحف الأول . فانه لم يبد من الاستعداد لناقشتي ماأبدى الآن .  
ذلك في حين أن سلاح الستياجراها الذي لجأنا اليه في الأولى كان هو  
نفس سلاحنا الذي نهدد به في الثانية ومع هذا فقد رفض في الأولى أن  
يدخل معنا في مفاوضات ، أما في الثانية فقد أبدى استعداده لأن يبحث  
معنا الموقف من جميع وجوهه .

ولقد وصلت مع الجنرال الى اتفاق مبدئي ، وأوقفت حركة  
الستياجراها لآخر مرة . لقد فرح بذلك كثير من أصدقائي الانجليز .  
ووعدوا بأن يمدوا يد المساعدة في اتمام الاتفاق النهائي . ولقد لاقيت  
بعض المصاعب في أن أحمل اخواني الهنود على قبول هذا الاتفاق .  
فذكرني بعضهم بما كان من خلاف سمطس لوعده سنة ١٩٠٨ بل قالوا  
« ان جنرال سمطس قد تلاعب بنا مرة من قبل ، ويؤسفنا أنك لم يفد  
فيك ذلك الدرس ووثقت به مرة أخرى . ولا شك في أن الرجل سوف  
ينحونك مرة اخرى ، كما أننا لانشك في أنك ستضطر الى اعادة الدعوة  
للقيام بحركة الستياجراها مرة أخرى . ولكن من من بني جلدتك سوف  
يجيب دعاءك ؟ وهل تتصور ان الناس يكونون مستعدين دائما لأن  
يذهبوا الى السجن كلما دعوا لذلك ؟ وان لا يكون لهم من وراء ذلك الا

الفشل مع رجل كالجنرال سمطس لا يلبث ان ينكث عهده بمجرد أن يعاهد عليه ؟ » .

وكنت على يقين من أن مثل هذا الاعتراض سوف يوجه الى ، ولذلك لم أؤخذ بالعجب ولا بالاندهاش عند ما واجهني به اخواني . فليس من المهم أن يغش السيتاجراهي ويخدع ، بل عليه أن يثق بمناقشه مادام بعيداً عن ان يجد أسباباً لعدم الثقة به . والألم للمؤمن بمبدأ السيتاجراها كاللذة تماماً . ولذا لا يجب عليه أن يرتبك بمجرد أن يتصور الألم أو يخاف الشدة ، فيلقى بنفسه في أحضان الشك وعدم الثقة . ومن جهة أخرى فان السيتاجراهي مادام معتمدا على قوته الذاتية ، فلا يهمه اذن أن يخدعه منافسه . فان عليه أن يثق مما تكررت الخيانات وتنوعت المكائد وتلونت الخدع ، ويؤمن أنه بثقته هذه انما يزيد الحق قوة وبطشاً ويقرب أوان الانتصار .

وعقدت الاجتماعات في محال متفرقة ، ونجحت في النهاية في أن أحمل الهنود على قبول مبادئ الاتفاق . وهنا بدأ الهنود يفهمون معنى السيتاجراها فهما أدق وأعمق . وكان اندروز هو الوسيط والشاهد الأوحد على مواد الاتفاق . ولو أنني كنت تشددت وعاندت في قبول هذا الاتفاق ، فلا شك في أن عنادي كان يتخذ وسيلة لاتهام مراحي الهنود، وسلاحاً يستعمل ضدهم بشدة وعنف ، ولما استطعنا أن نصل الى النصر النهائي الذي فزنا به في خلاله ستة الأشهر التالية ، الا بعد زمن

طويل . ان الحكمة السنسكريتية القائلة بأن «الغفران تاج الباسل» -  
قد تقضى على الستياجراهى بأن لا يترك لأى انسان أية وسيلة لأن يجد  
فى تصرفه منفذاً للخطأ . وعدم الثقة دلالة على الضعف ، ومبدأ  
الستياجراها إنما يتقى كل أسباب الضعف ومعه عدم الثقة والشك ،  
مادام أن الستياجراهى لا يرمى الى تحطيم خصمه بل يرمى الى اجتذابه  
نحوه ورده الى العقول .

ولما انتهت هذه المعركة كان «جوكهال» فى انجلترا وأرسل الى  
طالباً أن الاقيه هناك . وفى شهر يولية سنة ١٩١٤ سافرت مصحوباً  
بمستر كانباخ وكوسترباى الى ثغر «سوزمبتون» بانجلترا .

وعند ما بلغنا جزر «ماديرة» بلغنا أن الحرب العظمى على وشك أن  
تنشب . ولما وصلنا بحر المانش سمعنا أنها نشبت بالفعل ، وتعطل سفرنا  
حيناً من الزمن . وكان من الصعب أن تقاد السفينة فى البحر بعد أن  
بثت الغواصات فى أنحائه ألغامها الفتاكة ، فلم نصل الى سوزمبتون الا  
بعد يومين قضيناها فى سياحة شاقة .

ولقد أعلنت الحرب يوم ٤ أغسطس ، غير أننا لم نصل لندن إلا فى  
اليوم السادس من ذلك الشهر .

ولما وصلت لندن علمت أن «جوكهال» فى باريس لا يستطيع  
العودة ، ولما كانت كل المواصلات قد قطعت بين لندن وباريس ، لم  
يتيسر لى أن أعرف متى يعود . ولم أكن أرغب فى العودة الى وطنى

قبل أن أراه ، ولكن لم يستطع أحد أن يعرف بالضبط متى يعود .  
بقى علي أن أفكر فيما أعمل في تلك الفترة ؟ وما هو واجبي نحو  
الحرب ؟ وكان « سورايجي أدا جانيا » رصيفي في السجن وأحد زملائي  
في حركة الستياجراها يدرس القانون في لندن . ولما كان هذا الشاب  
من أخص المؤمنين بمبدأ الستياجراها ومن أوقف الناس على روحها ،  
أرسلناه الى لندن ، حتى اذا فاز بشهادة المحاماة حل محلي في جنوبي  
افريقية . وفي طريق اتصالي به قابلت « جفراج مهتا » وغيره من  
الهنود الذين كانوا يدرسون في انجلترا ، وبعد المناقشة عقدنا اجتماعا  
حضره كل الهنود المقيمين في انجلترا و ايرلندا ، ليستمعوا مقترحاتي .  
فقد كنت أشعر بأن الهنود المقيمين في لندن يجب أن يأخذوا بضع  
في الحرب ، فان الطلاب الانجليز قد تطوعوا في الجيش ، فعلى الهنود أن  
لا يكون حظهم أقل من حظ اخوانهم . فاعترض علي مقترحاتي ، وقيل  
بأن الفاصل بين الهنود والانجليز ازاء الحرب واسع فسيح . وانا العبيد  
وهم الأسياد . فكيف يمكن للعبد أن يعاون سيده ومالك رقبته في وقت  
حاجته اليه ؟ وان واجب العبد يدعووه وهو يريد أن يتحرر أن ينتهز  
فرصة احتياج سيده وشدهته ؟ ولكن هذا الرأي لم يقنعني . وكنت  
أعرف الفارق البعيد بين الهندي والانجليزى من حيث المركز والعلاقة ،  
ولكني لم أكن أعتقد أننا أصبحنا عبيداً بالفعل . بل كنت أعتقد أن

متابعينا انما ترجع الى سفاهة الموظفين الانجليز ، أكثر من رجوعها الى الأسلوب الانجليزى فى مجموعه ، وان هؤلاء يمكن أن نربحهم لصفنا بالمعطف والحب . فاذا أردنا أن نحسن مركزنا معهم من طريق معاونتهم ومساعدتهم فى الحرب ، فان من واجبنا اذن أن نقف بجانبهم فى وقت حاجتهم القصوى . على أننى وان كنت أعتقد اذ ذاك أن أسلوب الاستعمار الانجليزى فيه نقص وظلم ، الا أنه لم يكن قد بدالى كل ما فيه من العيوب والنقائص التى أدركها الآن الادراك كله . أما وقد فقدت ثقى بأسلوب الاستعمار البريطانى ، فانى أرفض الآن أن أعاون الحكومة الانجليزية بأى وجه من وجوه التعاون . ولذلك أعجب كيف أن أصدقاء كثيرين ، على الرغم من اقتناعهم بفساد ذلك الأسلوب بل وبالموظفين ، وعلى الرغم من فقدانهم كل ثقة به وبهم ، ما يزالون يعاونون الحكومة ويمدون لها يد المساعدة .

وكان من رأى الذين قاوموا فكرتى فى معاونة الانجليز فى الحرب ، أن باعلان الحرب قد حانت الساعة التى يعلن فيها الهنود مطالبهم الوطنية ليفوزوا بما يحسن مركزهم وطنياً وسياسياً . ولسكن فكرى كان يتجه الى أنه لا يجب علينا أن نتخذ من حاجة بريطانيا وشدها فرصة ننتهزها ، وان من حسن السياسة وبعد النظر ، أن لا نعرض مطالبنا مادامت الحرب قائمة . ولذلك اتبعت رأى ودعوت كل قادر من الهنود على



التطوع أن يشترك في الحرب. وأجيبت دعوتي ، بأن اشترك فيها هنود  
من مختلف الأقاليم ومن مختلف النحل .

وحررت خطابا للورد « كرو » أخبره بهذه الحقائق وأعرفه بأننا  
على استعداد لأن نتلق دروساً في الاسعاف الحربى ، وان خطابى هذا  
يعتبر قبولاً منا للقيام بهذا العمل . ولقد قبل لورد « كرو » ما عرضنا  
عليه بعد قليل من التردد ، وشكرنا اذ أظهرنا استعدادنا لخدمة  
الامبراطوية فى مثل هذا الموقف الحرج .

وكانت لندن فى ذلك الحين تعج بالمناظر التى يروق للمرء أن يراها ،  
فلم يكن هنالك ذعر ، ولكن كان الجميع فى شغل شاغل وكل منهم  
يعمل على قدر ما تصل استطاعته . فبدأ الأصحاء يتمرنون على الحرب  
وحرركات الميدان . وبقى على الضعفاء والشيوخ والنساء مهام كثيرة،  
أهمها تجهيز الملابس والضادات للجرحى فى الميدان ، والعائدين منه  
الى الوطن .

( ملحوظة - « اضطر مهاتما غاندى أن يعود الى طقس حار بعد  
إصابته بالتهاب « البلوره » - Pleurisy - فغادر إنجلترا الى الهند فى  
شهر ديسمبر سنة ١٩١٤ » . س . ف . أندروز )

## فهرس الكتاب

	الصفحة
قصيدة المرحوم شوقى بك فى مهاتما غاندى	٤
ديباجة - صورة بقلم المترجم	٧
الفصل الأول - المولد والسكن	١١
الفصل الثانى - أيام المدرسة	٢١
الفصل الثالث - باكورة الشباب	٣٥
الفصل الرابع - فى لندن	٤٧
الفصل الخامس - العودة الى الهند	٧١
الفصل السادس - فى ناتال	٩٠
الفصل السابع - فى برتوريا	١٠٨
الفصل الثامن - عنف الغوغاء فى دوربان	١٣٧
الفصل التاسع - حرب البوير	١٥٩
الفصل العاشر - الطاعون الاسود	١٦٩
الفصل الحادى عشر - حتى هذه النهاية	١٨١
الفصل الثانى عشر - ثورة الزولو	١٩٦
الفصل الثالث عشر - تثقيف الروح	٢١٥
الفصل الرابع عشر - الستياجراها فى ناتال	٢٢٨
الفصل الخامس عشر - المقاومون السليون	٢٤٢
الفصل السادس عشر - السجن والانتصار	٢٦٢

### تتبيهان

- ١ - جاء فى ص ١٤ أن غاندى ولد سنة ١٨٩٦ وحقبة ميلاده سنة ١٨٦٩
- ٢ - نشرت خمسة الفصول الاولى من هذا الكتاب بمجلة المقتطف الغراء وقد أعدنا نشرها فى هذا الكتاب .

# ملوك المسلمين في العاصم واولادهم

بقلم الكاتب الشرقى الكبير

الاستاذ أمين سعيد

## أول كتاب في باب باللغة العربية

جامع لسيرة ٢٠ ملكا وأميراً من ملوك الشرق وأمرائه ،  
ومزين بصورهم ، وفيه بيان عن أحوال كل منهم ومعيشته اليومية ،  
ونشأته وعلومه وتاريخ بلاده السياسى . وفى الكتاب ١٥٠  
وثيقة ومعاهدة سياسية ، وبيان مفصل عن القضية المصرية  
والسورية ، والثورات التركية والعربية والایرانية والمغربية  
والأفغانية وغيرها

ملوك الطوائف

ونظرات في تاريخ الإسلام

للمعلمة دوزي مترجمة بقلم

عبد الحكيم

عرف العلامة المستشرق دوزي باختصاصه ودقته في بحوثه  
عن الأندلس والمسلمين وقد ترجم هذا الكتاب الخالد بدقة  
وأمانة وعلق عليه المترجم تعليقات نفيسة فأصبح لا يستغنى عنه  
ياحث عربي يعني بتاريخ الأندلس والإسلام

# منتدى سور الأزبكية

[WWW.BOOKS4ALL.NET](http://WWW.BOOKS4ALL.NET)